

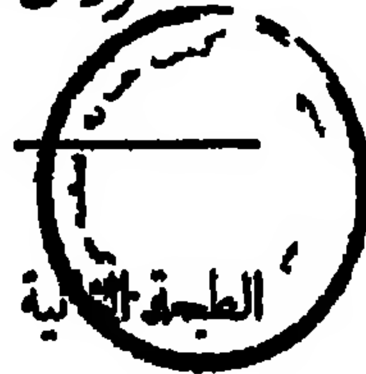
صلاح الدين يوسف بن أيوب

حياة صلاح الدين الأيوبى

تأليف

أحمد بيلى
دكتور فى الآداب

قدم الى الجامعة المصرية ونوقش بين
يدى الجمهور فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٠
ونال به المؤلف شهادة العالمية ولقب
دكتور فى الآداب



الطبعة الثانية

١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م

المطبعة الرحمانية
بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

تقرير

أستاذنا الجليل الشيخ عبد الوهاب النجار أستاذ التاريخ الاسلامى فى الجامعة وقد رفعه لهيئة مجلس الامتحان الذى عقد بصفة علنية يوم الخميس ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٠

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد فقد قرأت الرسالة التى قدمها حضرة الشاب الفاضل أحمد أفندى بيلى إلى الجامعة المصرية بين يدى امتحانه لنيل شهادة العالمية مع لقب دكتور، وقد صاغ الموضوع الذى اختاره (حياة صلاح الدين الأيوبى) بحثاً تاريخياً أودعه رسالته، وهى تقع فى ١٢٥ صفحة من القطع الكبير

قرأت الرسالة غير مرة، وبعد أن وقفت عليها وقوفاً تاماً عنّ لى أن أنظر إليها من جهات ست، وها هى نظراتى، أرجو أن تكون صادقة، وأسأله تعالى أن يهدينى سبيل الرشاد، فمنه العون والسداد

النظرة الاولى

«هل أحسن صاحب الرسالة الاختيار»

تقول الحكماء إن اختيار المرء قطعة من عقله؛ ونحن أولاء نرى أن النابهين فى الأمم، والنابغين فى الشعوب، الذين لا يقطعون مراحل حياتهم دون أن يؤثروا فى تاريخها أثراً ظاهراً، قليلون، وأقل منهم أولئك الذين

يهبهم الله تعالى القدرة على تغيير وجه الكرة الأرضية، ويضطر الواحد منهم علماء الجغرافيا إلى صوغ كتبهم على نمط جديد، وإعداد الأصباغ لتغيير حدود الممالك على المصورات الجغرافية .

ويترك فى الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وهؤلاء النادرون يقل فيهم من يكون فياضاً بالعدل والرحمة والشفقة، سمح النفس ، رقيق العواطف ، مطلق اليد بالجود ، مقبوض الكف عن الأساءة ، ولا يكاد الدهر الضنين يسمح بمن يستوى فى مدحه والثناء عليه، الأعداء والأوداء ، ويشيد بفضله فى كل واد وناد مخالفوه ومحالفوه

من هذا الفريق الذين لايطرقون هذه الحياة الدنيا إلا فى فترات قليلة وعلى حين غفلة من الدهر، وفى سنة من عين الزمان ، الملك الكبير السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

ذلك الرجل الذى أفاض الله تعالى عليه من المواهب الجليلة ، وحلاه من الكمال والتوفيق بما استحق معه أن يكون من كبار الرجال فى العالم . ولو أعطيت الخيار لقلت إنه من أكبر كبار الرجال

لو أن الزمان الضنين سمحت يده للشرق الأدنى بعدد من الرجال تعاقبوا على ملكه بعد صلاح الدين، قدصبوا فى قالبه ، وطبعوا على مثاله ، لما تعب ساسة الأمم فى أوروبا اليوم ولأراحوهم من كد الأذهان وتقريح القرائح فى الوصول إلى حل للمسألة الشرقية يريح الضمائر ، فأن تعاقب أمثال لصلاح الدين على كرسى الملك كاف لأن يمسح من صحف الأذهان فى الغرب كل ما كان مثبتاً فيها من خيال لما يسمونه المسألة الشرقية

التى ورثوها خالفاً عن سالف، وتجرعوا بسببها كؤس الهم مترعة، وشبوا فى سبيلها نار الحرب عالية، لايخبوا لهبها على توالى القرون، ولا تخمد جذوتها مع كرور الأحقاب، وكلما خبت زادوها سعيرا، ومن يدرينا أن الأمر كان يسير على عكس مانحن عليه اليوم، ويكون الحل المطلوب الوصول إليه إنما هو حل المسألة الغربية لا الشرقية

ومما لاخفاء فيه أن الأنسان نزاع بفطرته إلى العلم بأخبار الأولين من قومه، والتبجح بفضائل السابقين من عشيرته، وأعمالهم التى ترفع الرؤوس وتبعث فى الهمم روح الاقتداء

من هذا المنفذ يصل الربانيون وساسة الأنفس إلى تقويم الأخلاق وتوجيه الهمم إلى فعل الخير، وهذا صلاح الدين الأيوبى من خير من أنجبهم الشرق، وافتخر بهم النوع الأنسانى. فمحادثة أبناء الشرق بآثاره ومآثره، وإحياء فضائله ومفاخره، مما يهيب بالأنفس إلى الاقتداء، وتلفتها فى ظلمة الحوادث إلى ضوء الاهتداء، كل هذه الاعتبارات تجعلنى لا أخشى مفندا إذا قلت إن أحمد بيلى أفندى قد أحسن الاختيار إذ جعل حياة صلاح الدين موضوع رسالته

كأنى بهامس فى أذن أخيه يقول مَن صلاح الدين الأيوبى هذا الذى يبالغ الناس فى وصف شمائله، وترديد الشرح فى فضائله وفواضله؟ أملك كريم؟ أم الفضائل تمشى على رجلين؟ وإنى أجيب بأنه ليس بواحد منهما ولكنه إنسان جم المواهب والفضائل قليل الأساءة، جاء فى زمن كله سيئات، وأهله إلا القليل منهم كما قال المتنبى

إنى لا أفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا
وإذا أراد العاد أن يعد سيئاته وجدها قليلة العدد
فأن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللائى سررت ألوف
« كفى المرء نبلا أن تعد معايبه »

قلت إن الموالين والمخالفين قد اجتمعوا على امتـداح صلاح الدين والثناء عليه ، أما قومه ومن هم منه بسبيل فقولهم معلوم لا يحتاج إلى فضل بيان . وأما المخالفون ، فانى أستعير من هذه الرسالة بعض ما ورد فيها وهو ما جاء فى تاريخ المؤرخين من قوله « والذى أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه وعفوه ولا سيما محافظته على العهود والمواثيق . ومن المدهش أن تكون هذه الأوصاف التى ملأت قلوب أهل أوروبا إعجاباً هى الأوصاف التى يصفون بها هذا الرجل الذى انتصر عليهم فهزمهم فى آسيا » وإنى أكتفى بهذا وأقول كرة أخرى إن صاحب الرسالة قد أحسن الاختيار إذ اختار حياة صلاح الدين

النظرة الثانية

« فى الموارد التى استقى منها كلامه عن صلاح الدين »

أخبر صاحب الرسالة بأنه جمع طائفة من الكتب يستأنس بها ويسترشد فيما عساه أن يقوله . ثم نقد الكتب العربية التى اطلع عليها . وإنى لا أعارض فيما قال عنهـا . وأما عن الكتب الأوربية ، فما يدعو إلى أسفى واغتباط

صاحب الرسالة أنى لا أعرف لغة أجنبية، ولو عرفت لاستدركت عليه فى اختياره بعض الكتب ولدلالته على غيرها وأمسها بموضوعه . ومع هذا فهو لم يقتصر على الكتب التى ذكرها فى المقدمة . فقد نقل من رحلة صاحب السمو الأمير محمد على باشا الكبير وعن كتاب أستاذنا الفاضل أمين سامى باشا ودائرة المعارف للبستانى وعن ابن خلكان وغيرهم ممن عزا إليهم أقوالهم فدلنا بذلك على أنه جمع وقرأ كثيراً وإنى أشكر له اجتهاده

النظرة الثالثة

« الرسالة فى لغتها »

كتبت الرسالة بعبارة بسيطة سلسلة قريبة من الأذهان لا تستعصى على القارئ ولا تنبو عن ذهنه فهى من هذا القبيل شىء حسن مقبول

النظرة الرابعة

يشق على السامع والقارئ النبيه أن يعثر ذهنه بما يعثر به لسان القارئ أو سن قلم الكاتب من خطأ صرفى أو نحوى، وقد اشتملت الرسالة على بعض كلمات لم تجر على القانون الصرفى أو النحوى أو يراد بها غير ما وضعت له ، وأنا أورد هنا هذه الكلمات فأقول :—

خطأ	صواب	ملحوظات
المتصحف	المتصفح	التصحيف إهمال معجم وإعجام مهمل أو نقل إعجام المعجم إلى مهمل

خطأ	صواب	ملحوظات
الكهانة	الخداع	يريد بالكهانة الخداع . والكهانة أن يقوم الرجل بأمر آخر
امتلكت	ملكت	امتلكت لا توجد وقد استعمل هذه الكلمة كثيرون
الفرس	الترك	لأن السلجوقيين أتراك
ميقظ	موقظ	
توران	طوران شاه	لا توجد فى باب التاء من القاموس التركى وفى نمرة ٣٦٥ من الدرارى اللامعات ـ طوران ـ ثابت . ساكن موجود . كائن . قائم . وقد غلط فيها ابن خلكان وسواه
الأمدادات	الأمداد	تقول أمددت الجيش إذا نصرته بجماعة وقياسى مصدره الأمداد ولا يجمع على إمدادات
برهة	هنيهة	يريد زمناً قصيراً وليست له
من على جوادة	عن جواده	أوصل حرف الجر على مثله وذلك شاذ وقد روى « عدت من عليه بعد ما تم ظمؤها »

خطأ	صواب	ملحوظات
يؤثر على	يؤثر فى	أثر يتعدى بالفاء لا بعلى
نواياهم	نياتهم	
كفر تاب	كفر طاب	«أرى كفر طاب أعجز الجفر ماؤها» ولعله أخذ ذلك عن كتب غير عربية
أ كوام	آكام	
فاستحضره	فأحضره	استحضر فرسه ركضه طلباً للسرعة فى الأحضار

هذه هى الأمور التى أخذتها عليه وبوجود الكثير منها مساغ فى اللغة العربية وإن لم تكن الفصحى وبعضها من قبيل ما ألف فيه الحريرى درة الغواص فهو دائر على ألسنة كثير من الخاصة متردد فى كتابة كثير من كتاب هذا العصر وقد كنت أود أن تخلو الرسالة منه

على أن وجود مثل ما ذكرت من الألفاظ لا ينقص من قدر الرسالة شيئاً ولا يحط من قيمتها باعتبارها بحثاً تاريخيًّا

النظرة الخامسة

« من حيث انها بحث تاريخى »

القارئ لهذه الرسالة من حيث اعتبارها بحثاً تاريخيًّا يجدها قد ابتدئت ببيان لحال صاحبها والجواذب التى جذبته إلى النظر فى التاريخ وما قضاه من السنوات بالجامعة فى الطلب ثم توجه رغبته للحصول على شهادة العالمية

ثم جمعه الكتب العربية وسواها ونقد ما يستحق النقد . ولم يخل شباب الأمة من اللوم على قعودهم عن إنعاش لغتهم العربية بتنمية ثروتها العلمية بترجمة كتب التاريخ النافعة من اللغات الأجنبية إذ هي أدق بحثاً وأنفذ نظراً الخ . ولما شرع فى الغرض المقصود قدم له مقدمة لتكون جسراً يعبر عليه إلى مقصوده ، فذكر الخلافة وأطوارها وأدوارها وما تقلبت عليه من قوة وضعف ، وما ذاقته من عز وذل . وما زال يخب فى هذا الميدان حتى أتى على زمن انحلال الدولة العباسية والسلجوقية وتغلب أهل الأطراف على ما فى أيديهم ، وقيام الأسر الأتابكية وغيرها ، ثم خص من بين هاته الأسر أسرة الأتابك زنكى والأسرة الكردية . ثم عطف على الحرب الصليبية وأسبابها وما كان لها من نجاح إلى أن خلص إلى صلاح الدين وتكلم على أسرته واختلاف المؤلفين شرقا وغرباً فى أصل الجيل الذى هو منه وفى نسبه

بعد ذلك عقد باباً للكلام على صلاح الدين فى طفولته وأيامه الأولى وقارن بين أقوال الأوروبيين وناقشهم ، ثم ابتداء أمره قبل الملك والأسباب التى كانت ممهدة لوزارته بطريق غير مباشر ، ثم تكلم عنه وزيراً ، ثم الجفوة بينه وبين نور الدين ومداراة الأول للثانى ، ثم الدور الثانى من أدوار حياته وهو وجوده بالشام ونزاله للمخالفين من المسلمين والفرنج وتتبع ما كتب عنه فى هذا الدور ، ونقل الروايات العربية وغير العربية ، وناقش وحاكم العبارات وأظهر رأيه فى مواطن كثيرة بجرأة وإقدام وحرية . وأتى على فتحه بيت المقدس وما تلا ذلك من المواقع ، ولم يترك شيئاً مما يؤخذ على

السلطان صلاح الدين باعتباره قائداً لجيش المسلمين ومعقد آمال الأمم الشرقية إلا أتى عليه ووفاه حقه من نقد أو استحسان . ولم يترك فى حادثة من الحوادث التى خاض فيها وجها للعذر إلا أبدى غرته ناصعة

يعجبنى فى هذه الرسالة أن حضرة كاتبها قد استعمل حريته فى مناقشة الآراء والحكم على الوقائع والتماس أمس العلل بها ، ونقد العمل مهما كان الآتى به عظيما ، إيثاراً للحق وإبقاء للواجب التاريخى . وهذا هو الشىء الذى يعتبر بيننا حديثاً طريفاً . وإنى أمدح من يعمل هذا العمل وأعتبره قد خدم العلم خدمة جلى . وحسب الباحث فى التاريخ فخراً أن تكون شخصيته ظاهرة فى بحثه . وليس عليه أن يصيب شاكلة الصواب ، إذ للأحكام مناهج ومسالك ، وللعلل فى الحوادث وجوه تختلف باختلاف نظر الناظر وميوله وعواطفه . ومن اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر ، وكلاً وعد الله الحسنى

وإنى أشير هنا إلى بعض الصفحات التى تكلم فيها صاحب الرسالة بشجاعة أدبية ، وأبدى رأيه غير هياب ، ولولا طول الكلام فيها لذكرت العبارات برمتها غير أنى أكتفى بالإشارة إلى أرقام تلك الصفحات التى يعلم المراجع لها أنه يتكلم مظهراً شخصيته مع تمام الحرية ، وهى صفحات ٧٦ و٧٧ و٧٨ و٧٩ و٨٢ و٨٣ و٩٣ و١٤٢ و١٥٥ و١٥٨ و١٦١ و١٦٢[1] وله سوى ذلك ، ولكنى أعد منها ولا أعددها

---

(١) هذه أرقام صفحات النسخة المخطوطة

من هذا كله يمكننى أن أقول إن كاتب الرسالة قد أتقنها باعتبارها بحثاً تاريخياً فى حياة رجل من أعظم رجال التاريخ .

النظرة السادسة

وأما النظرة السادسة فهى بعض أمور جاءت فى الرسالة يحتاج الأمر فيها إلى مناقشة مؤلفها للوقوف على مقدار علمه ببعضها، وعلى السبب فى عدوله عن اختيار رأى بعض المؤلفين فى التاريخ إلى رأى آخر، ونحو ذلك، تكون المناقشة فى ذلك علنية فى مجلس الامتحان ؟

أبريل سنة ١٩٢٠

كلمة
للاستاذ الدكتور طه حسين

فى مصر الآن نهضة قيمة ، لم تتناول حركة العقل وحده ، أو الشعور السياسى وحده ، وإنما تناولت كل شىء ، وامتد ظلها على جميع فروع حياتنا الخاصة والعامة فى كل ما تناولته الحياة من مرافق الأفراد والجماعات . ليست هذه النهضة حديثة ، وليس الشعور بها طريفاً ، فربما كان أقدم ما نعرفه من أمرها وصول الفرنسيين إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وما كان لهم من الأثر فى إيقاظ المصريين وتنبيههم إلى أن للحياة مُثلا عليا غير ما ألفوه ، وإلى أن هناك واجبات اجتماعية لا ينبغى لأمة حية أن تجهلها أو أن تقصر فيها

أيقظ الفرنسيون مصر ونبهوها فاستيقظت وتنبهت ومضت فى سبيلها إلى الرقى متعثرة متباطئة ، ولكنها ثابتة القدم مزمعة الرأى على ألا ترجع أدراجها أو تقف من هذا الرقى عند حد . مضت فى سبيلها إلى الرقى ، وأخذت تغالب فى هذا السبيل خطوباً ثقالاً ، منها الداخلى ومنها الخارجى ، وقد قدّر الله أن تغلب هذه الخطوب ، وقد قدّر الله أن تفوز

ولقد نعلم أن الأمد لا يزال بعيداً وبعيداً جداً بيننا وبين ما نرجو من الحياة الصالحة فى كل شىء ، ولكنا نعلم أيضاً أن الأمد بعيد وبعيد جدًّا بين ما نحن فيه الآن وما كنا عليه منذ قرن مضى ، نعلم ذلك فنغتبط

بما بلغنا ، ونقوى عزائمنا على أن نُجِدّ في سبيل آمالنا لا واهنين ولا متواكلين .

ولقد نعلم أن ليس لما تسلكه الأمم إلى الكمال من سبيل غاية ولا حد ، فهي كلما وصلت من الرقى إلى طور استيقنت بأن دون هذا الرقى رقياً آخر يجب الفوز به والوصول إليه . حياتها كلها مضى سريع أو بطىء في طلب هذه الغاية المنشودة التي لا تقاربها إلا بعدت ، ولا تدانيها إلا نأت ، نسعى ولكنها تسعى أمامنا كأن قُدر علينا ألا ندركها ؛ ولكن الفوز الحقيقي هو في هذا السعى الذي لا أمد له ولا حد ينتهى إليه

لن يظفر بالكمال أحد ، ولن يكون للرقى العلمى أو الاجتماعى حد ، إنما حياة الأمم حركة دائمة إلى الأمام ، وإنما الفوز كل الفوز ، والرقى الذى ينبغى أن يطمع فيه الأنسان ، هو أن تكون هذه الحركة متصلة ، وألا يعترضها من العقبات الداخلية أو الخارجية ما يقفها أو يجعل مضيها بطيئاً ، وليس من شك في أن مصر قد أخذت بنصيبها من هذا الفوز فشعرت وأحست وانبعثت فيها الحياة فمضت إلى ما تريد

هذا شيء لاشك فيه ، ولا حاجة إلى إثباته ؛ لأن ما نشهد وما نسمع مما يجرى ويقال في مصر متظاهر على إثبات أنه حق

أرأيت إلى هذه الصحف السيارة لا تذكر إلا الاستقلال وتحقيق الآمال ، أرأيت إلى الناس في مجالسهم لا يتحدثون إلا بالجديد ، ولا يرغبون إلا في الجديد ، أرأيت إلى هذه الكتب تترجم وتؤلف ، وإلى هذه الفصول المختلفة تكتب وتنشر ، وإلى هذه المحاضرات تلقى ويتجاذب

الناس فيها ألوان الحديث ، أرأيت إلى هـذا كله ، إنه دليل على الحياة القوية ،وباعث فى الوقت نفسه على هذه الحياة ، دليل على الحياة لا نه حركة ، فلنغتبط به ولنستزدمنه ، ففيه الخير كل الخير

لا ينبغى أن يزهدنا فيه أو يرغبنا عنه ما نشهد من ضعف أو قصور ، فكل ضعف إلى قوة ، وكل انحطاط إلى رقى ، إذا كانت هناك الحياة الداخلية التى تمد الضعيف فتقويه ، وتنبعث فى المنحط فترقيه

ولعل أقوى ما يميز هذا العصر ، عصر النهضة الذى نعيش فيه ، ميل الشباب والشيوخ إلى ذكر الماضى وما كان لآبائنا فيه من بلاء حسن وأثر بعيد ، فأن الأمة الحية حقاً لا تحيا بحرصها على الحاضر وتهالكها عليه ، وإنما ترغب فى تغييره ، وأن تستبدل به خيراً منه ، وليس سبيلها فى ذلك أن تكلف بالجديد وحده كلفاً لا حد له ، وإنما سبيلها المعقولة أن تكلف بهذا الجديد ، وأن تستمد من القديم قوتها على تحصيله والفوز بالصالح منه

كذلك نهض أهل الغرب ، فهم حين سئموا حاضرهم إبان النهضة لم يندفعوا بالجديد إلا معتزين بالقديم ، ولولا أن أتيحت لهم آثار اليونان والرومان ، وما كان لهم من مثل عليا فى السياسة والأدب ، وفى الفلسفة والعلم ، لما قدر لهم أن يقطعوا من الرقى هذا الشأو البعيد

كذلك نهضت أوروبا وكذلك تنهض مصر ، ذكرت قديمها فنشرته ، ونذكر قديمنا فنحييه ، ولقد ننتحل لذلك العلل والمعاذير ، ونتكلف له الحجج والأسباب ، والحقيقة واضحة جلية ، وهى أن هناك علة واحدة هى أننا أمة ناهضة ، نشعر بشخصيتنا ، ونسعى شاعرين أو غير شاعرين

إلى أن نظهر كل ما من شأنه أن يقوى هذه الشخصية فى أنفسنا ، ويحمل الناس على أن يعترفوا بها ، ومن هنا لا أصدق ما انتحله صديقى الدكتور بيلى فى مقدمة كتابه هذا من الأسباب التى حملته على أن يختار صلاح الدين موضوعاً للبحث ، وإنما أعتقد أنه اندفع بحكم هذه النهضة المصرية العامة إلى أن يُظهر وجهاً ناصعاً مجيداً من وجوه الشخصية المصرية ، فاختار من عصور مصر الخالدة عصراً قدر الله لها فيه أن تحمى الحضارة ، وتذود عن الأسلام ، وقديماً قدر الله لمصر أن تحمى حضارة اليونان ، وتذود عن فلسفتهم ، وتحدث من هذه الحضارة اليونانية ممتزجة بالحضارة المصرية القديمة هذا المزاج الفلسفى البديع الذى تمثله الفلسفة الأسكندرية والديانة المسيحية أحسن تمثيل

أظهر الدكتور بيلى فى هذا الكتاب وجهاً من وجوه الشخصية المصرية التى حمت الحضارة مرات ، فعصمت حضارة اليونان وفلسفتهم من الضياع ، وصدت غارات الصليب عن الشرق وأهله ، فاستبقت للحضارة الأسلامية حياتها وقوتها ، ثم ذادت التتار عن هذا العالم الأسلامى أيضاً ، وكانت آخر معقل آوت إليه آثار المسلمين العقلية والأدبية ، فظلت فيه آمنة حتى أتيح لها هذا العصر الذى نحن فيه ، والذى أخذ يبعث فيها القوة والحياة

ولقد أرى صديقى يتمنى أن يكون قد وُفق فى بحثه إلى شىء من النفع ولو قليل ، ولعلى أستطيع أن أهنئه بأنه قد وُفق إلى شىء من النفع كثير وكثير جداً ،؟

مارس سنة ١٩٢٢

(١٧)

رسالة السيدة الفاضلة ، والكاتبة القديرة ، الآنسة « مىّ »



القاهرة فى ١٢ مارس سنه ١٩٢٣

سيدى

أردت أن أقرأ الكتاب الذى أهديتنيه قبل أن أشكر لك لطف الأهداء . أردت أن أقرأه أولا لأنه حوى موضوعا هو من أهم وأفخم الموضوعات التى تثير الحمية والأعجاب فى نفوسنا الشرقية . وأردت أن أقرأه لأعلم كيف عالج هذا الموضوع ثانى دكاترة جامعتنا المصرية

ولقد توفقتَ فى بحثك وفى مسايرة الحوادث وتعليلها توفيقا جميلا ، كما توفقتَ التوفيق كله فى اختيار ذلك العهد الغنى بالوقائع الموفور العبر

أعلم أنى بكلمتى هذه لست بقائلة لك شيئا جديداً . فحسبى إذاً أن أضم تهنئتى إلى مجموعة التهانىء التى أظفرك بها كتاب صلاح الدين . متمنية أن يكون منك بمثابة الديباجة لأبحاث قيمة تتبعه . لأن مثل هذا التبصر فى جلائل الحوادث عند شبيبتنا ، وإمعان النظر فى الشخصيات العظيمة ، إنما هو دليل على حبٍّ للجلال والعظمة . وهل من رائد أصدق من هذا للنهضة والرقى ؟

« مىّ »

(١٨)

رسالة الأستاذ الدكتور طه حسين

*
* *

مصر فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٢٠

كتابك أيها الأخ العزيز كغيره من الكتب القيمة ، فيه ما يحمل على الرضى والأعجاب ، وما يبعث على النقد والعتب ، ولولا أنى على جناح سفر ، لفصلت هذا وذاك ، ولكن هذه الظروف القاهرة قد حرمتنى لذة تقريظك ، وأراحتك من مرارة نقدى . فأنا أرجو أن تجد من تقريظ المقرظين ونقد الناقدين ما يشجعك على الاستمرار فى هذه الطريق القيمة التى بدأتَ تسلكها ، ويحملك على تهذيب مناهجك فى البحث وتكميلها . على أنى لن أعفيك بعد عودتى من كلمة يمتزج فيها التقريظ والنقد ، ولا أشك فى أنها سترضيك ، لا سيما وأن حظ الثناء سيكون فيها عظيما موفوراً. ولك من أخيك المخلص تحية ملؤها الرضى عنك ، والتشجيع لك ، والأمل فيك .؟

طه حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد خاتم أنبيائه ورسله . وبعد فقد تاقت نفسى لأن أكون معلماً ، فاتخذت فى حياتى العلمية الطريق التى توصلنى إلى هذا الغرض ، وما هو إلا أن حصلت على إجازة فى التدريس من مدرسة المعلمين (الخديوية) وكان أستاذ التاريخ فيها حضرة صاحب العزة أحمد بك صالح . هذا الأستاذ يدرس التاريخ على نحو يباين المألوف فى معاهد التعليم الأخرى فى مصر ، فهو يسهب فى الشرح ويختصر فى المذكرات ، فتطلعت نفسى منذ ذلك الحين إلى درس التاريخ ، وأخذت بعد الخروج من المدرسة أبحث عن معهد أستطيع فيه أن أوافى النفس بما كانت تتطلع إليه ، فلم أجد فى القطر مكاناً أتمكن فيه من الدرس على طريقة أوسع سوى الجامعة المصرية ، فانتسبت إليها فى أكتوبر سنة ١٩١٥ وما كدت أسمع فيها بعض المحاضرات فى المواد المختلفة حتى رأيت أنى قد وجدت ضالتى التى كنت أنشدها ، وكأن الجامعة بذلك قربتنى مرة أخرى من العلم وتلقيه

لذلك أتقدم إلى الأستاذ أحمد بك بجزيل الشكر ووافر الثناء ، فلولاه ، ولولا طريقته التى حببت إلىّ التاريخ لما تشرفت بأن أقوم اليوم هذا المقام ،

ولما كان مثلى إلا كمثل غيرى من كثير من الشبان الذين إذا ما غادروا جدران مدارسهم ، وفتح الله لهم باباً للحياة غير المدرسية ؛ اتخذوا «الملاهى» أندية لهم ، بعيدين عن العلم وأهله وذويه ؛ فكأن الأستاذ بطريقته هذه قد حبب إلىّ الاسترسال فى طلب العلم ، وانتهاج طريق يخالف طريق كثير من الشبان فى بلدنا

قد يتبادر إلى بعض من يسمع حديثى هذا أنى آخذ على الأستاذ قصر مذكراته فى دروسه ، كلا فأن الذى فعله الأستاذ إنما كان رغبة منه فى تقصير الوقت على الطلبة إذا ما أرادوا تذكر دروسهم



قضيت بالجامعة المدة التى أوجبها القانون على المنتسبين أن يقضوها ، وانتهيت من الامتحانات الخصوصية فى مدة ثلاث السنوات الأولى ، ثم انتسبت فى السنة الرابعة تنفيذاً لما يراه ذلك القانون ، دون أن أقرر على نفسى الحضور لتلقى الدروس إلا لمجرد طلب المزيد

وفى اعتقادى أنه لو جعلت الجامعة هذه السنة الرابعة خاصة بتلقى محاضرات فيما يسمونه فلسفة التاريخ ، أو بعبارة أخرى أبحاثاً تاريخية خاصة لطلبة الدكتوراه ، يقوم فيها حضرات الأساتذة بمناقشة الطلبة مناقشة تغرس فيهم حب البحث الذى يوصلهم إلى الاستنتاج مما يقرأون ، لسهل على الطلبة المتقدمين لهذا الامتحان كتابة رسائلهم فى موضوعاتهم المختلفة

أمضيت السنة الرابعة وأنا لا أدرى فى أى موضوع أكتب رسالتى ،

فكنت أختلف إلى الجامعة أسمع فيها حضرات الأساتذة على حسب عادتى من جهة ، ولعلى أقف على موضوع أكتب فيه من جهة أخرى ، فانتهى عزمى إلى الكتابة فى «صلاح الدين يوسف ابن أيوب» بعد أن مر أمام المخيلة كثير من الموضوعات ، شأن كل من يريد اختيار واحد من كثير

والذى حبب إلىّ هذا الرجل واستقصاء أمره ، ما قام به من الأعمال الجليلة فى وقت انحلت فيه العزائم ، وقصرت الهمم ، إلا فيما يعود على النفس من المنافع والمزايا الخاصة ، وكذلك أعماله الباهرة التى خدمت الشرق والشرقيين أكبر خدمة فى التاريخ ، ذلك انه صد أوروبا فى جاهليتها الأولى وهى على وشك أن تجتاح الشرق بهمجيتها هذه ، فأبعد شرها عن الشرق وأهله . على أن ما أداه من الخدمة الدينية لايقل عن هذه فقد قضى على التشيع الذى انتشر فى مصر وما جاورها من الأقاليم ، فقضى على الخلافة الفاطمية ، ووضع حداً لتلك الفوضى التى كانت تقوم فى وادى النيل ، وكوّن قوة إسلامية ارتعدت منها فرائص أوروبا كلها



أخذت العدة لذلك منذ حوادث مارس سنة ١٩١٩ ، فجمعت طائفة من الكتب العربية أستأنس بها وأسترشد فيما عسانى أن أقول ، فوجدت أكثرها يكاد يتطابق فى اللفظ والمعنى ، مما يجعل الأنسان يعتقد أن المؤلفين جميعاً قد استقوا من مصدر واحد فيما كتبوا ؛ ويظهر لى أن التزام أكثر مؤرخى العرب سرْد الحوادث سنة بعد أخرى جعلهم لايعنون كثيراً

بالبحث فى الحوادث وأسبابها ، فاقتصروا على سردها وأسماء من قاموا بها ، فترى ابن الأثير فى الكامل ، وأبا الفداء فى المختصر فى أخبار البشر ، وميخائيل بك شاروبيم فى الكافى ، وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين قد ساروا على هذا النمط ؛ ولو كتب ابن خلدون فى العبر باستقصاء أطول لجاء كتابه أحسن مما هو الآن ؛ أما صاحب كتاب الروضتين فقد كانت مهمته أن يجمع الروايات المتعددة من غير أن يبدى عناية خاصة بواحدة منها ومناقشتها ؛ أما العماد فى الفتح القسى فلا يختلف عن هؤلاء إلا بتفصيل أكثر ، ويزيد عنهم عنايته بتزويق عبارة الكتاب ، وجعلها إلى الموضوعات الأنشائية المسجوعة أقرب منها إلى سرد الحوادث التاريخية ، ولا ننسى أن العماد كان وزير صلاح الدين ، وقد علمتنا الأيام مقدار مبالغات المتصلين بالملوك والسلاطين

أما كتب الأفرنج فقد كتب أكثرها عن صلاح الدين فى سياق حديثها عن الحروب الصليبية ، ولم يتصد للكتابة على صلاح الدين منفرداً فى اللغة الأنجليزية إلا استانلى لين بول على مقدار ما وصل إليه علمى

وعدم معرفتى بلغات أجنبية أخرى غير الأنجليزية (وإن كنت أعرف مقداراً من الفرنسية لكنه لا يمكننى من درس كتب التاريخ المكتوبة بها) يمنعنى أن أتعرض لما كتب فى هذه الكتب عن صلاح الدين . وفى هذا المقام أتقدم إلى أولياء الأمر فى الجامعة ، راجياً أن يدخلوا فيها درس غير الفرنسية والأنجليزية من اللغات الأجنبية الحية ؛ على أن هذا الأمر قد أدركته مدارس أوروبا لا جامعاتها ، فحتمت مدارس انجلترا مثلا على طالبى

التقدم لامتحان (المتر كيوليشن) أن يعرفوا لغتين غير اللغة الأنجليزية ، مع أن هذه الشهادة ليست إلا فى مرتبة شهادة الدراسية الثانوية عندنا

والحق أن الذى يراد إعداده لدراسة الآداب وفروعها أولى بأن يعرف عدة لغات أجنبية راقية ، ليتمكن من الاطلاع على آراء العلماء المختلفى الجنسيات واللغات والنزعات فى كل أمة متحضرة ، فالأنجليزى ينظر إلى الحروب الصليبية وأبطالها بنظر يختلف كثيراً عن نظر الفرنسى لها ، وهما معاً يخالفان ما يراه الألمانى والأيتالى وهكذا

وفى اعتقادى أن ما كتبه ابن الأثير وأبو الفداء ومن سار على شاكلتهما فى علم التاريخ لم يقصدوا به سوى أن يلم المطلع على ما كتبوا بأحوال العالم على وجه الاختصار ، ولو أن ابن الأثير وابن خلدون وأباشامة وغيرهم وضعوا أمام أعينهم درس الحوادث ومناقشتها مناقشة الناقد البصير ، لكانت أعمالهم تقصر عن استيفاء الموضوعات التى كتبوا فيها ؛ ولو أنهم عمدوا إلى الحوادث الهامة وكتبوها على النحو الذى أردت، لكانوا قد أدوا إلى العالم العربى خدمة تذكر فتشكر

* * *

تكثر الشكوى الآن من ندرة الكتب العربية فى الموضوعات المختلفة على الأسلوب الحديث ، وهى شكوى قد تقوم على شىء من الحق ؛ على أن الذى يدهشنى من أمرها أن ممن يشكون ويتألمون طائفة من الشبان الذين ذهبوا إلى أوروبا وتعلموا فيها ، ووقفوا على الحركة العلمية هناك ؛

يرون هذه القلة نقصاً كبيراً فى حياتنا العلمية ، ولكنهم لا يعملون على سد هذا النقص ؛ فلماذا إذن يشكون ويتألمون ؟ ألأن الألفاظ العربية التى تساعد على إدخال النظام الحديث فى الكتابة قليلة كما يدعيه بعض حضراتهم ؟ لا ؛ فقد تبين أن اللغة العربية من أغنى اللغات بألفاظها ومعانيها وباب التعريب والاشتقاق واستعمال المجاز واسع مفتوح . أم لأن حضراتهم لم يوفقوا بعد إلى سد هذا النقص الذى يتألمون له مع المتألمين ؟

والذى أراه أنهم لم يتخذوا لهم نادياً يلم شعثهم ، ويجمع كلمتهم ؛ ولو أنهم كونوا لهم جماعة يعملون فيها معاً واشتغل كل بما تخصص فيه من العلوم والفنون ، لظهر فى مصر من الكتب ما لا يبقى معه موضع لتلك الشكوى ، لاسيما إذا لم يقصروا همهم على الكتب المدرسية ، ولم يشغلهم رواجها أو كسادها ؛ فأن الذى ينقصنا قبل كل شىء إنما هو العناية بالعلم لذاته ، لا ما ينتج عنه من فائدة مادية أو معنوية ، وما كان للأمم أن تنهض إلا إذا قام على مصالحها العلمية نفر من اليقظين الذين وقفوا أنفسهم على ذلك ، لا يرجون من ورائه إلا أن يقال عنهم إنهم فهموا واجبهم فأدوه وقاموا به ، ومن لهذه اليقظة غير الشبان المتعلمين ؟

على أنى لا أقيل أكثر الذين لم يذهبوا إلى مدارس أوروبا من بعض اللوم ، فوطنهم يناديهم كما ينادى السابقين على السواء ، فهل أجابوه ؟ كلا . يدل على ذلك كثرة الملاهى وانكباب الناس عليها فى مدننا ، وعدم تقدم الحركة العلمية وسرعة انتشارها ، لا أرى سببا لهذا إلا قعودنا واستنامتنا

إلى الكسل والراحة ، أو إلى اللهو واللعب منذ حصولنا على الشهادات النهائية والوصول إلى باب للرزق

لايقوم العلم إلا برجال ينصرونه ، ولا تقوى أمة سلكت سبيل الغواية والخمول، وتركت حياة الفضيلة والجد ، فعلى الذين علموا أن يعلموا، وليكن من غرضنا نشر العلوم بلغتنا حتى تقوى ، فتقوى الأمة ؛ ولننزع من نفوسنا حب المال إلى هذا الحد الذى أفضى بنا إلى خمول الذهن ، والأعراض عما لا يكسب المال ؛ لنعمل حتى نعيد إلى الأمة العربية مجدها القديم، وسمعتها العلمية الماضية أيام الدولة العباسية فى عصرها الذهبى

* * *

اخترت صلاح الدين موضوعا لهذه الرسالة ، ولكننى قبل أن أشرع فى تفصيل حياته مضطر إلى أن أقدم بين يدى ذلك فصلين لابد منهما، الأول فى الدولة العباسية ، والثانى فى الحروب الصليبية

وأنا أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث إلى شىء من النفع ولو قليلا؟

احمد بيلى

١٨ رجب سنة ١٣٣٨

٧ ابريل سنة ١٩٢٠

مقدمة الطبعة الثانية

لم أكن أظن وأنا أقدم هذه الرسالة إلى المطبعة فى المرة الأولى أنها ستنفد ، وأنى سأضطر إلى إعادة طبعها ، طال الأمد أو قصر ، بل لم يكن يخيل إلىّ أن سيقبل على قراءتها سوى نفر من إخوانى وأصدقائى، تربطنى وإياهم صلة علم ، أو أواصر إخلاص ومحبة ، ولم يكن يدور بخلدى أن رسالة وضعت لتكون موضوع امتحان ، روعيت فيها ظروف عدة ، أقلها أمزجة الممتحنين وميولهم وطرق تفكيرهم ، ستنال من جمهور القراء فى مصر خاصة ، وفى بلاد الشرق عامة ، هذه العناية التى أرغمتنى هى ورغبة أولئك الأصدقاء على إعادة طبعها

والرسائل التى يتقدم بها الطلاب للامتحانات ليست كالكتب التى يضعها الناس، فصاحب الرسالة لا يملك حق التغيير والتبديل فيها بعد إقرارها واعتمادها من الأساتذة والممتحنين ، فهى وثيقة باقية على حالها بقاء الوثائق الرسمية ، مهما أعيد طبعها ، وإذن فأنا أقدم هذه الرسالة إلى جمهور القراء اليوم كما قدمتها فى الطبعة الأولى ، وكما قدمتها بين يدى الأساتذة يوم الامتحان

وغاية ما أضفت إليها فى هذه الطبعة تقريراً قدمه أستاذنا الجليل الشيخ عبد الوهاب النجار بعد أن قرأها وأقرها لتكون موضوع

امتحان ومناقشة ، ومنه يدرك الذين لم يحضروا الامتحان كيف يؤدى طلبة الدكتوراه امتحاناتهم بين يدى الجمهور

كذلك أثبت فى هذه الطبعة رسالتين من رسائل كثيرة ، غمرنى بها أصحابها يوم قدمت لهم الرسالة ، أما الأولى فمن سيدة فاضلة ، وكاتبة قديرة ، وزميلة علم قديمة ، كانت تجمعنا سوياً دروس الأدب والفلسفة والأخلاق فى الجامعة ، هى الآنسة « مىّ » صاحبة القلم الفياض والخيال البديع

وقد حملنى على اختيار رسالتها دون غيرها من الرسائل أمران ، الأمر الأول أن الآنسة حين كتبت قد مست موضوع الكتاب وصاحبه وما له من المنزلة فى التاريخ ؛ الأمر الثانى أنها سيدة ، لها فى العالم الشرقى منزلة رفيعة ، ومكانة عالية ، وشهرة واسعة ، ولم يألف هذا الجيل تقريظ السيدات والآنسات للكتب العلمية وغير العلمية ، كأن لم يكن من حقهن ذلك ، أو كأن لم يكن من واجب الرجال أن يذيعوا هذا ويعلنوه ، لأنه صادر عن سيدات يجب أن تظل كتاباتهن بعيدة عن متناول الناس ، وأن تبقى آثارهن محفوظة فى طى الحجاب

أدرك الغرب ما للمرأة من الأثر فى تكوين الأخلاق ، فأطلق لها العنان ، ودفع بها إلى المجتمع ، لتهذب طباعه ، وتقوّم أخلاقه ، وتحثه على الأقدام والمثابرة .

ومن الحق أن أذكر ما كان لوجود الزميلات ساعة الامتحان من

الأثر فى نفسى مما كان يدفعنى إلى مناقشة حضرات الأساتذة الممتحنين فى شىء كثير من الأقدام وعدم الوجل ، مما كنت أشعر به قبل حضورهن؛ كما أنى أحسست تغييراً كبيراً فى نفوس حضرات الأساتذة وأساليبهم فى المناقشة ، وكما شعرت بالسكينة والوقار الذى شمل جمهور المستمعين ، حتى كاد يخيل للرائى أن هذا الجمع من العلماء والأدباء والطلبة يتملق من حضرن من الزميلات ، كل بنصيبه من أنواع الملق وأساليب الخداع . ليس فى الأمر خداع أو ملق ، وإنما اندفع الجميع إلى الوقار والسكينة حتى لا يكون أحدهم موضع نقد أو مكان استهتار من إحداهن ؛ والسيدات متى انتقدن إنساناً ، أو وجهن إليه لوماً ، مهما كان ذلك منهن فى رفق وفى لين ، فأن وقعه يكون شديداً ، وأثره عليه أشد ، ولئن وصل جمهور الناس إلى هذه الدرجة من تقدير نقد السيدات ، فقد ظهر أثرهن الفعال فى تغيير الجماعات تغييراً يذكر ، وهو ما أرجو أن يكون فى مصر قريبا

أما الرسالة الثانية التى أحببت أن أثبتها فى هذه الطبعة فهى التى أرسلها إلى صديقى الأستاذ الدكتور طه حسين ، وقد كان على جناح سفر لم يستطع معه أن يكتب كلمة فى تقريظ الكتاب ونقده

أما وقد ذكرت الرسائل التى وردت إلى على أثر إهدائى الكتاب لمن أهديت من العلماء والأدباء ، فلا أجد مناصاً من أن ألوم بعضا من هؤلاء ، سيما وقد سمعت نفس الشكوى من كثيرين غيرى من المؤلفين والناشرين

يتكبد المؤلفون والناشرون مؤونة البحث والتأليف، ثم يعمدون إلى الطبع فينفقون من مالهم ووقتهم وصحتهم ما قعد دونه الكثير من الناس ، ثم هم يرسلون بعد ذلك عن طيب نفس كتبهم ورسائلهم إلى من يعتقدون أنهم سيقرأون الكتاب ، وينظرون فيه ، ثم ينتظرون بعد ذلك كلمة تنبيء عن وصول الكتاب فحسب ، ولكن قد يطول انتظارهم إلى نفاد الطبعة بل إلى ظهور طبعة ثانية وثالثة . لست أدرى لهذا التقصير من سبب ، ولا أريد أن ألتمس له عذراً أكثر من أنى أظن أنه صادر عن عدم تقدير لما يبذل من جهد ، وما يصرف من وقت ، وما يستنفد من قوة ، وما يسلب من صحة ؛ ولئن كانت هذه كلها لا تقدر فأولى بالمؤلفين والناشرين أن يحتفظوا بكتبهم ومؤلفاتهم ، وإن كان فى هذا شيء من مظهر البخل وعدم تقدير الناس ، إلا أن فيه الشيء الكثير من طمأنينة النفس والبعد عن تكدير صفوها

وأنا أكتفى عند ذكر هاتين الرسالتين ، وعند هذا الحد من النقد ، وأرجو أن يجد الناس فيما سطرت عن صلاح الدين ما يدفع بالهمم إلى الجد والأقدام والتقوى، وسلوك السبيل لخير الناس، وتقدير الواجب ، مما كان يقوم به صلاح الدين فى أوقاته كلها م؟

جمادى الاولى سنة ١٣٤٥

نوفمبر سنة ١٩٢٦

الفصل الاول

الدولة العباسية

كانت الخلافة فى أول أمر المسلمين شورى يختار القوم لها من يجدون فيه الكفاية ؛ فلما كانت الفتنة بين بنى أمية وغيرهم من بقية المسلمين ، لا سيما أهل الأمصار أيام عثمان وعلى رضى الله عنهما ، انقسم العالم الأسلامى قسمين ، قسم يرى الطاعة لبنى أمية الذين كان بيدهم السلطان والقوة ، وقسم يرى ألاّ طاعة إلا لبنى هاشم . يضاف إلى هذا فرقة الخوارج التى دوخت بنى أمية من غير أن يكون لها فيه سلطان طويل البقاء

كان الميل إلى بنى هاشم أكثر انتشاراً فى فارس منه فى غيرها من بلاد المسلمين ، ومصدر ذلك أن مكان هذه البلاد من المسلمين لم يكن مكان الصديق ، فقد سلبها المسلمون ملكها القديم ، فهى تتربص بهم الدوائر ، وتود لو وجدت فرصة تمكنها من الخروج وقلب السلطان . ولقد كان بنو أمية من الحرص على القوة والبأس ، ومن الرغبة فى الاستئثار بالملك والسلطان ، بحيث أهملوا تطبيق قاعدة من أظهر قواعد الأسلام وأسماها ، وهى المساواة المطلقة بين الشعوب المسلمة ، عربية كانت أم غير عربية ، فكان هذا الأهمال قاضياً على دولتهم من جهة ، ومسيئاً إلى دولة الأسلام

من جهة أخرى ، لأنهم أهانوا الفرس وأستعبدوهم ، فمال هؤلاء إلى بنى العباس وآزروهم ، ونشأ عن هذا الميل الذى كان يؤيده انقسام العرب على أنفسهم ، ما كان من قيام دولة بنى العباس وسقوط الدولة الأمية

قامت الدولة العباسية على يد الفرس من أهل خراسان ، فتولوا رعايتها حتى سلّموا مقاليد الخلافة إلى أبى عبد الله السفاح ، فكان هذا داعياً لاتخاذ الخلفاء أنصارهم من الفرس دون العرب ، فقربوهم وأدلوا إليهم بالنفوذ والسلطان فى الدولة ، وقلدوهم الوزارة ، فتوجهت إليهم الأنظار ، وأم دارهم القوم ، فظهر بأسهم ، واستفحل أمرهم ، وعلت فى المملكة كلمتهم ؛ غير أن الدولة لم تكد تنهض حتى كان بين الخلفاء من العرب وأنصارهم من الفرس ما كان من مساءة فى أيام بنى أمية ؛ يريد هؤلاء أن يستأثروا بالملك ، ويريد أولئك أن يشاركوهم فيه ؛ ومن هنا كان قتل أبى مسلم الخراسانى فى أيام المنصور ، والفتك بالبرامكة فى أيام الرشيد ؛ ومن هنا كان السبب الأول فى ضعف الدولة العباسية

على أن الدولة العباسية كانت فى هذا الأوان قد بلغت شأواً كبيراً من العظمة والحضارة والمدنية والعلم لم يصل إليه غيرها ، فكانت بغداد إذ ذاك مدرسة يؤمها الناس من كل جهة ، كما كانت مركز القوة والسلطان على العالم الأسلامى بأسره ، خلا دولة الأندلس ؛ وكما كانت بغداد كعبة العلم ، ومهبط الحضارة ، ومشرق الفلسفة ، ومنبع الحياة القومية ، كانت كذلك عاصمة الدولة ، وسيدة البلاد الأسلامية ، وصاحبة السلطان عليها كلها ، يعزها الخليفة ويعتز بها ، ليس لوالٍ من الولاة إلا الخضوع والخشوع لأمر

الخليفة فيها ؛ لا يجسر واحد منهم أن يطمع فيما ولى عليه ، ولا يجنح أمير إلى معصية الخليفة ؛ فنمت الثروة ، وازدادت رفاهية الرعية ، واطمأنت النفوس ، ووصلت الأمة الأسلامية إلى عصرها الذهبي

على هذا صارت الدولة الأسلامية عظيمة بخلفائها ، قوية بجندها ، محترمة بتماسك أطرافها ، متقدمة بعلومها وثروتها ، تهابها الدول المتاخمة لها ، ويخشى سلطانها أمراء أطرافها

بيد أنه فى ذلك العصر العظيم الذى بلغت فيه الدولة مبلغها من القوة ، كان الرشيد قد أقام دولة بنى الأغلب فى شمال إفريقية لتحول بينه وبين الشيعة الذين كانوا قد أقاموا لهم دولة فى مراكش ، هى دولة الأدارسة

جاء بعده ولده المأمون وولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان والجزيرة ، لما كان له من اليد الطولى فى إخماد نار الفتنة التى قامت بينه وبين أخيه الأمين . فلما ثارت ثائرة القوم بعد مقتل الأمين ، وقام طاهر بأطفاء لهيبها ، جعل المأمون ولاية طاهر إرثاً لأعقابه من بعده ، فتكونت بهذا دولة أخرى هى الدولة الطاهرية ، وتبعت ذلك دويلات قامت باستقلالها فى بعض الأطراف

ولما كان طاهر هذا من الموالى ، قويت شوكتهم ، وتتطلع الأمراء والولاة إلى مثل ما وصل إليه طاهر وأولاده ، فتحفز كل منهم إلى الوثوب ، واستعد للنهوض حين تمكنه الفرصة

ولقد ساعد هؤلاء الطامعين ميل المأمون والمعتصم إلى اقتناء الموالى ، ثم استكثار الثانى من شبان الأتراك الذين كانت توفدهم أمراء الجهات إلى



البابا أربانوس الثانى

الخلفاء بالهدايا وغيرها ، فكان الخلفاء يختارون من بين هؤلاء أحسنهم خَلْقاً وأقوام بنية كما يقول جورجي زيدان في كتابه « التمدن الأسلامى » لاستخدامهم في بلاطهم وأطلقوا عليهم اسم المماليك

استكثر المعتصم من هؤلاء المماليك لثلاثة أسباب :

أولها أن أمه تركية الأصل، ففيهم أخواله وأنصاره، وفيه كثير من طباعهم.

وثانيها أنه عمل بوصية أخيه المأمون في التحرز من الفرس ، لأنهم موتورون قديماً وحديثاً ، وقد كادوا يخلعونه هو من الخلافة ؛ ثم هم الذين قتلوا الأمين .

وثالثها خوفه من العرب ، وهم الذين كان العباسيون كلهم يخشون بأسهم لأنهم أنصار الأمويين ، وبهم قامت دولتهم من جهة ؛ ولأن فيهم أنصار العلويين من جهة أخرى ؛ وهم الذين لم يغفلوا لحظة واحدة عن إثارة فتن كلما وجدوا لها سبيلا .

من أجل هذا كله رأى المعتصم أن يتخذ له جنداً غير هؤلاء جميعاً ، فاستكثر من المماليك وكوّن منهم جيشاً يعزه ويعتز به عمن سواه ؛ ويزيد بعض المؤرخين أنه إنما ركن إلى هؤلاء لأنه ظن أن ليس لهم مطمع قديم يريدون إدراكه . ولم يدر بخلد المعتصم أن بركونه إلى هؤلاء قد ركن إلى عنصر يخالف قومه في العادات والاخلاق واللغة ؛ وغاب عنه أن لهم وطناً يحنون إليه ويذكرونه ، وأن فيهم من كان ذا بيت عريق في المجد قد أزاله الأسلام ؛ فاذا ما سنحت له الفرصة ركن إلى إعادة عزه القديم ومجده السالف . غاب هذا كله عن المعتصم

فأدلى بالخلافة وعزها ، والأمور ومقاليدها ، إلى أيدى هؤلاء الغلمان ، وهم مختلفو الغايات ، متباينو النزعات ؛ فتمشى فى الدولة الضعف الذى لم تستطع يوما بعد ذلك أن تقاومه أو تدفعه عن نفسها ، فذهبت كما ذهب غيرها من الدول ، ونعاها الناعون ، وكأنى بحافظ إبراهيم الشاعر المصرى الكبير وهو يقول :

واهاً على دولة بالأمس قد ملأت ... جوانب الشرق رغداً من أياديها
كم ظللتها وحاطتها بأجنحة ... عن أعين الدهر قد كانت تواريها
من العناية قد ريشت قوادمها ... ومن صميم التقى ريشت خوافيها
والله ما غالها قدماً وكاد لها ... واجتث دوحتها إلا مواليها
لو أنها فى صميم العرب قد بقيت ... لما نعاها على الأيام ناعيها
ياليتهم سمعوا ما قاله عمر ... والروح قد بلغت منه تراقيها
لا تكثروا من مواليكم فأن لهم ... مطامعاً بسمات الضعف تخفيها

وجد المماليك أنفسهم ولا منازع لهم فى سلطان الدولة ، فتفردوا بالملك ، واستأثروا بالكلمة ، وأصبحوا ولا منافس لهم ، لاعرب ولا فرس ؛ فاستبدوا حتى على الخلفاء ، وامتدت أيديهم إلى أموالهم وأرواحهم ، ففقدت الأمة مكانتها ، وضاعت مهابتها ، فطمع فيها الطامعون من الولاة وغير الولاة

رأى عمال الأطراف ما وصل إليه حال الخلفاء فى بغداد ، فوجدوا فى هذا أحسن فرصة للاستقلال بما فى أيديهم ، لأنهم يرون أنفسهم أحق بالاستئثار من هؤلاء الأعاجم ؛ فاكتفوا بإرسال جزء من الخراج إلى

بغداد ، وذِكْر اسم الخليفة على المنابر فى المساجد ، حتى لا تثور العامة عليهم ، ثم كانوا بعد ذلك يتنهزون موت خليفة وقيام آخر ، فلا يدخلون تحت طاعته الأسمية هذه إلا بشروط تزيد فى موقفهم قوة واستقلالا ؛ وما زالوا كذلك حتى قويت شوكتهم فكان لهم من الخلافة مسماها وللخلفاء اسمها

على أنه بعد حين غير طويل وقع الخلاف بين هؤلاء الغلمان ، وصاروا يقتتلون ، حتى جاءت دولة بنى بويه الديلمية وغلبتهم على أمرهم ، ونزعت ما كان لهم من السلطان والقوة . ولما كانت هذه الدولة شيعية تغالى فى التشيع لأولاد علىّ ، كادت تخرج بالدولة وتلقى بها إلى أيدى العلويين ، فيعترفون لها بالجميل ويدينون لها بالفضل فيحلونها منهم محل الأخلاص والولاء

ليت شعرى ماذا كان ينتظر هؤلاء الديلم من خلافة علوية فوق ما كان لهم من النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية ، ذلك النفوذ الذى كان يطوح بالخلفاء إلى حيث يريدون ، إما خلع وإما قتل وتمثيل مما تقشعر منه الأبدان لمجرد سماعه ؛ ألا إنما هو الطمع يقود الجماعات والأمم فيقذف بها فى تيار جارف يهلكها من حيث تظن أنه منجيها ومنقذها

على أى حال فقد غالبهم الأتراك السلاجقة على سلطانهم حتى غلبوهم وقهروهم وحلوا محلهم ، فدانت لهم البلاد من تخوم الفرس إلى البحر الأبيض المتوسط ، وأعادوا أسيا الصغرى إلى حكم سلطان واحد ، فأحيوا بذلك الغيرة الدينية فى قلوب المسلمين ، تلك الغيرة التى كاد يقضى عليها الديلم ؛ ولم يقتصر عمل الدولة السلجوقية هذه على منابذة الديلم فحسب ،

بل قامت تناوئ العلويين فى الشام ومصر حتى امتلكت الجزء الأكبر من بلاد الشام وكادت تضع يدها على البلاد المصرية

وكان من نتيجة قيام السلاجقة وظهورهم هذا أن وُجدت روح جديدة فى الأمة الاسلامية خلقت محاربين أكفاء يرجع لهم الفضل الأكبر فى إذلال الصليبيين وقهرهم

لما ظهرت الخلافة والخلفاء بمظهر الضعف والاستسلام للولاة ، أنشأ هؤلاء وظيفة أمير الأمراء وصار يُخطب لهم على المنابر فى المساجد فيذكر اسمهم بعد اسم الخليفة ؛ من أجل هذا صار لأمير الأمراء من المنزلة فى عيون الأمراء الآخرين ما جعل ولاة الأمارات يطمعون فى منصبه متى آنسوا من أنفسهم قوة ؛ وأمير الأمراء فى هذا يحيط نفسه بسياج من الموالى ، حتى إذا ما قضى نحبه ، وجدتَ هؤلاء الموالى وقد تقاسموا تراثه ، وتنافسوا على السبق لمركزه

على أنه ما كان أمير الأمراء ليكتفى بالأكثار من الموالى ، بل نراه وقد أقام حوله من ظهرت كفاءتهم العسكرية أو السياسية ليكونوا درعه المتينة ، وحصنه المنيع ، إذا دهمته الفتن وثار عليه الثائرون ؛ ولكن الآية قد لا تلبث أن تنعكس عليه ، فيصبح أعوانه أعداءه ويكون على أيديهم هلاكه

على هذا النظام قامت الأمارات التى كانت تتبع أمير الامراء ، فاذا قضى نحبه استولى كل وال على ولايته ، وقام القوى منهم يناوئ الضعيف ، هذا عدا ما كانت تقوم به أولاد أمير الأمراء نفسه من اقتسام ما بقى لهم من ملك أبيهم

كان هذا النظام سبباً فى انحلال عرى الدولة العباسية العظيمة التى ظهرت بمظهر جليل يعدل فى القوة والبأس ما سبقها إليه اليونان والرومان ، ولكن الخلفاء حادوا عن طريق الهدى ، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وغرتهم الحياة الدنيا « فقربوا منهم من لم يعرفوا من الدين آدابه ؛ ليس لهم هذا القلب الذي راضه الاسلام ، ولا ذلك العقل الذى هذبه الدين ، بل جاءوا بخشونة الجهل ، يحملون أعلام الظلم ، فظهرت المفاسد ، وعم شررها القاصى والدانى ، فنخرت سوس الشقاق والطمع عظام الدولة حتى أبادتها »

هذا ولما كان من طبع الانسان الحرص على ما فى يده لآخر لحظة من قدرته ، وُجدت الأسرات التى أفادت وقتاً ما الدين والدولة ، ولعمرى لقد كانت فائدة وقتية ، قلّ أن يطول زمنها إلى أكثر من قرن أوقرنين ، ولقد كان هذا النظام سبباً فى ظهور الأسرات التى قامت تساوىء الطامعين من الأمم الأجنبية ، فلولاه لما ظهرت الأسرة الأتابكية والأسرة الكردية اللتان يذكرهما التاريخ بكل إعجاب دون أن ينسى لهما ما قامتا به نحو الشرق والشرقيين من الخدمات الجليلة فى رد غارات الصليبيين ، وتوحيد كلمة المسلمين فى قطرين من أقطار العالم الاسلامى ، بعد أن مزقتهما أيدى الاختلافات الدينية الحزبية ، وهذان القطران هما مصر والشام

الفصل الثانى

الحروب الصليبية

لايجد المتصفح لتاريخ القرون الوسطى وما وقع فيها من الحوادث شيئا أشنع ولا أبشع من ذلك الذى يتجلى له وقلما يمر ببصره بين سطور تروى له تاريخ الحروب الصليبية ؛ تلك الحروب التى يرى فيها الانسان أمم قارتين وقد تسلحوا ليقتتلوا ، والتى يجد فيها ديانتين تدافع كل منهما عن سيادتها وتنازع الأخرى امتلاك العالم بأمره ؛ وهى التى مثلت أفظع أدوار الوحشية، وأكبر جناية وقعت على الانسانية فى تلك العصور ؛ وهى التى أوقعت أهل آسيا الغربية فى بؤس مريع مرعب يفوق حد الوصف ؛ فما كانت هذه الحروب إلا حادثة جنون من حوادث التاريخ كما يقول بعض كتاب الأفرنج إذ قد رمت المسيحية بنفسها فى أحضان المسلمين فى حملة أخرى نيفاً وثلاثة قرون

هبّ الغرب دفعة واحدة ، وقام أهله على بكرة أبيهم فى وجه آسيا بعد أن تركوا مابينهم من نزاع وشقاق ، وظهروا على وجه البسيطة كأنهم أمة واحدة جديرة بالغزو والفتح . تجمع الكل تحت علم الصليب الذى وحد غاياتهم ، وجمع شتاتهم ، وقرب مطامعهم ، فكون جيشهم ، وأوجد

قوبهم ، وما كنت لتقرأ فى أفئدة القوم إلا كلمة واحدة هى « القدس » ولا تسمع منهم إلا ذكر الأراضى المقدسة التى بها قبر عيسى عليه السلام؛ فاذا حادثتهم حدثوك بظمئهم إلى دماء المسلمين الذين استولوا فى عرفهم على قبر المسيح ظلماً وعدواناً

هذه هى الحروب التى أثارها الأفرنج على المسلمين فى القرون الحادى والثانى والثالث عشر ؛ ظاهرها استخلاص الأراضى المقدسة من أيدي المسلمين الذين كانوا ـ كما يزعم بطرس الناسك الداعى لها والمنادى بها ـ يقيدون حجاج المسيحيين بالسلاسل والأغلال ، ويمتهنون قبر المسيح ، ويعاملون أهالى تلك البلاد المسيحيين معاملة الذل والهوان ؛ قامت هذه الحروب وظاهرها ـ كما يقول البابا أوربانوس الثانى فى خطاب الدعوة الذى ألقاه فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م ـ أنها ليست لأخذ الثأر عن الأهانات التى لحقت النوع الأنسانى فحسب ، بل عن تلك الأهانات التى أتاها الكفار (المسلمون) نحو الله، هكذا كان ظاهرها عند العامة

أما باطنها وهو مالم يستطع البابا إخفاءه فهو كما قال فى خطاب الدعوة الآنف الذكر « انها ليست لاكتساب مدينة واحدة ، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لاتحصى ؛ فاتخذوا حجة البيت المقدس، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيدى المختلسين لها ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض كما قالت التوراة (تفيض لبنا وعسلا) »

وكثيراً مانجد بين سطور روايات المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الحروب ما يدلنا على ذلك دلالة لامعنى للشك فيها ، فقد قال مثلا المؤرخ الأنجليزى استيفن سن فى كتابه (الصليبيون فى الشرق) « ولم تكن الحروب الصليبية إلا حملات عسكرية لتأسيس قوة لاتينية فى سوريا وفلسطين » والمعتدلون من هؤلاء المؤرخين يقولون إن الحروب الصليبية كانت نتيجة روح دينية وأخرى حربية انتشرتا معاً فى أرجاء أوروبا فى القرون الوسطى

وفى اعتقادى أن الروح الدينية التى يقولون إنها كانت منتشرة إذ ذاك لم تكن منتشرة ، ولم يكن يشعر بها ويقدسها سوى القساوسة والكهنة وغيرهم من الطبقة الروحانية ، بدليل مايقوله استيفن سن المتقدم الذكر من أن عامة القوم كانت تعيش عيشة بعيدة عن الدين بما كانوا منهمكين فيه من القتال والنزاع والسلب والنهب

قام البابا يحرض القوم بما له من المنزلة فى النفوس ، والمكانة فى القلوب ، مدفوعاً بعامل يخفيه ، فألبسه لباس الدين ، لعلمه أن الدعوة الدينية أشد تأثيراً ، وأقوى على النفوس من غيرها ، فهى العقيدة وهى الشعور الوجدانى الموروث ، والأنسان أحرص مايكون على تراث آبائه وأجداده

اتخذ البابا من أساليب الخداع ماجادت به قريحته ، وحركته إليه مطامعه ، فأعلن أن كل من اشترك فى هذه الحروب ، غفرت له ذنوبه ، ودخل فى حماية الكنيسة ، وأن ماله وأهله وذويه جميعاً فى حماية الكنيسة ، وأن متاعب الحرب وأخطارها ليست إلا تكفيراً عن الذنوب

أضف، إلى هذا ما ردده من الكلام المثير المهيج للعواطف كقوله « أيها الجند المسيحيون ، لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعياً حقيقياً إليها ، لقد كنتم سبب انزعاج مواطنيكم وقتاما ، فاذهبوا الآن وازعجوا البرابرة ، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدى الكفار

« أيها الجند ، أنتم الذين كانوا سلع الشرور والفتن ، ألاهبوا اليوم وقدموا قوا كم وسواعدكم ثمناً لأيمانكم ، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوى ، فانكم بذلك تنالون الجزاء والنعيم الدائم »

« إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً ، وإن أنتم خذلتم فستموتون حيث مات اليسوع ، فلا ينساكم الرب من رحمته ، فيحلكم محل أوليائه »

« هذا هو الوقت الذى تبرهنون فيه على أن فيكم قوة وعزماً وبطشاً وشجاعة ، هذا أوان تظهرون فيه شجاعتكم التى طالما أظهرتموها وقت السلم ، وإذا كان من المحتم أن تثأروا لأنفسكم فاذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار »

فلما رآهم يبكون متأثرين بخداعه ومكره قال « الحمد لله ، لقد أصبح جند النار جنداً لله ؛ ياقوم ! إذا دعاكم الرب اليسوع إلى مساعدته فلا تتواروا فى بيوتكم متقاعدين ، ولا تفكروا فى شىء إلا فيما وقع فيه إخوانكم المسيحيون من الذل والهوان والمسكنة ، ولا تستمعوا إلا إلى القدس

وزفراته ؛ واذكروا جيداً ماقاله لكم المسيح « ليس منى من يحب أباه وأمه أكثر من محبته أياى ، أما الذى يترك بيته ووطنه وأمه وأباه وزوجه وأولاده وممتلكاته ومقتنياته حباً فىّ ومن أجلى فسيخلد فى النعيم ، وسيجزيه الله الجزاء الأوفى » اهـ بتصرف قليل عما ورد فى كتاب تاريخ المؤرخين المجلد الثامن

بمثل هذا قام البابا وأعوانه يدعون قومهم ويثيرون عواطفهم ، ذاكرين لهم الكثير من الأباطيل والمفتريات على ما يأتيه المسلمون مع النصارى فى الشرق ، ويتهمونهم بما شاءت أهواؤهم ، ولو علم سكان أوروبا إذ ذاك ما المسلمون عليه من إطلاق حرية الشعوب المغلوبة ، فى إقامة شعائرهم الدينية وعاداتهم ، ولو أنهم أدركوا ما أوجبه الدين الأسلامى على أمرائه وحكامه من تأمين الذمى على ماله ومتاعه وأهله ونفسه وعرضه ، ولو سمعوا ما كان يقوله محمد صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » لو أدركوا هذا لعلموا أن هذه النيران التى كانت تندلع من أفواه الداعين إلى الحرب إنما كانت تذكيها مطامع شخصية ؛ لكنهم معذورون ، فقد كانت أوروبا فى هذا الأوان تموج فى بحر الجهالة والعمى ، قد انتابتها الفتن ، ولحقت بها المحن من كل نوع ، فانتشرت اللصوصية ، وعمت المجاعات ، وثارت الفتن ، حتى أصبحت البلاد والعباد فى خطر ليس وراءه خطر

اختلف المؤرخون فى الدواعى التى دعت إلى تلك الحروب ، فمنهم

من يقول إن الدولة السلجوقية كانت قد امتلكت آسيا الصغرى وأسست سلطنة فى بلاد الروم التى كانت تابعة للأغريق ، وهمّوا بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها ، فقام أمبراطورها يستغيث بأهل أوروبا ويطلب منهم المعونة على رد غارة المسلمين ، وكاتب البابا فى رومة باعتباره أكبر رأس فى أوروبا ، ووعده جزاء مساعدته أن يضم الكنيسة الشرقية التى مقرها القسطنطينية إلى الكنيسة الغربية فى رومة ، فتصبح أوروبا كلها خاضعة لكنيسة واحدة هى كنيسة رومة ، أو بعبارة أخرى خاضعة للبابا

على أن بعضهم يضيف إلى هذا ما كان من ميل بابا رومة وقت هذه الدعوة إلى الظهور على بعض الملوك والزعماء الذين كادوا يخرجون عن طاعته ؛ فادلى بالأمر إلى بطرس الناسك ؛ وكان فصيحا لسناً ، فصدع بالأمر وقام به خير قيام ؛ والقارىء لتاريخ هـذا الرجل يدهش كثيراً للظروف التى أحاطته ، ويعلم أنه رسول البابا بلا نزاع

ويقول باشيوليه وزميله فى قاموسيهما الجغرافى التاريخى تحت كلمة الحروب الصليبية « أما أسبابها فكانت عند عامة شعوب أوروبا الاعتقاد الدينى والمزايا الروحانية التى كانت تنعم بها الكنيسة فى رومة ، أما عند الأمراء والزعماء فكانت حب الرحلات غير العادية الخطيرة ، والأمل العظيم فى الاستيلاء على ممتلكات واسعة فى الشرق »

وغير هؤلاء يقول « ولما تزايد عـدد الحجاج الأفرنج إلى القدس وسقطت الشام وفلسطين وآسيا الصغرى فى أيدى الأتراك السلاجقة ،

بدأ السلام السائد بين المسلمين والمسيحيين ينهار ركنه ، وتهوى دعائمه فاضطربت العلاقات التجارية بين آسيا وأوروبا ، وخافت المدن التجارية الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط مثل البندقية وجنوة وبيزة وغيرها من استيلاء السلاجقة على الأسواق الشرقية ، خشية أن تغلقها فى وجهها ؛ وحينئذ يكون فقرها وخرابها»

وعندى أن هذا من أقوى ما شجع القوم على الرحيل لحرب المسلمين أغفله جمهور المؤرخين ، وهو سبب معقول مقبول ، وله نظائر شتى فى أسباب الحرب الأوروبية الأخيرة ، بل إن ذلك قد دعى الفاطميين وهم مسلمون إلى محاربة السلاجقة المسلمين ، غيرة على مصالحهم فى البلاد التى كانت لمصر فى الشام واستولى عليها السلاجقة

وهنا لا أجد بدأ للتنبيه إلى ما قاله جماعة من المؤرخين من أن الفاطميين فى مصر عند ما رأوا أن السلاجقة قد قويت شوكتهم ، واستفحل أمرهم فى آسيا ، واستولوا على القدس وامتدت أيديهم إلى الممالك المصرية خافوا شرهم ، فراسلوا الأفرنج فى رومة ، يحببون إليهم الاستيلاء على بيت المقدس ، ولو صح أنهم راسلوا أهل أوروبا فلا يكون ذلك مع أهل أوروبا الغربية ، إذ لم تكن للفاطميين علاقة بهم ؛ وإنما يصح أنهم كاتبوا أمبراطور القسطنطينية لما كان بين المسلمين وبين بلاده من العلاقات قديماً ، ولأنه موتور من السلاجقة ، فيصح للفاطميين الاستعانة به ، ولكن بالرغم من هذا كله فانى أرى أن شيئاً من ذلك لم يحصل ؛ إذ كيف يتفق أن الفاطميين

يراسلون الأفرنج لمحاربة المسلمين ؛ وهم بنفسهم قد قاموا بمحاربة الأفرنج ودافعوا عن عسقلان لآخر لحظة من قوتهم الحربية

وعلى كل حال فقد تجمعت ظروف مختلفة ، وميول متباينة ، ساعد بعضها بعضا فكونت أسباب تلك الحروب الطاحنة ، التى عادت على العالم الأوروبى بنصيب كبير من حضارته الحديثة

أما نجاح الأفرنج فى حملاتهم فقد نجم أولا عما تصادفه كل دعوة جديدة من النشاط ، وثانيا لما قام بين أعضاء البيت السلجوقى من النزاع بعد موت السلطان ملكشاه العظيم

جاء الأفرنج إلى الشام وأهله متفككون متنافسون ، بينما الرؤساء الروحانيون فى أوروبا يبعثون فى القوم الهمم لأرسال المؤن والأمداد ؛ فكان تيار هذه الحملات لاينقطع ، ولولا هذا لما استطاعوا أن يثبتوا لحظة واحدة هناك ؛ فلما ملت أوروبا وتعبت من كثرة ماترسله من المساعدات للملكة كالبحر — كما يقول صاحب كتاب القدس — تبتلع كل مايصل إليها ولا ترسل شيئاً ؛ بدأ نجم هذه الحملات يأفل ، وسعدها يهوى ، وظلها يتقلص ، وعجل لها الوهنَ أسباب أخرى نحن ذاكروها هنا على سبيل الأيجاز فنقول

أسس الأفرنج فى أول أمرهم فى آسيا أربع ولايات هى : الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والقدس ، والناظر إلى الخريطة يرى أن الأوليتين واقعتان فى الشمال ، تتاخمان بلاد المسلمين الذين كانت لهم القوة والسلطان فى

تلك الجهات ؛ فلو نظر الأفرنج بعين الأخلاص والتضامن فى العمل لأقاموا الحصون والمعاقل حول هاتين الولايتين ؛ ولكنهم لما كانت الأثرة رائدهم والمنفعة الشخصية قائدهم ، اهتم كلٌّ بما فى يده غير ناظر إلى غيره وما يحيط به من الأخطار ؛ ولما كان بيت المقدس هو قبلة الجميع ، ومحط أطماعهم ؛ لأنه المكان المقدس ، وكان لمن استولى عليه من المكانة ما ليس لغيره ؛ توجهت إليه أنظار المسلمين والأفرنج على السواء ، فأهمل هؤلاء الأفرنج أمر غيره من الولايات التى فى أيديهم ، فلم يحصنوها ، وهاجمهم المسلمون من الشمال ، فلم يجدوا صعوبة ما فى الاستيلاء على هذه الولايات ، فقد قام عماد الدين زنكى والد محمود نور الدين زنكى واستولى على الرها سنة ١١٤٤ م وبذلك وضع أساس القضاء على آمال الأفرنج فى الشام وفلسطين

فلو لم يطمع كل واحد من قواد الأفرنج فى تأسيس ملك عظيم له وحده فى سوريا ، لما عادت أوروبا بأجمعها خائبة أمام طائفة من المسلمين

وإليك ما قاله استيفن سن « أما المسائل الحربية فكان ينظر إليها كل قائد بما يراه صالحاً لنفسه ، فاذا اجتمع القواد للبحث رأيت الغيرة بادية على وجوههم ، والشكوك والظنون السوء ناشرة أجنحتها على مجتمعهم ، فتمتد يد التفريق إلى نثر عقدهم فيبعثره أيدى سبا »

لم يكن امتلاك الأفرنج للشام عاما كل جهاته ؛ بل ظلت البلاد الداخلية ذات المركز الهام فى سوريا فى أيدى الأمراء المسلمين ، كحلب ودمشق وغيرها ؛ وكان بقاؤها مع المسلمين عاملا من أكبر العوامل فى اندحار

الأفرنج وخذلانهم ؛ فكانت مبعث قوة المسلمين ، ومصدر وحدتهم بعد تفككها ، فظهر عماد الدين ومحمود نور الدين زنكى وصلاح الدين يوسف ابن أيوب ، وقد بلغ المسلمون قبل وفاته حظاً عظيما من المنعة والقوة ، وأصبحوا أصحاب السلطان فى سوريا وفلسطين ، واستكان الأفرنج وضعفوا حتى ليخيل إلى الأنسان أن علة مهلكة قد قضت على سلطانهم

استولى عماد الدين زنكى على الرها سنة ١١٤٤ م كما تقدم ثم جاء ولده محمود نور الدين فضم حلب ودمشق إلى ملكه ولم تكونا فى أيدى الأفرنج فظهرت بهما قوته ؛ وعلت عليهم كلمته ثم رجحت كفة المسلمين بعد أن دانت له مصر على يد صلاح الدين وعمه اسد الدين شيركوه ، فاضطرب الافرنج وأخذ نور الدين يستولى على ما بأيدهم فى الشمال حتى تقلص ظلهم من معظم جهات انطاكية وطرابلس ، ثم مات نور الدين وخلفه صلاح الدين ، واستولى بعزمه وقوته على بيت المقدس ، فاضمحلت قوة الأفرنج وأخذت البلاد تخرج من أيديهم ، ولم يبق إلا ماتركه لهم صلاح الدين فى عهده مع الملك رتشارد قلب الأسد سنة ١١٩٣ م

ثم جاء خلفاء صلاح الدين والأفرنج تتأجج فى صدورهم نار البغضاء ، يريدون استرداد مافقدوا ، فقصرت عنه أيديهم حتى انتهى أمرهم بالزوال حين قام الملك الأشرف ابن السلطان قلون وضربهم الضربة الأخيرة التى قضت على آمالهم فسلمت البلاد كلها إليه سنة ١٢٩١ م

على أنه يجب ألا يغيب عن البال حال الجيوش التى تكونت منها

تلك الحملات ، فكثيراً ما اشتملت على أناس من أحط القوم ، وهم أولئك المجرمون السفاكون الذين لوثوا بقية المحاربين بشرهم ورجسهم وسفالة أخلاقهم . وقد نسب سان برنار عدم نجاحهم في إحدى الحملات إلى انغماسهم في الفسق والفجور كما يقول لوبون في كتابه (الحضارة العربية) عند الكلام على الحروب الصليبية

أضف إلى ذلك ما كان من تسلط النساء وتأثيرهن ، فاليهن يرجع حظ غير قليل من فشل الصليبيين

فاذا لم ننس أن الأفرنج قد نقلوا في آسيا ماألفوا من النظام الاقطاعي في أوروبا ، لم ندهش لما نشأ عن ذلك من إفقار البلاد وتخريبها كما يقول لوبون بعد أن كانت غنية في أيام حكامها النابغين من العرب

نشأ عن هذا النظام حاجة القوم إلى المال ، وحرصهم على تحصيله ، وليس حال الملك املريك أو أموري بخاف على من علم أمره في غزوته الثالثة لمصر مما سيجيء ذكره

على أنه بقي سبب آخر هو كثرة فتك هؤلاء الأفرنج بالمغلوبين عند ابتداء أمرهم ، فجعلهم ذلك موضع سخط الناس حتى المسيحيين منهم ، ولو أنهم أنصفوا فأبقوا على المغلوبين ، وعاملوهم بالحسنى ، لاتخذوا منهم درعا تقيهم شر المغير عليهم ، ولما توقفت حياتهم على مدد أوروبا ، التي لم يكن بد من ان تنتهي إلى السآمة من إمدادهم وإعانتهم يوماً ما

يغفل جمهور المؤرخين عن ذكر أسباب انحطاطهم ، ويعللون ذلك بانتصار صلاح الدين لأنه جمع شتات المسلمين ووحدهم . ولا شك في أن

وحدة المسلمين قد كان لها أثر عظيم فى انتصارهم ، غير أن من الحق أيضاً أن لا نغفل ما جاء فى كتاب تاريخ المؤرخين حين يقول « ولولا تحيز المؤرخين والمؤلفين ، وامتناعهم عن الحط من قدر ما كان يأتيه المحاربون لوجب عليهم أن يقولوا إن رذائل المسيحيين فى الأراضى المقدسة لها أثر كبير فى ضياع مملكتهم فى فلسطين إن لم يكن السبب بعينه »

ومهما يكن من أمر هذه الحرب ، وما سبقها من العلل ، وصحبها من الظروف ، فقد أدت خدمات جليلة لأوروبا ، رغماً عما أهلكته من أنفس أهلها ، وأفنت من أموالهم ، وأضاعت من سلطان بعضهم ، ونشرت من روح التعصب الممقوت ، وأفقدت الديانة المسيحية — كما جاء فى كتاب تاريخ المؤرخين — ما فيها من حب الاحسان والاعتدال والرفق

ومع أن أوروبا لم تنل ما كانت تتمنى من الأراضى المقدسة ، ومع أنها خضعت لما أنشأته هذه الحرب من ذلك النظام المرذول ، نظام غفران الذنوب ، الذى اتخذه بعض القوم تجارة ، وبالغوا فيه حتى قام شمال أوروبا يدعو إلى الأصلاح الدينى ، مع هذا كله فقد ملأت هذه الحرب الطاحنة قلوب الأفرنج عبرة وعظة ، فقد سلكوا مسلك العقل والحكمة ، فتركوا ما كان بينهم من نزاع وشقاق ، وحوّلوا وجهم إلى النظر فى شئونهم الاجتماعية العامة ، فعمدوا إلى نشر العلوم والمعارف ، وأخذت الأنظمة السياسية شكلا غير شكلها الاول ، والحالة الاجتماعية تتغيرت وتتبدلت ، وانتهى

أمر تلك الخرافات التى كانت تحكم على القلوب، وذهب تأثيرها ، فانحلت العقول من أسرها ، ونظرت إلى ما حولها ، فرأت أن سلطة البابا ورجال الدين قد امتدت إلى مالا يطاق ، فتحركت الهمم للأصلاح الدينى. ويقول باشوليه وزميله فى قاموسهما الجغرافى « وقد عوضت الخسارة المادية التى أصابت المسيحيين بانتصارات باهرة فى النظام السياسى والأدبى . . . . وكذلك القن الذى حمل الصليب نال حريته الشخصية ، وانتشرت الملاحة وارتفع شأنها فزادت قوة بيزة وجنوة والبندقية التى أكثرت من مراكزها التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، واستفادت الصناعة والزراعة أيضاً بما عرفه أهل أوروبا من وسائل جديدة ، ومحصولات كانت مجهولة لديهم كالحرير وصناعته، والصباغة، والزعفران ، وأشغال الميناء، والمعادن، والأحجار الكريمة وانتقلت زراعة قصب السكر إلى صقلية ، وتمكن السياح من دخول بعض مجاهل آسيا »

مما مر يمكن القول بأن أهل الشرق هم الذين أفاضوا على أهل الغرب من حضارتهم ينبوعا اغترفوا منه بعض حضارتهم الحالية ، وأقطعوهم من بنات أفكارهم ما بعث حياتهم العقلية على الحركة والرقى

وقد قال صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا وزير الاوقاف سابقا، ووزير المالية حالا ضمن خطاب ألقاه فى حفلة من الحفلات « هـذا وقد أصاب ديار أوروبا من ناحية الشرق وابل من غيث الحضارة العربية بمـا حمله أهلها من ديار الشرق أيام الحروب الصليبية ، فكأنه أصاب أرضاً نباتها أذكى وأجدى ، فأينعت ثمارها ، واخضلت ربوعها فى طرفة عين »

ولا يغيبن عن البال أن حضارة أوروبا الحالية كانت قد سبقتها حضارة بغداد وقرطبة ، فاستفاد الناس الذين كانوا يميلون للعلم ، وتعلموا كثيراً مما جعلوه بذوراً للعلم والمعارف فى بلادهم ، فان زعم المؤرخون أن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين هو الذى سبب إحياء العلوم والمعارف فى أوروبا ، وأظهر النهضة الأدبية ، فلا يصح إلا أن نعترف بأن بذور هذه النهضة لم يبدرها سوى اختلاط أوروبا بأهل الشرق أيام الحروب الصليبية

وعلى كل حال فقد فتحت هذه الحروب فتحاً جديداً فى أوروبا ما كان القوم يحلمون به ، فقربت بين الشريف والوضيع ، وأضعفت من الأوهام الناشئة عن الدين ، حتى اعتقد بعض أهل أوروبا أن صلاح الدين يجب أن يُعدّ من شجعانهم وفرسانهم ونبلائهم

هذه هى الحروب الصليبية ، وتلك هى أسبابها ودواعيها ، وهاهى نتائجها وثمارها ، ولمّا كان صلاح الدين هو بطلها وعنه أخذ الناس أمثلة فى الهمة والأمانة ولين القلب والرحمة والشفقة ، مع شدة بأس وإقدام وشجاعة وقوة فى الحق ، وجهت همتى إلى تفصيل حياته ، وسرد تاريخه ، حتى يعرف قومى بطلا من أبطال العالم ، لا أقول الشرق فحسب بل العالم بأسره ، وها أنا ذا أذكر تفصيل حاله وما آل إليه أمره مبتدئاً بذكر قومه وعشيرته لما فى ذلك من توضيح أحواله وتفسير أعماله التى قام بها

صلاح الدين

قومه وعشيرته

الأكراد جيل من الآريين ، ليسوا بعرب ولا ترك ، وليس ببعيد أن يكونوا خليطاً من فرس وعرب

عاش الأكراد فى زمنهم الأول عيشة البدويين وسكان الجبال ، فأقاموا زمنا طويلا فى الجهات الجبلية التى بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى وكانوا يشبهون عرب الجاهلية فى عصبيتهم القومية ، وفى ميلهم إلى السلب والنهب ، كما أنهم يماثلونهم فى كرمهم ، وإقرائهم الضيف ، والمحافظة على الشرف ، والشجاعة والأقدام ، فكانوا أهل فروسية يحبون الحرب والقتال والغزو ، يشارك رجالهم نساؤهم فى هذه الصفات ، لذلك اشتهرت من بينهم نساء كثيرات قمن بقيادة الجنود وشن الغارات ، ولما ظهرت فيهم هذه القوة ، وعرفت عنهم هذه المقدرة الحربية ، كان كثيراً ماتستخدمهم الأمراء المجاورون لبلادهم ، للعمل فى جيوشهم ، فكانوا قوة لمن اعتز بهم وعونا لمن طلب معونتهم ، وكانوا مع هذا بعيدين عن الحضارة ومظاهرها والتأثر بها ، شديدى المراس ، لا يمكن الأجنبى أن يحكمهم أو يتسلط عليهم ، بل كانت أشرافهم هم حكامهم ، كل قبيلة من قبائلهم المتعددة منفردة بحكومة ، غيرأن الكل يجمعهم لسان ودين ، ولما كانوا أهل بدواة عشقوا الحرية وكلفوا بالاستقلال

أما لغتهم فالأيرانية بلهجة قريبة جداً من اللغة الفارسية ، ويقول ملطبرون فى كتابه (الجغرافيا العمومية) الذى ترجمه رفاعه بك « والأكراد يتكلمون اللغة الفارسية مشوبة بألفاظ عربية وخلدية أى عراقية ، ويكتبون بالفارسى ، وفى كل قرية ملى يعنى عالما خبيراً بلغة الفرس » وهم والأرمن من أصل واحد ، غير أن أولئك أسلموا ، وبقى هؤلاء على دينهم الأول ، ولذلك دامت بينهم العداوة والبغضاء ، ويقول ملطبرون فى كتابه المتقدم « وهم — الأكراد — مسلمون ولهم عقائد زائغة يظهر أنها بقايا عندهم من دين المجوس ، وينقل العثمانيون عنهم أنهم يعظمون الشيطان وهو إله الشر عند قدماء الفرس المسمى عندهم أهريمان » ويذكر بعض المؤرخين أن الأكراد لما كانوا تحت سيطرة الفرس ، كانوا على الدوام يظهرون العصيان ويقومون بالثورات ويخالفون ملك الفرس كثيراً ، ولما خضعوا للعثمانيين لم يكفوا عن مخالفة أوامرهم فلم يكترثوا بفرماناتهم ، لذلك لم تتغير دولتهم عما كانت عليه فى زمنهم القديم اللهم إلا تغييراً بسيطا

والخراج عندهم التزام تقوم كل قرية بدفع الأتاوة لشيخها وهو يدفعها لأمير القبيلة ، وكثيراً ما تثور القبائل الصغيرة على أمرائها ويخرجون عليهم فيعزلونهم إذا استطاعوا ، فكانت هذه الفتن وتلك الثورات سببا فى انفصال عشائر عدة اتخذت حياة الرحالة ومعيشة التنقل كالعرب والتركمان ، فصاروا رعاة ماشية وقطاع طريق

والكردى يخالف التركمانى فى كثير من العادات ، فالأكراد يأخذون مهر بناتهم ، أما التركمان فيدفعون مهورهن لأزواجهن والتركمانى لا يكترث

يشرف أصله ، ولا بنباهة نسبه وحسبه ، أما الكردى فأنه يفاخر بهذا كله .

والأكراد بيض البشرة معتدلو القامة ؛ وقد اختلف المؤرخون فى تسميتهم ، فيقول ملطبرون فى كتابه الآنف الذكر « وفى جبلى زغروس ونيفاطس اللذين يحدان ميديا من جهة الغرب عدة أمم متوحشة أشهرها أمة الكرطية ، والظاهر أنهم هم الأمم الذين سماهم زنفون كردوخية ، وسماهم بلوترخوس غردوينية ، وسماهم إمينمر قلين كردوينية ، وسماهم المتأخرون من الجغرافيين كرداً أو أكراداً »

وقد جاء فى كتاب طبقات الأمم لجورجى زيدان « وهم ـ الأكراد ـ أمة قديمة كانت تسمى فى التاريخ القديم كردوخى » على أنه يظهر من تقارب هذه الأسماء أنه لم يكن هناك اختلاف فى تسميتهم ، غير أن لهجات لغة الأكراد كانت تملى على المؤرخين أسماء متباينة الشكل فاذا ما دقق الناظر فيها قليلا وجدها جميعها ترجع إلى أصل واحد وكلمة واحدة يختلف النطق بها باختلاف لهجة القائل لها كما هو الحال فى اللهجات المصرية .

كذلك تعددت الروايات فى أصولهم فمن قائل إن لفظة كرد معناها ذئب ثم أطلق الاسم على السكان ، لأن بلادهم كانت مأوى للذئاب . على أن أكثر العلماء متفقون على أن الأكراد من نسل آرى كانوا يسكنون قديماً جبال حوردبان التى تفصل بين أرمينيا وميديا ، ثم انتشروا بعد ذلك فيما بين نهرى الدجلة والفرات ثم أطلقوا على الجهات التى نزلوها اسم كردستان

أى بلاد الكرد ، وهم أناس وحشيون يسكنون الحرج (الأحراش) ويعيشون من قطعان الحيوان ، ولكنهم بعد ذلك تاجروا مع الأتراك المتوحشين فاقتبسوا منهم وحشيتهم وفظاعتهم وقساوتهم وأخلاقهم الحربية

ونذكر من باب الفكاهة ما قاله أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينورى فى كتاب المعارف ص٢٠٨ المطبوع بمصر سنة ١٣٠٠ﻫ « تذكر العجم أن الأكراد فضل طعم (بيوراسف) وذلك أنه كان يأمر أن يذبح له كل يوم إنسان ويتخذ طعاما من لحمه وكان له وزير يقال له (إرمائيل) فكان يذبح واحدا ويستحيي واحداً ويبعث به إلى جبال فارس فتوالدوا فى الجبال وكثروا »

ورغما مما كان عليه الأكراد من البداوة فى معاشهم وأحوالهم ، فقد كانت لهم بعض حرف تناسب حالهم هذه ، فكان لهم ولع خاص بتربية المعز المسمى أنقرة ذى الشعر الطويل ، وكانوا ينسجون المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية ، كما أنهم كانوا يعرفون قليلا من صناعة الجلد والسلاح المستعمل فى بلادهم ؛ كل هذه الحرف والصناعات توافق ما كانوا عليه من البداوة ، وقد أوجدتها الضرورة فيهم على مثال تلك التى توجد بين السودانين مثلا وسكان أواسط افريقية

من هذه الأمة ومن أكبر القبائل فيها وأشرفها ، ظهرت أسرة صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى أو شاذى — كما يقول بعض المؤرخين — ابن مروان ، ويدعى بعضهم أن مروان هذا هو مروان الخليفة الأموى ، وذلك كى يوفق هذا البعض بين صلاح الدين وبين

عظمته التى عرفت عنه بعد ؛ وما أدرى لم يلتزم هذا التعليل الذى لامعنى له إذ ليس من المحتوم أن تـكون العظمة وراثية ، فلا تنتقل من أسرة إلى أخرى أو من فرد إلى آخر ، وهذه حوادث التاريخ توضح لنا بأجلى بيان أن أكثر النابهين، وأعظم الفاتحين، إنما كانوا من أسر خمل ذكرها لولا ظهورهم، وضاعت أصولها لولا شهرتهم ، لهذا يجدر بنا ألا نسير مع هؤلاء الذين يدعون أن مروان هذا هو الخليفة الاموى

يقول ابن خلدون فى الجزء الخامس من تاريخه ص ٢١٨ عند الكلام على الدولة الأيوبية ما نصه « وجدهم هو أيوب بن شادى بن مروان بن على بن عشرة بن الحسن بن على بن أحمد بن على بن عبد العزيز بن هدية بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر بن مرة بن عوف الحميرى الدوسى هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم »

على أن فى إجماع المؤرخين متقدميهم ومتأخرهم على عدم ذكر جد لهذه الأسرة بعد مروان ما يدل على أن ما ينسبه بعض المؤرخين هذا هو أيضاً من قبيل محاولة إثبات ما لهذه الأسرة من الشرف وبعد الصيت من القدم ، إذ فى ذكر سلسلة النسب مايبرهن على أن المؤرخين متتبعون سيرة أفرادها وأن الزمن نفسه حافظ لملك السير . والقريب إلى التصديق ما رواه استانلى لين بول إذ يقول : « ولقـد كانت دُوين تسير نحو الانحطاط عند ما كان جد صلاح الدين المسمى شادى بن مروان قد آل إليه تراث مركز أسرته من الشرف والاحترام وسمو المنزلة » ثم خشى المؤرخ أن قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن شادى هـذا كان له من

الملك والسلطان ما يعزوه المؤرخون لمثل من هذا وصفه فقال « وشادى هذا ليس إلا اسما ، فلا يعرف له تاريخ ولا تذكر له أوصاف سوى أنه كان صديقاً مخلصاً وصاحباً أميناً لبهروز الأغريقي الذى كان عبداً فى دوين وارتفع حتى وصل إلى مركز سام فى حكومة الترك ، حتى أصبح معلماً ومربيا خصوصياً لأولاد السلاجقة » وهذا بعد أن فر من دوين بسبب خصى لحقه ، واتصل بدولة مسعود بن ملكشاه وتعلق بخدمة مربى بنيه ، حتى إذا هلك ذلك المربى أقامه السلطان مقامه ، فظهرت كفاءته وعلا فى الدولة محله ، فأرسل إلى شادى بن مروان لما بينهما من الألفة وأكيد الصحبة ، فقدم عليه ومكث عنده زمناً ، فلما تولى بهروز من قبل السلطان شحنة (محافظة) بغداد سار إليها مستصحبا شادى وبنيه ، ولما أقطعه السلطان قلعة تكريت ولى عليها شادي نائباً عنه فيها ، فهلك وهو والٍ عليها ، فولى بهروز مكانه إبنه نجم الدين أيوب وهو أكبر من أخيه أسد الدين شيركوه بن شادى كما يرويه ابن خلكان ، ولشادى هذا قبة على قبره هناك

فلو كان لشادى ملك فى دوين وسلطان بها لما رحل عنها إلى بغداد ثم إلى تكريت ليكون محافظاً عليها ، ولفضل الاقامة فى بلده بين أهله وذويه ، يأمر فيطاع ، ويعتز بعصبيته فتعزه ، ويستنصر بها فتنصره

والذى يستطيع المرء إدراكه أن شادى هذا كان رئيس قومه فى قرية أجدنقان فقط (قرية على باب دوين) وليس أميراً فى دوين ، وعلى أى حال فلايمكن أن يكون هذا البيت بيت ملك وسلطان قديم بأجماع المؤرخين على عدم معرفة جد لهذه الأسرة فوق مروان

وجاء في دائرة معارف البستاني تحت كلمة (أيوبيون) ما نصه « عائلة كردية ملكت مصر والشام وعرفت بالدولة الأيوبية أو دولة بني أيوب وهذه العائلة من أشراف الأكراد من قبيلة منهم تعرف بالروادية من بطون الهذبانية إحدى قبائل العجم » فكأنه بذلك يريد أن ينسب القوم إلى العجم لا إلى غيرهم ، ثم يقول « ينتسبون إلى نجم الدين الملك الأفضل أيوب بن شادى بن مروان الكردى ، نشأ نجم الدين هذا وأخوه أسد الدين شيركوه ابني شادى ببلدة دوين من أرض أذربيجان من جهة أرّان وبلاد الكرج ودخلا بغداد وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد » وفي هذه العبارة ما يدل على عدم ذهاب شاذى إلى بغداد واستعماله على تكريت كما تقدمت الأشارة اليه ، والظاهر أن شاذى خدم فعلا في تكريت لا سيما إذا استندنا إلى ما كان بينه وبين مجاهد الدين بهروز من الرابطة والألفة السابقة من جهة ، ومن جهة أخرى وجود قبر له في تكريت ذى قبة عالية تدل على ما كان له من المكانة والمنزلة بين أهل تكريت مع كونه غريباً عنهم

صلاح الدين

أيامه الاولى

فى هذه القبيلة ومن هذه الأسرة ولد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو من أكبر ملوك المسلمين همة وأقواهم شوكة وأشدهم صولة وأبعدهم صيتاً . ولد بمدينة تكريت سنة ٥٣٢ هـ (وهذه السنة توافق المدة من ٢٩ سبتمبر سنة ١١٣٧ إلى ٨ سبتمبر سنة ١١٣٨ م) ولا يعرف التاريخ الشهر الذى ولد فيه صلاح الدين ، ويحتمل على هذا أن يكون قد ولد فى سنة ١١٣٧ ، ذلك ما يقوله استانلى لين پول ومما يحققه قول ابن شداد فى سيرة صلاح الدين « كان مولده رحمة الله عليه على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسييرمولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم فى شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت »

كانت ولادته يوم أن أمر مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت والده نجم الدين وعمه أسد الدين بمغادرتها لقتل شيركوه أحد ضباط القلعة لملاحاة بينهما ، ويقول بعض مؤرخى الأفرنج إن ولادة صلاح الدين كانت يوم أن أمر بهروز والده وعمه بالخروج من تكريت ، وهو زعم فاسد ، ذلك لأن الناس اعتادت الظن بأنه كلما ولد عظيم من العظماء لا بد أن يوافق يوم ميلاده حدوث حادث ذى بال

على أن هؤلاء القائلين قد ظنوا أن في إجماع المؤرخين على ربط الحادثين بعضهما ببعض ما يثبت زعمهم الذى زعموه ، ولكنى لا أرى أهمية لهذا التعليل ، ولم يتحمل المؤرخون هذا كله ، فليولد العظيم فى أى يوم كان خمل هذا اليوم أو نبه

غير أنه مما يؤكد عندى أن ولادة صلاح الدين حدثت عند وجوب رحيل أهله من تكريت ، إجماع المؤرخين من جهة ، ومن جهة أخرى ما ذكره الكاتب النصرانى الذى كان فى خدمة نجم الدين ؛ والذى رحل معهم إلى بعلبك ثم إلى مصر ؛ وذكّر نجم الدين بما كان قد هم به من قتل ولده صلاح الدين عند ما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة وقال له « لعل الله جاعل له شأناً ؛ فاستبقه فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من الكدر والغم » ذكّره بهذا يوم أن كان الجميع فى مجلس من مجالس شورى صلاح الدين بمصر ، وهى حادثة وردت فى أكثر الكتب الموثوق بها والتى كتبت عن صلاح الدين

وإلى حالهم المكدرة بسبب رحيلهم يشير استانلى لين بول بقوله « فرحلوا عن تكريت تحت عامل اليأس والندامة وسوء الطالع » ثم يقول « وتشاءم أيوب من أنه ليلة رحيلهم رزقهم الله بمولود جديد من أيوب ؛ فكان ظهور هذا المولود لديهم من أنحس الحظوظ وأكثرها شراً وكان بكاء هذا المولود مما يزيد فى سخط والده عليه »

وفى هذا برهان على صحة ما قاله الكاتب النصرانى ؛ ومما يزيده صحة ما جاء فى كتاب طبقات الشافعية عند الكلام على صلاح الدين « وقيل

إن أباه خرج من تكريت فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين ، فتطيروا به وقال بعضهم لعل فيه الخيرة وأنتم لا تعلمون : فكان كذلك»

مر بنا الكلام أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان محافظا لقلعة تكريت من قبل بهروز ، وقد حدث أثناء ولايته عليها أن سار عماد الدين زنكى والد محمود نور الدين زنكى وصاحب الموصل بجيش لمظاهرة السلطان مسعود — كما يقول ابن خلدون — على الخليفة المسترشد سنة ٥٢٠ ﻫ وانهزم الأتابك عماد الدين ، وانكفأ راجعاً إلى الموصل ، ومر بتكريت ؛ ولم يكن له أمل فى الخلاص هو وفلول جيشه إلا فى هذه القلعة وأصبحت حياته هو وجيشه فى يد مستحفظ تكريت ، إن شاء أسعدهم وإن شاء أرداهم ؛ ولكن لحسن حظه فضّل الأحسان على الأساءة وقدم المساعدة لعماد الدين وقام بعلوفته وإزواده ، وعمل له الجسور على دجلة وسهل له عبوره ، فكانت هذه اليد هى التى بنت ملك أيوب ، وأقامت عز صلاح الدين وبيته ، لأنه لما أخرج بهرز نجم الدين وأخاه أسد الدين ، رحلا إلى عماد الدين زنكى الذى لم يكن لينسى فضل تكريت ومستحفظها عليه يوم هزيمته ، بل بقى يذكرها ويذكر فضلها ويقر بما لها عليه ، حتى إذا ما وصل إليه نجم الدين وأخوه شيركوه أحسن وفادتهما وعرف لهما سابق معروفهما ، فأقطعهما إقطاعا حسناً

عاش نجم الدين وأخوه شيركوه هناك سلام ، ومعهما المولود الصغير يعملان فى جيش زنكى ، فبرهنا على مقدرة فائقة ، وحضرا عدة مواقع . ولما سقطت بعلبك فى يد زنكى سنة ٥٣٤ (١١٣٩ م) عهد بها إلى أيوب

وعينه محافظا عليها ، وفى هذا الاختيار برهان قاطع على مقدار وثوق زنكى بنجم الدين أيوب وحسن اعتماده عليه

توفى زنكى واقتسمت أولاده ملكه من بعده ، واستولى ولده محمود نور الدين على الشام ، وهبت دمشق لاسترجاع بعلبك ، ونظر أيوب ، بما أعطى من الحذق والمهارة وبعد النظر ، فرأى أن الدمشقيين لا بد لهم من أن يسترجعوا المدينة ، إذ الأخوان ولدا زنكى لا يزالان يقتسمان تراث ملك والدهما ، فقبل نجم الدين تحت هذه العوامل كلها أن يسلم للدمشقيين بعلبك على شريطة أن يقطعوه عشرة ضيعات بجوار دمشق ، وأن يهبوا له قصراً فى دمشق نفسها لسكناه ؛ فقبل الدمشقيون شروطه هذه ثمناً لمدينتهم بعلبك ؛ فرحل أيوب إلى مقره الجديد وسكن دمشق وأظهر من الفطنة والذكاء والخبرة ما حببه إلى أيبك أكبر أولاد توغتكين ، الذى ما زال يقرب نجم الدين إليه ، ويهبه من الوظائف فى حكومته ما أوصله إلى مرتبة قائد قواد دمشق كلها . ولا بد أن يكون أيوب قبل أن يصل إلى هذا المركز السامى قد لعب دوراً هاماً عند ماقام الأفرنج بحصار دمشق أيام أنار الذى وصل أيوب بعد وفاته إلى مركز القيادة لقواد الجيش

وبينما كان أيوب يخطو هذه الخطوات فى حياته ، كان أخوه أسد الدين شيركوه يعمل فى جيش محمود نور الدين بجد وهمة ونشاط ، حتى أن نور الدين لم يكتف باقطاعه الأقطاعات العديدة بل أقامه قائد قواد جيوشه كلها لما ظهر له فيه من الأقدام والبسالة والشجاعة النادرة المثال فى هذا الوقت كان قد مات أنار الذى طالما وقف فى وجه زنكى فمنعه

دخول دمشق تلك التى كانت محط آماله ومنتهى رغباته ، وأصبح أيوب ، أخو شيركوه ، قائد قواد نور الدين ، صاحب الكلمة فى دمشق ، كما أن الأفرنج قد انكسروا شر كسرة فى حملتهم الثانية الصليبية عند ما قاموا بحصار دمشق ، وكذلك هدأت الأحوال فى بلاد الجزيرة تحت إمرة أخى نور الدين الكبير ، وأدى أمير دمشق الطاعة لصاحب حلب ، وهو محمود نور الدين الذى ورث طمع والده فى دمشق نفسها ، فأرسل نور الدين هذا جيشاً بقيادة شيركوه إلى دمشق فى أواخر سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٤ م) فلم يشأ نجم الدين أن يقوم فى وجه أخيه من جهة ، ولم يرض أن يقوم فى وجه جيوش ابن سيده من جهة أخرى ، فأخذ يفاوض أخاه ، وانتهت المفاوضة بعد ستة أيام بدخول جيوش نور الدين دمشق ، فانتقلت المدينة إلى يد أقوى أمير فى الشام لوقته ، ونال الأخوان بذلك أحسن الجزاء على ما قاما به من الخدمة الصادقة والأخلاص العظيم ، وأصبح نجم الدين من أخص جلساء نور الدين ، بعد أن عينه حاكما لدمشق ، وبقى بها حتى استدعاه ولده صلاح الدين إلى مصر كما سيجىء بعد

قضى صلاح الدين فى بعلبك بعض سنى طفولته ، وهى من أسعد السنين وأهنئها ، إذ لا يلتفت إليها مؤرخ ، ولا يهتم بها كاتب ، ولم يحفظ لنا التاريخ شيئا من أخبار الحياة الخاصة بنجم الدين وأسرته فى بعلبك ، غير أن الذى يمكننا ملاحظته هو أن صلاح الدين ، باعتباره طفلا مسلما ، لابد أن يكون قد اختلف إلى (الكتاب) كما يختلف إليه غيره من أولاد المسلمين لحفظ القرآن الكريم ولتعلم القراءة والكتابة ، كما أنه تلقى هناك

أيضاً مبادىء النحو ومبادىء الشعر وقواعد اللغة، فقد جرت العادة أن يتعلم أولاد حكام المسلمين ، مهما كانت جنسيتهم ، اللغة العربية ، والقرآن ، والحديث والنحو ، هكذا يقول استانلى لين پول

ولما كان والده من رفعة القدر بحيث ينزل عادة حاكم المدينة ، فقد يتبادر إلى الذهن أن قد جىء إلى صلاح الدين بأحسن المعلمين الممكن الحصول عليهم فى ذلك الوقت ، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا من ذلك شيئاً إلا ما ورد فى كتاب طبقات الشافعية ، وذلك إنما يتصل بأيام شبابه لا بأيام طفولته . يقول صاحب هذا الكتاب « وسمع — صلاح الدين — الحديث من الحافظ أبى طاهر السلفى وأبى الطاهر بن عوف والشيخ قطب الدين النيسابورى وعبدالله بن برى النحوى وجماعة » ثم يقول « وكان فقيها يقال إنه كان يحفظ القرآن ، والتنبيه فى الفقه ، والحماسة فى الشعر »

ومهما تكن الدرجة التى وصل إليها صلاح الدين فى حياته الأولى هذه ومقدار الأساتذة الذين تولوا تربيته الأولى ، فان الصلة بين ذلك وبين ماصار إليه فيما بعد ليست بذات خطر

أما فى المدة التى وقعت بعد استيلاء نور الدين على دمشق ، وبين إرساله أول حملة على مصر ، فلم يذكر المؤرخون المسلمون المتقدمون شيئاً عن حياة صلاح الدين أثناءها ؛ أما مؤرخو الأفرنج فقد قال بعضهم إن صلاح الدين كان يتردد إلى مجلس نور الدين وله من الاعتبار والاحترام ما لابن حاكم دمشق ؛ ثم يستنبطون من الاحوال وقتئذ أنه ظهر بمظهر الشاب المهذب الهادئ المطمئن المتدين المتقد غيرة على الأسلام والمسلمين

بما طُبع فى نفسه من آثار نور الدين الذى أنزله لديه منزلة خاصة ، وبما لوالده من الأيادى البيضاء ؛ بيد أن حالته هذه لم تتم على ما كان له بعد ذلك من العز والسلطان والسطوة والجبروت

كان من عادة الأمراء السوريين الولع بالصيد والقنص ومنازلة الحيوانات الكاسرة وتربية الطيور ، وليس هناك من ريب فى أن صلاح الدين كان فى مصاف هؤلاء الأمراء منزلة ، ومن أعظمهم شأنا وأرفعهم قدراً وأعلاهم كعباً ، لما كان لوالده وعمه من المنزلة عند نور الدين ، كما سبقت به الاشارة ، غير أن مؤرخى الأفرنج يقولون بأنه رغماً من هذا لم يسمعوا بأن صلاح الدين ولع يوماً بالصيد والقنص أو تربية شىء من الطيور والحيوانات بل كل ما عرفوه عنه كما يقولون هو أنه سلك سبيل الحياة الهادئة المطمئنة على مثال والده من الرزانة والحكمة ، خلافا لما كان عليه عمه من الأقدام ثم يقولون بأنه إذا جاء دور العمل ووجد أمامه طريقاً وعراً صعباً لكن يقوده إلى الشهرة والعظمة ، وآخر سهلا ليناً يقوده إلى الشرف والسكينة وجدته يفضل الثانى على الأول ، وإنى أظن بل أعتقد أن الذى قاد هؤلاء إلى مثل هذا الظن بصلاح الدين ، امتناعه عن أن يرافق عمه فى غزو مصر للمرة الثالثة لولا تشبث عمه بضرورة رحيله معه ، على انهم لو ركنوا إلى هذا الحادث ونسبوا له ما نسبوا ، ما كان لهم أن ينسوا ما عاناه من المتاعب فى المرتين الأولى والثانية ، وقياسه فى وسط الجميع يصفق استحسانا

وإعجاباً لذلك الذى قال قُبيل واقعة البابين ، عندما استشار شيركوه القومَ فى الأوبة إلى الشام أو العمل فى مصر « إن الذين يخافون الموت ويستكبرون الأسر ، لا ينبغى لهم أن يخدموا الملوك ، فليخلعوا ثياب الجند ، وليلبسوا ثياب الحراثين ، أو فليكونوا رهن بيوتهم فى أحضان نسائهن » فطرب صلاح الدين وصفق له حتى كادت تدمى يداه ؛ فى حين أن جميع أركان حرب شيركوه كانوا على رأى من قال بعدم المجازفة فى دخول غمار الحرب؛ وكان هذا سبباً فى أن استمر شيركوه فى غزوته ، واستولى على الأسكندرية وكان من أمره ما سنعلمه فيما بعد

أما عدم ولوعه بالصيد والقنص فيخيل إلى أن القوم قد بالغوا فيه ؛ كلنا يعلم مقدار عشق العربى لجواده وركوبه والسباق به ، ويعرف ما يتحلى به الطفل العربى من هذه الخصال ، وهى حال محسوسة نرى منها الكثير حتى فى الأعراب الذين يجاورون قرى مصر وكادوا يكونون قرويين ، فان الفروسية وامتطاء الخيل لا تزال عادة لهم ، يألفونها منذ طفولتهم ، فلِم يشذ صلاح الدين وهو ذلك الكردى الأصل ، وقد وصفنا الكردى وحاله فيما مضى ؟

ألا إن القوم يريدون بذلك أن يخرجوا صلاح الدين من مكمنه الساكن إلى إقدامه وبسالته النادرة التى ظهرت فجأة ، فيقولون إن هذا سر من أسرار الله لأمر أراده ، فنفخ فى صلاح الدين هذه الروح من عنده دون سابق إعداد إليها ؛ ألا فلينظروا ما كتبه العماد سنة ٥٦٣ هـ إلى صلاح الدين وقد عثر فرسه فى الميدان وهو يلعب الكرة مع نور الدين

لاتنكرن ـ لسابح عثرت به ... قدم وقد حمل الخضم الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه ... فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته ... عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه ... فى السرج منك يقل ليثاً خادرا
ومتى تطيق الريح طوداً شامخا ... أو يستطيع البرق جوناً ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره ... فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقلْ جوادك عثرة ندرت له ... إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرها ... لا كان ناظرها بسوء ناظرا
واسلم لنور الدين سلطان الورى ... فى الحادثات معاضداً ومؤازرا
فاذا صلاح الدين دام لأهله ... لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

ويقول العماد فى موضع آخر ما يوضح ولوع نور الدين بضرب الكرة ويذكر بهذه المناسبة أن صلاح الدين كان يركب مبكراً كل بكرة

يقول هؤلاء المؤرخون إن الذى لايمكن نكرانه على صلاح الدين أنه كان أحد أولئك الأفراد الذين متى ذاقوا طعم الملك ولذة السلطان مرة لم يتركوا بعد ذلك فرصة فى مد سلطانهم ونشر قوتهم . ولست أدرى كيف يتفق قولهم هذا مع امتناعه من الذهاب إلى مصر مرة ثالثه بعد أن ذاق طعم الأمارة بالاسكندرية فى الحملة الثانية على مصر

كان العلماء يفدون إلى دمشق أيام نور الدين من الشرق والغرب ، من سمرقند ومن قرطبة ليعلموا ويتعلموا فى مساجدها ومدارسها ؛ ومن الراجح كثيراً أن صلاح الدين قد استمع على أكثرهم لاسيما عندما كان

يجلس فى الجامع الأموى عبدالله بن عصرون يلقى محاضراته هناك ؛ وما أظن صلاح الدين تلمذ لأحسن من هذا الاستاذ الذى كان إمام عصره فى مواهبه ومداركه ، وهو الذى أحضره نور الدين وابتنى له المدارس فى دمشق وأمهات مدن الشام ، ليدرس بها وينشر العلم فى ربوع الشام كلها وقد بلغ هذا الشيخ الى مركز قاضى قضاة الجزيرة ، ومن أجَلّ ما يتحدث به عن صلاح الدين واخلاصه أن قد أبت عليه مروءته الا أن يقرب هذا الشيخ من مجاسه عند ما فقد بصره ، فجعله من أخص خواصه

يدهش بعض المؤرخين إذا قارنوا بين حياة صلاح الدين الاولى ، وهى على ما هى عليه من الهدو والسكينة و ، وبين ما كانعليه عمهشيركوه من الاقدام والاندفاع وراء أطماعه الكبيرة التى كانت تقوده فى بعض الأحيان إلى منافسة نور الدين نفسه لولا ما كان من حكمة أيوب

قام شيركوه بأمارة الحج سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وأظهر فيها من الكفاءة ما أنطق لسان الجميع بمدحه ومقدرته ، وتنكر علماء الأفرنج على صلاح الدين عدم الذهاب مع عمه لتأدية فريضة الحج على الأقل إن لم يكن للقيام ببعض أمور هذه الرحلة ، على أنه كيف يقولون عنه إنه كان شاباً صالحا ناسكا ، وهذه فرصة قل أن يسمح الزمان بمثلها وهى وجود عمه أميراً للحج دون أن يتقدم لمصاحبته لتأدية الفريضة ، ما دام متعبداً لله خاشعاً ؛ غير أنى لا أوافق القوم فى مسألة تدين صلاح الدين إلى حد أن صار من المنزوين فى أركان المساجد وزوايا البيوت . كيف نجمع بين هذه الحال وبين ما يقوله صاحب حماه فى تاريخه « ولما فوض الأمر — أمر وزارة

العاضد — إلى صلاح الدين ، تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد ، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله ، ولم نسمع أن شارب الخمر المنغمس فى اللهو يكون هادئاً مطمئنا ديناً لله خاشعاً

يقول هؤلاء المؤرخون إنه كان لشيركوه نصيب كبير فى فتوحات نور الدين ولم يسمعوا أن صلاح الدين اشترك فى واحدة منها ، ولو فعل لذكرها له مؤرخوه ، والمعروف عنه أنه ظل ساكنا فى مكمنه ، حتى بدأ شيركوه بحملاته على مصر ، فهجر صلاح الدين عزلته وخطى بجسارته تلك الخطوات التى جعلته سلطان المستقبل ووارث زنكى بطل الاسلام والمسلمين على أن هذا يخالف ما ورد فى كتاب الروضتين فى رسالة من انشاء القاضى الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء بأمر الله فى بغداد عند ما دخل دمشق يقول فيها « كان أول أمرنا أنا كنا فى الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين بعسا كرنا نحن ووالدنا وعمنا فى أى مدينة فتحت أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر أو مصاف للأسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ولا يجحد عدونا أنا نصطلى الجمرة ونملك الكرة ونتقدم الجماعة ونرتب المقاتلة وندبر التعبية إلى أن ظهرت فى الشام التى لنا أجرها ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، وكانت أخبار مصر . الخ » على أنه رغم هذا فالمقارنة لاتجوز شيركوه وصلاح الدين إذ أين قائد القواد من ابن حاكم دمشق ، وأين الشيخ من الشاب فى أعماله وأحواله

هـذا رأى مؤرخى الأفرنج فى حياة صلاح الدين الأولى ولست

على رأيهم فلى نظر يخالف نظرهم فى صلاح الدين ، ذلك البطل الذى ظهرت فروسيته وشجاعته فملأت قلوب الأفرنج رعباً وفزعا ، ذلك الذى إن صال صولة انتزعت لها قلوب الأعداء من أمكنتها هلعا ، وإن طاف طوفة شخصت لها عيونهم إكباراً له وتعظيما ، فهل ظهر بهذه الصفات فى العقد الثالث والرابع والخامس من حياته دون أن يكون لها نصيب فى عقديه الأول والثانى ، لا سيما اذا لاحظنا أنه كردى ، وقد علمنا ما للأكراد من الشجاعة منذ نعومة أظفارهم ، تلك طبيعة فيهم لا يستطيعون الفرار منها ، فكيف بصلاح الدين وقد جمع بين كردية أصله ونباهة والده وسمو منزلته ، فاذا أغفلنا أنه كردى الأصل من نسل قوم اشتهروا بالشجاعة والأقدام ، فهل نغفل أنه ابن حاكم دمشق وأنه أمير من أمرائها المقربين ؟ هذا فيما يختص بفروسيته وعدم ولعه بالخيل وركوبها والقنص والصيد ، أما فيما يختص بعيشة العزلة بعيداً عن الأعمال اللهم إلا ماتقرب بها الى الله ، فكيف برجل كان جليس نور الدين ولا يشتغل بالأمور العامة ، يجلس الفرد منا فى مجلس خاص اعتاد الكلام فى موضوع خاص فلا يلبث أن يكون واحداً منهم ، فلم لا يكون هذا حال صلاح الدين مع نور الدين ؟ أللهم إن القوم يريدون أن يقولوا ان الله أرسل صلاح الدين هاديا ومبشراً ونذيرا ومنتقما ، يريدون أن يقولوا إن هذه صفة يهبها الله لعبد من عباده ليقوم بعمل يريده هو سبحانه وتعالى ثم يذهبون من هذا الى قولهم ان الله بعث بطرس الناسك فحرك بقوة ربه أوروبا لتنقذ قبر المسيح والبلاد المقدسة من أيدى المسلمين العابثين بها ، فملكوا البلاد

وأذلوا العباد وشتتوهم أيدى سبا وأقاموا لهم ملكا عظيما . فلما ضربوا في الأرض وظنوا ألاّ قوة إلاّ قوتهم ، طغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ما احمرت منه الأرض خجلا ، فأرسل الله صلاح الدين بروح من عنده لم يعرفها أحد عليه قبل ذلك ليوقع عقابه بهم على يديه ، فكان من أمره ما كان ، هذا ما يريد القوم إظهاره ، ولكن لدينا ما يثبت أن حياة صلاح الدين كانت على غير ماوصف هؤلاء . فقد قال ابن شداد في كتابه — النوادر السلطانية — ما نصه « واتفق لوالده أى والد صلاح الدين — الانتقال الى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور — أى صلاح الدين — إلى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدى محاسن أخلاقه حتى بدت منه إمارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله تعالى ، وعول عليه ونظر اليه وقربه وخصصه ، ولم يزل ، كلما تقدم قدما ، تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه الى ماهو أعلا منه »

ولما استصرخ شاور بنور الدين ، وأمر أسد الدين شيركوه بالخروج الى مصر قضاء لحق الوافد المستصرخ ، تأهب أسد الدين — كما يقول ابن شداد — وسار الى مصر ، فاستصحبه — أى صلاح الدين — معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره اليه وجعله مقدم عسكره . فكيف يكره نور الدين رحيل صلاح الدين ان لم يكن له في وجوده معه أكبر عضد ، وكيف يجعله مقدم العسكر إذا لم يكن قد باشر الحرب والنزال من قبل ؟ ثم يقول ابن شداد « وكان — أى أسد الدين — لا يفصل أمراً

ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته »

وجاء فى دائرة المعارف للبستانى تحت كلمة صلاح الدين ما نصه « مؤسس الدولة الايوبية بديار مصر وصاحب البلاد المصرية والشامية والعراقية واليمانية ، الغازى المشهور وصاحب الفتوحات العظيمة والمواقع الكبيرة مع الأفرنج فى الحروب الصليبية ؛ تربى فى كنف والده حتى ترعرع ؛ ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق لازم خدمته نجمُ الدين وولده صلاح الدين ، وكانت مخايل السعادة والتقدم تلوح عليه ، ونور الدين يرى ذلك منه ويؤثره ؛ ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد فى أمور الجهاد »

وجاء فى كتاب تليانى ما ترجمته « كان صلاح الدين رجلا شجاعاً عظيما مقداما تمكن بمواهبه الفطرية التى فطر عليها أن يرفع نفسه لا إلى درجة سلطان (بابيلون) فحسب بل أوجد لنفسه مجالا صار به فتح البلاد ومدوخ الأمم النصرانية الأفرنجية فى مواقع عدة انتصر فيها عليهم انتصاراً باهراً . كما أنه حاز من النصر على غيره من أمراء الشرق ما جعله سلطان عصره وأمير الأمراء لوقته »

وجاء فى دائرة المعارف الأنجليزية ما ترجمته « ولقد تربى صلاح الدين على هـذا — أى باعتبار أن والده كان حاكم دمشق — فى أكبر مركز للتعليم الأسلامى وقد ظهر صلاح الدين فى ثوب أحسن متعلم مسلم »

ويقول الأمير على فى كتابه (مختصر تاريخ الأسلام) ما ترجمته

« أما صلاح الدين فقد تولى عدة وظائف تابعة لمولاه نور الدين قبل مجيئه إلى مصر مع عمه »

ويقول صاحب كتاب الروضتين فلما كانت هذه السنة (٥٦٢ ﻫ) تجهز — أى أسد الدين شيركوه — وسار إليها (مصر) وسير نور الدين معه جماعةً من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفى ذلك يقول العرقلة

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الاغاريب
رَب كما ملكتها يوسف الصـــــديق من أولاد يعقوب
يملكها فى عصرنا يوسف الصـــــادق من أولاد أيوب

وهذه هى المرة الثانية التى ذهب فيها شيركوه إلى مصر ، ولو كان الشعراء ممن يعتد برأيهم كثيراً لأوردت غير هذا مثل قصيدة العماد التى يمدح بها نجم الدين حيث يقول

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب ولا الفراق إلى عيشى بمنسوب
ما اخترت بُعدك لكن الزمان أتى كرهاً بما ليس يا محبوب محبوبى
أرجو إيابى إليكم ظافرا عجلا فقد ظفرت بنجم الدين أيوب

ثم يقول

أخوك وابنك صدقا منهما اعتصما بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما هما مان فى يومىْ وغى وقرى تعودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان فى الكفار نار وغى بلفحها يصبح الشبان كالشيب
يملك مصر ونصر المؤمنين غداً تحظى النفوس بتأنيس وتطييب

ويستقر بمصر يوسف وبه　　تقر بعد التنائى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها باخوته　　والله يجمعهم من غير تثريب

ويقول صاحب كتاب طبقات الشافعية «ثم اتصل والده — أى والد صلاح الدين — نجم الدين أيوب بالملك نورالدين الشهيد فخدمه هو وولده صلاح الدين هذا خدمة بالغة»

هذا كله مما يوضح لنا بأجلى بيان أن صلاح الدين لم يعش عيشة النساك البعيدين عن الحياة والعمل فيها ثم انتقل الى حياة العمل والجد والنشاط فجأة من غير سابقة ولا مقدمة تقدمت هذا المظهر الجليل والعمل الكبير الذى عرفه العالم الافرنجى والأسلامى عن صلاح الدين

وفوق هذا وذاك، فالعماد يقول فى حوادث سنة ٧٢ ﻫ «فى السادس من المحرم توفى بدمشق القاضى كمال الدين بن الشهر زوزى وعمره ثمانون سنة، لأن مولده فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان فى الأيام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم، وصلاح الدين إذ ذاك يتولى الشحنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الأحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه، ويقصد فى كل ما يعرض له إعراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه إلى أن نقله الله من نيابة الشحنكية إلى الملك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة فى السلك، وكان فى قلبه مما فرّط فيه وما فرط منه، ما فات وقت تلافيه، فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولم يؤاخذه بجرمه، واحترم نوابه، وأكرم أصحابه، وفتح للشر بابه، وخاطبه واستحسن جوابه الخ»

صلاح الدين

ابتداء أمره قبل ملكه

مر بنا القول على الدولة العباسية ، وكيف قامت في أول أمرها ، وساست دولتها ، أيام كانت بغداد مركزاً يرجع إليه كل أطراف الدولة ، وما زالت تصدر أمرها الى ولاتها ، حتى ضعف حالها ، وكثرت الموالى فيها فاشرأبت أعناق العمال الى الاستقلال بما فى أيديهم ، حتى وصل الموالى الأتراك إلى القوة والسلطان ، ثم غالبهم الديلم فغلبوهم ، فانتقلت السلطة لأيديهم ، بيد أن الخلفاء فى بغداد لم يطيقوا لهم حكما ، لغلوهم فى التشيع وانتظارهم الفرص لأعطاء الدولة الى العلويين ، حتى دعا هذا الحال الى ظهور السلاجقة ، فكونوا قوة اسلامية أفادت الى وقت ما الدولة العباسية والعالم الاسلامى بأسره ، بما قضوا به على تلك الأمارات التى قامت من تخوم أفغانستان شرقاً حتى البحر الأبيض المتوسط غربا ، فوحدت كلمة تلك الجهات وأخضعتها لسلطان واحد ، هو السلطان ملكشاه السلجوقى ووزيره القادر الحازم ، نظام الملك الذى شاد حقيقة عظمة البيت السلجوقى بما كان له من بعد النظر فى الأمور والمقدرة السياسية . رأى هذا الوزير القدير أن دولة قامت بقوة السيف على أيدى جنود من المرتزقة والأرقاء يقودهم ضباط من المماليك الموالى العاملين فى بلاط السلطان ، بعد أن بعدت أيدى العرب والفرس عن العمل فى أمور الدولة ، لا يكون قوامها

بعد تأسيسها إلا العدل والمراقبة من جهة ، وتشجيع القواد على الأعمال في الدولة ولصالحها من جهة أخرى ، فقام يدلى لهؤلاء القواد بالقلاع والمدن وحتى بالولايات ، جزاء لمن قام منهم بعمل مشكور عظيم ، فكان يستولى لقائد على قلعة أو ولاية ، يحكم فيها بما يرى على قاعدة أن يؤدى الخدمة العسكرية التى كان يطلبها منه البيت السلطانى فى وقت شاء فساق هذا الأمر الدولة إلى النظام الاقطاعى الذى كانت سياسة نظام الملك نفسه تخشى الوقوع فيه ، بما أثر عنه بأنه ما كان ليبقى أميراً فى إمارته مدة طويلة : وما كان يسمح لأحد منهم بجباية أمواله فى غير وقت الجباية ، وبما كان يرسل من المفتشين والعيون على هؤلاء العمال ، وبما كان يقول لهم عند توليته إياهم إن الأرض ومن عليها ملك للسلطان ، وليس الولاة والحكام إلا حراساً عليها وعليهم . غير أنه يظهر أن هذا النظام الاقطاعى كان له أثر فى نفوس الأتراك وميل خاص إليه ، حتى تسرب إلى نفس صلاح الدين وخلفائه من بعده ، فحافظ عليه المماليك الأتراك عدة قرون . على هذا النظام الأقطاعى العسكرى سارت معظم جهات فارس والجزيرة وسوريا ، فحكمها قواد من قواد السلاجقة ، أولئك القواد الذين كانوا من قَبْل موالى في الحاشية السلجوقية . وتبعاً لهذا النظام كان القواد أنفسهم يولون من قبلهم ولاة يؤدون لهم الخراج ويقومون بخدمات عسكرية وقت الحاجة ، فساد النظام الاقطاعى بمثل ما كان يسود فى أوروبا ، هذا النظام حسن فى مملكة واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، قليلة المواصلات . ما دام للسلطان فيها القوة والجبروت ، وللأمراء والولاة

الخضوع والطاعة ، فلما زلت قدم السلطان وقصرت يده عن تحريك سلطنته على مايرى ، انقلب هذا النظام الى سيل جارف يهدم من الأمة ما شيدته ويسقط منها ما قد أقامته أيام قوتها وسطوتها ، فيقوم التنافس بين الحكام ، والمنازعات بين الاتباع ، كل يحاول أن يميز على ما بيد أخيه فيختل النظام ، ويضيع الأمن ، وتنحط التجارة ، وتزهق الأرواح ، وتتدهور الأمة بأجمعها الى الحضيض

على أنه فى وسط هذا الهرج والمرج ، قد تظهر يد قوية فى احدى الجهات فيكون لها الغلبة على من سواها ، ويصبح لها من القوة والنفوذ ما يمكنها من حفظ قسم من المملكة من السقوط فى الهاوية العميقة ويرد عن الأمة خطر الاضمحلال والفناء ، غير أن هذا الحال ليس الا حادثاً وقتياً يزول بزوال اليد التى كونته ؛ أو ينتقل إلى يد أخرى تأخذ بناصره ؛ وهكذا حتى تقل الأيدى ؛ ويقل الأكفاء ؛ فتتنفس الأمة آخر نفسها

كان هذا النظام يدعو الأمراء والحكام إلى أن يضموا إليهم جماعة من ذوى القدرة والمواهب السامية ؛ ممن يرون فيهم إخلاصاً وعقلا وأدبا ومهارة وحنكة وسياسة ؛ ليكونوا لهم أعواناً على اقامة دولتهم ؛ وعيونا على أتباعهم ؛ وسيفا فى نحر أعدائهم ؛ ودرعا يتقون بها مخالفيهم ومن هذا ما كان من أمر نور الدين ؛ فانه قد جمع حوله نفراً من اختلفت مواهبهم منهم من أعطى بسطة فى العلم والادراك ؛ ومنهم من وهبه الله شجاعة وبسالة ؛ ومنهم من حنكته الأيام فأصبح داهية سياسية ، انتفع بهم

نور الدين انتفاعا ظهر أثره فى تملكه كل البلاد الشامية وغيرها

ولا ريب فى أن هذا نظام يدعو ذوى المطامع الى العمل ، ويشير صاحب الهمة إلى الظهور ، كما أنه لا خوف من الاعتراف بأن هذا النظام وحده هو الذى ساعد كثيراً على ظهور الروح التى ظهر بها صلاح الدين ، ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أوجه نظر القارئ الى تأثير البيئة ، ذلك الذى لم يدع فيه وفى تأثيره الفلاسفة والكتاب الاجتماعيون قولا لقائل

قدمنا أن صلاح الدين كان جليس نور الدين ، وأن هـذا ما زال يقربه ويدنيه ويقدمه ،حتى بدت له مواهبه وبسالته ، وظهرت فتنة الوزارة بمصر ، وهى إذ ذاك مقر الخلافة العلوية دون أن يكون للخلفاء فيها كلمة ولا حول ولا قوة ، القول قول الوزراء والأمر بيـدهم ، يديرون الملك كيف شاؤا ، وكان المصريون فى إبان هذا لا حيلة لهم إلا إقرار الوزراء فى مراكزهم ، يعترفون للغالب ، ويوقعون للقاهر ، لعلمهم لا قوة لهم الا بقوة الوزير وجنده وأتباعـه والموالين له ، ذلك لأن الخلفاء الفاطميين تركوا عيشتهم الساذجـة أيام ان كانوا فى افريقية ، فلما جاؤا الى مصر ، وابتنيت لهم فيها القصور الفخمة ، وأقيمت لهم الحدائق الغناء ؛ وكثرت لديهم الثروة . وانفتح لهم باب النعيم بما لم يكن لهم فى الحسبان ، انغمسوا فى الملذات والملاهى ، ومالت نفوسهم الى الكسل والتوانى ، واكتفوا بما هم فيه من التفـنن فى الطعام والشراب ، وتركوا حكم البلاد ومهام أمور الحكومة الى خـدمهم ومواليهم الذين كانوا يقبضون على أزمة الأمور رويداً رويداً ، حتى انتهى الحال اليهم ، وأصبحت القوة والسلطان فى أيديهم ،

والخلفاء مغلوبون على أمرهم ، لا يستطيعون رداً لقضاء وقع فيه أسلافهم فاذا مات الخليفة قام وزيره باختيار من يراه ، لامن يريده قوم الخليفة ، وليس أدل على هذا قول الصالح بن رزيك ، وزير الفائز بنصر الله عند استخلافه العاضد ، وقد سمع ضجة من الخارج قيل له عنها ان الناس يفرحون بالخليفة فقال « كأنى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ، ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وماعلموا أننى كنت منذساعة استعرضتهم استعراض الغنم » استمر حال الخلفاء على الضعف حتى سمى الوزراء أنفسهم بالسلاطين واكتفى الخليفة بالانكماش بين جواريه ، يخطب باسمه على المنابر ، وتقر العامة له بالزعامة الدينية عليهم باعتباره امامهم ، وأصبح حال الخليفة فى مصر ، وهو على عرشه المزركش بأنواع الحلى والجواهر ، كحال أخيه الخليفة العباسى فى بغداد ، وكانت حال الدولة اذ ذاك يؤسف لهـا ، فقد وصلت من الضعف الى حيث كان يسهل على أى مغير فتح البلاد من غير عناء على أن الفضل فى بقائها على هذا الحال من غير غزو ، وجود جيران لها ضعفاء منهمكين فى أمورهم الداخلية ، غير ملتفتين الى ما يجرى بالديار المصرية ، فان السلاجقة فى هذا الأوان كانوا قد انقسموا شيعاً ، فلم يعودوا قادرين على غزوها مع أنهم لو بقى حالهم على ما كانوا عليه أيام السلطان ملكشاه لاستولوا عليهـا بلا عناء ولا مشقة ، وما كان لحكومة أن تفكر فى غزو مصر اذ ذاك (فى أواسط القرن الثانى عشر) سوى حكومة القدس اللاتينية ، غير أنه من حسن حظ مصر أن هؤلاء الأفرنج ما كادوا ينظمون حال مملكة القدس حتى ظهر فشلهم ، إذ جرهم الطمع الشخصى

إلى الاختلاف فى الكلمة ؛ ودب فيهم دبيب الفساد ؛ فكان حبهم للمال يفوق حبهم لأى شىء آخر ؛ وهنا رأى الوزراء المصريون أن الفرصة ملائمة فانتهزوها ؛ فسدوا أفواه هؤلاء الأفرنج بالذهب وهو كل ما كانوا يطمعون فيه من مصر . أضف الى هذا أن ظهور نور الدين فى جو السياسة الشامية ؛ واستيلاءه على دمشق ؛ وانتصاره على طرابلس وانطاكية اللاتينيتين ، حول أنظار افرنج القدس عن مصر ، خشية أن يغير عليهم أيضا ، فبقيت مصر آمنة من الغزو ، مع أن نور الدين والافرنج كانوا على السواء يطمعون فى امتلاكها ، لعلمهم أن من استولى عليها ، رجحت كفته ، ومن أجل هذا أخذ كل منهما يترقب أعمال صاحبه فيما بعده للاستيلاء عليها

هكذا كان مركز مصر ، والوزراء الفاطميون يعرفون حرج مركزهم ومركز البلاد ، فأخذوا يداهنون القوتين ، ويضربون الواحدة بالأخرى ، على أنهم بالغوا فى هذا كثيراً حتى مكنوا صلاح الدين منهم ، وأعطوه فرصة لم يهملها ؛ واليك بيان الحال من أوله

توفى الصالح بن رزيك وزير الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله بعد أن أوصى ولده العادل ألا يغير شيئا مما بيد ساور بن مجير أبى شجاع السعدى كما ينسبه صاحب كتاب الروضتين — الذى كان واليا من قبله على أعمال الصعيد

قدم شاور الى مصر والتحق بخدمة الصالح ، فرأى منه نشاطا وقوة فولاه الصعيد ، وهو اذ ذاك أكبر أعمال مصر ، فلما استقر بشاور المقام ؛



الملك أمورى

عامل الناس عامة والأعراب خاصة معاملة جملتهم تحت أقدامه وطوع يمينه ، فقوى بهم مركزه ، وتاقت نفسه إلى ما فوق مكانه ، فخافه الصالح وعسر عليه عزله خشية أن يخرج عليه بجماعته فيحرمه منصبه ، منصب الوزارة ، بل منصب السلطان والنفوذ فى الدولة كلها ، فاستبقاه يعمل ما يرى

فلما توفى الصالح وخلفه العادل بوصية من أبيه ، خالف نصح والده بأغراء أهل مجلسه وإفهامهم إياه أنه إن ترك شاورا فى مكانه خرج عليه ، فأرسل بعزله ، فجمع شاور الجموع ونزل بها إلى القاهرة وقبض على العادل وقتله ونهب أموال بنى رزيك كلها بعد أن أشبعهم قتلا ، وتولى الوزارة ولقبه العاضد بأمير الجيوش ؛ ويقول فيه عمارة الشاعر من قصيدة

ضجر الحديد من الحديد وشاور   فى نصر آل محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يا زمان فكفر

والمتتبع لما قيل فى هذه المدة من مدح شاور قد يُخدع بما قاله الشعراء الذين اعتمد عليهم بعض المؤرخين فى نقل حوادث هذا الزمان ، وهو أمر يستدعى دهشة الباحث فى التاريخ؛ ورب قائل ، كذلك وصلت إلينا أخبار العرب الأولين واليونان ، فأقول إن العرب واليونان كانوا على السذاجة الفطرية ، فما كانت تغرهم ألقاب ولا تطمعهم أموال ولا تميلهم نعمة، كلهم فى الحياة سواء ، لا يفوه الشاعر منهم إلا بما يوحيه إليه وجدانه ويراه حقاً وصواباً

ما كاد سرير الوزارة يطمئن بشاور حتى قام فى وجهه نائب (حاجب) الباب وهو أمير يقال له الضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور ، جمع الجموع الكثيرة وقام ينازع شاوراً ؛ فظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه حتى اضطر شاور إلى الهرب من الديار المصرية خائفاً يستنجد ؛ فاستولى الضرغام على الوزارة وأخذ يقتل الأمراء وأهل الدولة ليصفو له الجو ويطمئن على نفسه ومركزه . وما درى أنه بعمله هذا قد أساء إلى نفسه ، فقد يكون له ممن قتل خير مساعد وأعظم ناصر . لكن هذه عادة الأمراء والوزراء الذين يصلون إلى مراكزهم بالحيلة والدسيسة لا من طريق الحق والأمانة

لم تكن حال الضعف التى وصلت إليها مصر فى هذا الوقت إلا نتيجة أطماع هؤلاء الوزراء الذين ما كان يهمهم من مصر وأمرها إلا امتلاء بطونهم وتثبيت مراكزهم وتقوية أنفسهم وإحاطتها بسياج من المكر والخديعة مهما كانت الأساليب والطرق التى وصلت بهم الى هذه الغاية قبيحة أو حسنة ، وسواء عليهم أعمرت البلاد بعد ذلك أم خربت ، لأنهم ليسوا من أبنائها ولامن الذين يهمهم فلاحها ونجاحها ، بل هم على العكس من ذلك ، يقومون بقتل الظاهرين فى الأمة حتى لا يكون فيها من يناظرهم فى العظمة ولا من يناقشهم الحساب على تصرفاتهم السيئة

قام الضرغام يناوئ شاوراً لا للاهتمام بأمر مصر بل لمجرد طمعه فى سرير شاور ، فاستعمل كل مايمكنه من هذا الغرض ، فخالف الملك أمورى أوأملريك ملك القدس ، الذى كان إذ ذاك يعد العدة لغزو مصر ، فصادفت

هذه المحالفة هوًى فى فؤاد الأفرنج وسبحوا فى بحار أحلامهم للقضاء على استقلال مصر والاستيلاء عليها ، بعد أن نالهم مانالهم من الفشل فى الشام على يد نور الدين

طار شاور إلى الشام وتقدم إلى نور الدين يستجير ويستغيث ، ووعد بدفع ثلث خراج مصر بعد وظائف الجنود الذين يبعث بهم نور الدين إلى مصر لتنفيذ رغائب شاور وأغراضه، وأن يجعل حامية فى الديار المصرية من الجنود الشامية تحت إمرة شيركوه الذى يمثل نور الدين فيها ؛ على أن نور الدين ، مع علمه بأن فى امتلاك مصر ظفرا بالسيادة السياسية ، وأن فيها من المدد له ما فيها ، تردد فى الأمر وأخذ يقدم رجلا ويؤخر أخرى، لا لضعف فى عزيمته ولا لنقص في جنده ، بل لأن أمورى كان شديد العداوة له وأن مملكته تفصل بين أملاك نور الدين ومصر، والمسلك وعر والطريق صعب والمرحلة شاقة والثقة بشاور ضعيفة ، فخاف على جنده وأتباعه فى أول أمره ، إلا أن شيركوه ، قائد قواده ، ما زال به حتى أمّن خوفه ، ذلك لأن شيركوه رأى أن أهل مصر لا يفضّلون أميراً إفرنجياً على سلطان مسلم من جهة ، ومن جهة أخرى ليس فيها سلطان قوى يصح أن يقال عنه إنه منافس جدى ، وكل من فيها وزير قد تقوم عليه جنده لسبب ما . بيد أن الظروف كانت تعمل أكثر مما كان يفكر فيه القوم، فأن أملريك كان قد تقدم لغزو مصر بسبب تأخر الضرغام عن مناولته الأتاوة السنوية ، فلما جاءها قطع الضرغام الجسور ، وكان النيل مرتفعاً ، فأغرق البلاد من تلك الناحية ناحية بلبيس ، فرجع أملريك ؛ فلما سمع

الضرغام بفرار شاور إلى نور الدين ندم على ما فرّط فيه من صداقة الافرنج وعاد إلى مخاطبتهم على أن يعودوا ، فوصل هذا الخبر إلى نور الدين ، فترك تردده وأسرع فى إرسال جنده حتى لا يصل الأفرنج قبله

وفوق هذا فقد بيّن شيركوه لنور الدين ما لامتلاك مصر من الفوائد فى حرب الأفرنج فى الشام ، فأنه من دلتا مصر يمكنهم أن يرسلوا جيشاً يحارب السواحل الشامية ويناوئ النجدات الأوروبية ، وبامتلاك مصر تصبح القدس بين نارين ، نار من الشام ونار من مصر نفسها ؛ غير أنه لا بد لنا من ملاحظة شيء هام فى إلحاح شيركوه على نور الدين ، إذ كان يطمع فى امتلاك مصر ليكون مستقلا بها ولو بعض الاستقلال ، لأنه لم يكن فى مركزه الحالى إلا عاملا من عمال نور الدين ، أما إذا امتلك مصر فأنه سيكون ممثله فيها ، فهو مستقل عنه نوعاما. على أى حال من الأحوال وعلى أى غرض أقام دفاعه ، فلقد كان شيركوه الشخص الوحيد الذى وحد قوات مصر والشام وأسس أسرة تحكم الديار المصرية

ما زال شيركوه يسهل الأمر علي نور الدين ويحسن له فتح مصر حتى رضى بتجريد حملة إليها ، وهنا وطد شيركوه العزم وشد الرحال وجهز الجيش وأخذ معه شاورا وابن أخيه صلاح الدين ، وقام نور الدين بنفسه لوداعهم ، ثم بدأ يغزو حدود مملكة القدس حتى لا ينتبه الأفرنج إلى حملته وهى تسير نحو مصر بجوار حدود مملكتهم ؛ وبهذا وصل شيركوه ونازل الضرغام

انهزمت الجيوش المصرية عند بلبيس فتقهقرت إلى جدران القاهرة

وتحصنت فيها ، فاحتل الاكراد الفسطاط ، والضرغام وجنوده داخل القاهرة . احتاج الضرغام الى مال فانقض على أموال الأوقاف وأخذها ، فلم تلبث الناس أن انفضوا من حوله ، وصادف أن بعُد عنه الخليفة ، وكذلك الجند ، وتركه من كان حوله إلا القليل من حرسه ؛ وبعد يوم واحد فاجأه الخبر بدخول شاور المدينة ، فركب الضرغام ، وطاف الشوارع من باب زويلة ينادى على من نصروه أولا ، فما كان جوابهم له الا السب والشتم ، وما زال يسير حتى جمح به جواده أثناء سيره وسط الزحام ، فالتى به قريباً من جامع السيدة نفيسة ، فقطع القوم رأسه ، وحملوه إلى الخليفة ؛ وبذلك تمكن شاور من الوزارة

جلس شاور على سرير الوزارة المصرية ، واحتال حتى جعل شيركوه وجنده خارج القاهرة ، ثم امتنع عن تنفيذ ما تعهد به ، لأنه رأى أن استقلاله مهدد ما دام شيركوه وجيشه فى جواره . بيد أن ما اندفع فى تقديمه من الوعود بلا أناة ولا تروٍ فى دمشق قد سجل عليه ، فأرسل شيركوه ، ذلك الرجل المنيد ، ولد أخيه صلاح الدين لاحتلال بلبيس والشرقية ، فكان هذا سبباً فى أن يولى شاور وجهه نحو أملريك كما فعل سلفه الضرغام . قام أملريك الذى كان يرى الخطر محدقاً به إذا امتلك نورالدين مصر ، وأرسل نجدة قوية إلى شاور ، وهى النجدة التى كان يريد إرسالها للضرغام ؛ وبهذا أصبح العدو صديقاً ، والصديق عدواً ؛ وما الحياة والناس إلا هذا ، أصدقاء لمن وجدوا فيه المنفعة ، وأعداء لمن انتهى غرضهم منه ؛ لا أخلاق ولا شعور ولا ضمير ؛ ليست إلا المصالح الشخصية ،

والاغراض النفسية ، فى هذه الحياه المرة المتلونة بتلون أهلها ؛ لا صفاء ولا وفاء ؛ لا دين ولا عهد ولا ميثاق ؛ هكذا أفسدت المطامع أخلاق الأفراد ، فانجر الفساد إلى الأمم

وصلت نجدة الأفرنج إلى مصر ، وتحصنت الجنود النورية فى بلبيس ، وظل النزال بين الفريقين نحواً من ثلاثة أشهر ، قام فى آخرها نور الدين بمنازلة الأفرنج فى بلادهم بفلسطين والشام ، فاستولى على حارم وحاصر قلعة بنياس ، فكان من واجب أملريك العودة لخلاص ملكه ، وتاق شيركوه إلى الخلاص من موقفه الذى صار حرجاً إلى النهاية ، فقد قلت الذخيرة عنده ، ومل طول الحصار ؛ فاتفق الفريقان على الصلح بأن يتخلى كل منهما عن أرض مصر . قال ابن الأثير يصف خروجهم « وحدثنى من رأى أسد الدين شيركوه حين خرج من بلبيس ، قال ، أخرج أصحابه بين يديه ، وبقى فى آخرهم ، وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم ، والمسلمون والأفرنج ينظرون إليه ، قال ، فأتاه إفرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر ، فقال له ، أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والافرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك فلاتبقى لكم بقية ؟ فقال شيركوه ، ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ماأفعله ؛ كنتُ والله أضع السيف فلايقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم ، فنملك بلادهم ونهلك من بقى ، والله لو أطاعنى هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا »

ترك الفريقان جميعاً البلاد ، فأمكن الأفرنج للشاميين فى الطريق ،

وعلم بذلك شيركوه فتحول عنهم ، وفى ذلك يقول عمارة الشاعر

أخذتم على الأفرنج كل ثنية وقلتم لأيدى الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جسرا فأنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر

انتهت الحملة على مصر من غير نجاح فى رأى بعض الحربيين ، على أنها فى نظر الحربى المطلع فقد تكون غاية فى النجاح والفلاح ، لأنها مكنت شيركوه من معرفة البلاد وطرقها وأهليها وإمكان غزوها ومقدار نفعها لنور الدين إذا ما اتصلت بملكه ، فلقد قال عنها لنور الدين إنها من غير رجال ، وإن حكومتها على الدوام قلقة غير ثابتة ، وإنها ضعيفة واهنة ، وإن ثروتها وخصب تربتها مما يُطمِع فيها

قام شاور بعد هذا وتقرب من الأفرنج ، فبعثوا له تجريدة أقامت فى الأراضى المصرية . وألح شيركوه على نور الدين فى غزو مصر مرة أخرى وأقر هذا الغزو الخليفة العباسى فى بغداد . وإلى هذا يشير صاحب كتاب القدس بقوله ما ترجمته « فأرسلا ـ أى نور الدين وشيركوه ـ لخليفة بغداد بما يعود على الأمة الأسلامية من محو الخلافة الفاطمية ، وتوحيد المسلمين تحت الخلافة العباسية ، وما يحصلون عليه من استيلائهم على مصر تلك البلد الغنية التى انغمس أهلها فى الملذات وأنواع النعيم حتى صاروا على ضعف لا يمكنهم من أن يبدوا مقاومة ما ؛ قبِل الخليفة هذا دون أن يهتم بأضافة بلد غنية إليه ، إنما كان جل همه أن يعيد الوحدة الاسلامية إلى حالها مرة ثانية »

ومهما يكن فقد تجمعت هذه الأسباب عند نور الدين ، فأعد

الحملة ، وبدأ شيركوه المسير بألفى رجل من خيرة رجال نور الدين ، متخذا الصحراء عن طريق وادى الغزلان حتى لايلتقى بالأفرنج ، فأصابته ريح شديدة أثارت عليه رمال الصحراء ، ولكنها لم تعقه عن سيره كثيراً فوصل إلى إطفيح التى لاتبعد عن القاهرة جنوبا إلا بنحو أربعين ميلا ، وسار منها حتى وصل الجيزة وعسكر فيها ، وقام على الشاطىء الأيسر جند الملك أمورى ، ولم يشأ أن يشتبك فى حرب مع عسكر الشام حتى تُمضى المعاهدة بينه وبين الخليفة الفاطمى نفسه ، وهى التى تقضى بأن تدفع مصر خراجاً سنويا للقدس ، وتكون بذلك تحت حمايتها ؛ فلما انتهى التوقيع عليها ، قام أملريك ليلا ، وعبر النيل على مراكب أعدها لذلك دون أن يعلم بأمرها شيركوه ، الذى عند ما تنبه إلى حركة الافرنج أسرع بجيشه نحو الصعيد ، فتبعه أملريك ، وسار الجيشان حتى وصلا إلى مكان يعرف بالبابين ، وفيه قامت معركة كبيرة انتصر فيها شيركوه انتصاراً عظيما بحسن ما قام به هو وصلاح الدين ، فإن هذا أخذ على عاتقه قيادة القلب واتبع فى عمله خطة التقهقر ؛ فتبعته الجيوش المتحدة ؛ فانقض عليهم شيركوه ورجع عليهم صلاح الدين ؛ فانكسروا شر انكسار ؛ ويقول الامير على فى كتابه عن هذه الموقعة « قد ثبت شيركوه لاعدائه وانتصر عليهم انتصاراً تاماً قال فى وصفه المؤرخ الفرنساوى ميشود إن هذا الانتصار دل على مهارة حربية فائقة »

ورغماً من هذا النصر فأن شيركوه لم يرغب فى اقتفاء أثر أعدائه ؛ فلم يتبعهم إلى القاهرة ؛ بل تخطاها وذهب رأساً إلى الاسكندرية ، وأقام فيها

ابن أخيه صلاح الدين حاكما عليها ، وهذه أول مرة كان فيها صلاح الدين أميراً وعاد إلى شيركوه بنصف قوته إلى الصعيد

اتفق رأى الافرنج والمصريين على محاصرة صلاح الدين ، بعد أن علموا أن أسطولا صليبياً وصلها ، فقام صلاح الدين بالدفاع عن المدينة ، وأظهر فى خلال دفاعه من المهارة ما بهر العقول ; واجتذب قلوب السكان نحوه بما رأوا فيه من الشجاعة والاقدام والصبر فى منازلة المحاصرين ، وأرسل فى الوقت نفسه إلى عمه يستنجده ، وكان إذ ذاك فى قوص ، استمر يدافع عن المدينة ، ويقاوم العدو ، حوالى سبعين يوماً ، ولم يتزحزح الافرنج عن حصار المدينة إلا بعد أن علموا أن شيركوه يحاصر القاهرة من بركة الحبشة ، وبهذا اتفق الفريقان على الصلح والانسحاب من مصر وتركها ، وعدم التداخل فى أمرها . على أن بعض الروايات تشير إلى وجود شرط من شروط الصلح يقضى بأن يبقى أملريك شحنة له بمصر ليرجع إليها أمر المقيمين فيها من الافرنج ، وأن يأخذ منها ضريبة سنوية ؛ غير أن المطلع على السبب الذى دعا أملريك للصلح لا يصدق هـذه الرواية ، لان أملريك ما رغب فى هذا الصلح إلا بعد أن علم أن نور الدين يُنزل ببلاده النزلات القاسية ويستولى عليها بلدة بعد أخرى

ويقول استانلى لين بول إن صلاح الدين ، قبل مغادرته مصر ، مكث عدة أيام فى معسكر أملريك ، تحفه الجلالة ويحوطه الأكرام ، وقد يتبادر إلى الذهن أنه كان وديعة لا ضيفاً

وعلى أى حال فلابد أن يكون صلاح الدين قد انتفع من وجوده

هناك ، حيث تمكن من الاطلاع على نظام الجند لدى الافرنج

غادر الجيشان مصر وفى نفس كل منهما مطمع خاص ، وأصبحت البلاد طعمة لمن غلب منهما

سار أملريك وفى جنبه روح تتوق إلى مصر وسلطانها ، فلا يبيت الا على ذكر عرش مصر ، بعد أن أخبره مندوبوه بما رأوا من آيات العظمة والجلال فى قصر الخليفة عند ما وقع لهم على محالفتهم ، وصفوا له ما بهره وعظم أمر مصر عينه ، لا من جهة المركز السياسى فحسب ، بل من جهة ثروتها وغناها وعظمتها . غير أن وجوده فى مصر مكنه من أن يدرك الفرق بين غنى مصر وفقر فلسطين ، وأن يميز بين خصب الأولى وجدب الثانية « ومع أنه لم يكن يهتم بأمر الكنيسة كثيراً ، وهى التى كان يحميها — كما يقول صاحب كتاب القدس — فأنه كثيراً ما كان يقارن القدس بمكة ويقول : حينما كانت مكة هى المكان المقدس للمسلمين ، كانت بغداد ومصر هما المركز السياسى لها فلِمَ لا تكون مصر للقدس كبغداد لمكة ؟ ولم لا يجلس خليفة المسيح فى ذلك القصر الفخم وراء ستائره المزركشة بالذهب ، ويلبس تلك الحلل الأرجوانية من سندس وحرير ، تحرسه غلمانه وتحف به حاشيته ، فى حياة ملئها الهدو والسكينة ؟ ولم لا يستظل بظل أشجار هذه الحدائق الغناء ، ويمتع نفسه بتلك الروائح الزكية المتصاعدة من أزهارها ورياحينها ، ويتحف حياته بنعم السماء التى ينعم بها المسلمون فى هذا البلد الأمين ؟ » أى كما هو حال خليفة المسلمين فى بغداد

هذا الطمع غير من مصر تغييراً فجائياً ، ذلك أن أملريك لم يرض

البقاء حليفا على حسب ما نصت عليه تلك المعاهدة ، بل سرعان ما كاتب أمبراطور الأغريق فى أن يساعده على غزوها ، وجره طمعه إلى عدم انتظار المدد الاغريقى ، فقام بجيش زحف به على مصر ، وواصل سيره حتى احتل بلبيس ، ولم يكتف بأن نكث عهده مع المصريين ، بل فتك بالسكان فتكا ذريعا لا يقل فى بشاعته وشناعته عما كان يأتيه الصليبيون الأولون فى أرض سوريا ، وإليك ما قاله صاحب كتاب القدس «وعلى هذا سار فتيان القدس وما حولها من المدن واستولوا على (بلبيس) بعد مسيرة عشرة أيام فى الصحراء ، فى طريق قد عرفوه من قبل ، ولم يقاوم أهل بلبيس إلا مقاومة ضعيفة مكثت ثلاثة أيام ، استولى الافرنج بعدها عليها ، وذبحوا كل طفل وامرأة ورجل وقع فى قبضتهم»

رأى شاور هذا الحال فأدرك الخطر اللاحق به ، وأخذ يكاتب أملريك يسائله فى سبب حملته هذه ، فادعى أن ما يدفع إليه من المال قليل ، فطلب شاور منه الانتظار ريثما يجمع له ما يطلب ، وأمر فى الحال باحراق الفسطاط حتى لا يحتلها الأفرنج ، وأخذ يماطله ، وكاتب نور الدين فى الوقت ذاته . وقد اختلف المؤرخون فيمن كاتب نور الدين ، أهو شاور أم الخليفة ؟ والظاهر أن الخليفة هو الذى قام بالمكاتبة هذه المرة ، لان حالته كانت سيئة لاسيما إذا قدرنا ما تحمله من حلف اليمين بنفسه ويده عارية لمندوبى أملريك فى المحالفة السابقة الذكر فأنه اضطر إلى ذلك اضطراراً شديداً ، كاتب الخليفةُ نورَ الدين وأرسل مع الكتب شيئا من شعور نساء القصر دليلا على شدة الحاجة ، وقال له فى كتابه — كما يقول ابن الاثير — «هذه

شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الافرنج » وإرسال الشعر من المرأة المسلمة من أكبر علامات التوسل والتضرع ، وأقوى الأدلة على ما هى فيه من كرب وبلاء

ومهما يكن من شىء فقد أخذ الخوف من شاور كل ما أخذ ، فلم يجد فى رجاله من يصد هذا التيار الجارف ، وملكت مصرَ الدهشةُ والحيرة حتى فقدت صوابها فلم تعرف ماذا تصنع . على أن شاوراً كان يعلم مقدار جشع الملك أمورى وحبه للمال ، فأرسل رسله إليه ليتفق على مال يقدمه ، على شرط أن يوقف زحف جنوده وتقدمهم حتى لا يمتنع الشعب عن دفع ما يطلب منه ، ثم عرض على الملك مبالغ من المال مختلفة كل مرة يزيد فى مقدارها . كل هذا يدور سراً بين الملك وشاور ، وهذا يطيل فى المراسلات والأخذ والرد حتى يكسب الوقت ريثما تصله نجدات الشام . ألح الافرنج على ملكهم فى التقدم فأخذ يسيرُ بهم ببطء حتى يحصل على المال الذى اتفق عليه مع شاور الذى كان قد دفع له منه جزءاً ، فلما قارب القاهرة ألح عليه شاور فى ألا يتقدم أكثر من ذلك مخافة أن يكف الناس عن دفع المال ، فوقف الملك على بعد خمسة أميال من القاهرة ، وانتهى الحال به إلى الوقوع فى الفخ الذى نصبه له شاور

استولى الملك على الجزء الأول من كنزه الذهبى الذى ما كان يحلم باقتنائه يوماً ما ملكٌ من ملوك الغرب إذ ذاك ، وظن أنه بهذا الكنز يستطيع أن يجلب الجند من أوروبا للقضاء على قوة المسلمين ، ويستولى على دمشق وغيرها ، ويسترد مافقده الافرنج فى آسيا ، ويستولى على مصر

نفسها ، فيكون قد ضربها بأموالها فيضع يده على ملكها الواسع من غير أن ينفق فى سبيله درهماً واحداً من دراهمه

بيد أن هذا الحلم اللذيذ قد طرده موقظ فظيع ونبهه منبه مرعب ، ذلك أن نور الدين علم بأمر الحملة على مصر، ووصلته كتب الخليفة وفيها شعور النساء كما قدمنا ، فرأى الفرصة سانحة للعمل ضد الأفرنج فى كل جهة ، فأرسل شيركوه إلى مصر للاستيلاء عليها فى الباطن هذه المرة ، ولمساعدة الخليفة الفاطمى فى الظاهر

وصل شيركوه إلى مصر ، وقد اصطحب من خيرة الرجال عدداً كبيراً قدره استانلى بألفين من الفرسان ، ومعهم ستة آلاف من المرتزقة من التركمان ، واختار لمعاونته عدداً عظيما من الأمراء ؛ على أنه لم يمتنع من الذهاب ممن اختار من الأمراء سوى صلاح الدين ؛ وعجيب هذا الامتناع مع أنه قد كان اليد اليمنى لشيركوه فى المرتين المتقدمتين ؛ ذلك ما يقوله استانلى ليبرر ما قاله من أنه امتنع عن المجىء ليتمتع بحياة الهدوء والسكينة

وصل شيركوه إلى مصر ، فأزاح شاور الستار عن نواياه ، وقلب للملك أمورى ظهر المجن ، فكاد يتميز من الغيظ ، وفك خيامه وأقفل راجعاً تسبقه الخيبة ويلحقه العار ويحف به الفشل من كل جانب ، فلاقى شراً وبيلا جزاء طمعه وجشعه ؛ وفى هذا يقول غليوم الصورى المؤرخ الذى كتب عن الحروب الصليبية ، طبقاً لما ورد فى كتاب القدس « إيه أيها الجشع الأنسانى ، والشره الآدمى ! لقد كانت كنوز مصر كلها تحت أقدامنا ، وكان الأمان والسلامة والهدوء متوفراً لأولئك الذين يفدون

علينا من أوروبا عن طريق البحر ، وكان باب التجارة مفتوحاً لأولئك الذين يرغبون فى ثروة مصر ، وما كان لنا عدو فى جهاتنا الجنوبية ، وكان المصريون على استعداد تام لاحضار بضائعهم وخيرات بلادهم إلى أسواقنا فيصرفون ذهبهم فى بلادنا ، على أن هذا قد ذهب وضاع ، بل تبدل وتغير فحل الحزن والشقاء محل السرور والنعمة ، فأصبح البحر يأبى علينا ملاحة مطمئنة ، وصارت البلاد التى تحيط بنا تطيع عدونا ، وتسلحت كل مملكة لحربنا وتدميرنا ؛ كل هذه النتائج المحزنة السيئة جاءت من وراء جشع رجل واحد وطمع فرد من أفرادنا »

علم أملريك بقدوم شيركوه ، فأراد أن يقطع عليه طريق اتصاله بالمصريين ، ولكنه فشل كل الفشل ، فاستجمع قوته وذهب من حيث أتى ؛ وكان ذلك فى ربيع الثانى سنة ٥٦٤ هـ (يناير سنة ١١٦٩ م) وكان هذا الحال ـ كما يقول استيفن سن ـ نتيجة خاسرة لحملة جنونية

وصل شيركوه وخيم بعسكره هذه المرة أمام القاهرة بعد أن حياه الأهالى وشكروه شكر الغريق لمن نجاه ، والعليل لمن داواه ، والمحتاج لمن أعطاه ، واستقبله الخليفة بالحفاوة والاكرام ، وشكر له جميلا أداه ، ويقال — كما فى كتاب الروضتين — إن الخليفة قد زار شيركوه فى خيمته متنكراً وأمر له قتل شاور

ذهب شاور لزيارة شيركوه فأفسح له المجلس ، وتقبله قبولا حسناً ؛ بيد أن كلا منهما أضمر السوء لصاحبه ، وصار شاور يذهب كل يوم فى خيله ورجله لزيارة شيركوه ، يدخل عليه خباءه من غير استئذان

أراد شاور أن يقيم وليمة لشيركوه وأتباعه ، ثم يغدر بهم جميعاً ؛ وهي فعلة اعتادها كثير من الأمراء والحكام ؛ على أن ولده الكامل نهاه عن ذلك وقال له « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن شيركوه ، فقال له أبوه ، والله لئن لم نفعل هذا لنقتل جميعاً ، فقال صدقت ، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الافرنج ، فأنه ليس بينك وبين عدو الأفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور لم يرسل معه فارساً واحداً ، ويملكون البلاد ، ثم قال لأن يكون لنا أمير مسلم خير من أن يكون لنا صديق إفرنجي ، فأن هذا لا يلبث أن يصير عدواً ، أما ذاك فلايكون إلا صديقاً حميما ومخلصاً أميناً وفياً

غير أن شاور وهو يفكر في هذا الغدر ، كان أمراء شيركوه يريدون الخلاص من شاور هذا ، ليأمنوا على أنفسهم من مكره وخداعه ، وهم لم ينسوا حاله معهم أولا وثانياً ، كما أن الخليفة الفاطمي أراد كذلك الخلاص من شر رجل كانت حياته على البلاد خطراً ووبالا ؛ وعلى هذا يصح القول بأن كل هذه الميول تآلفت فتضافرت وتناصرت على الفتك بشاور

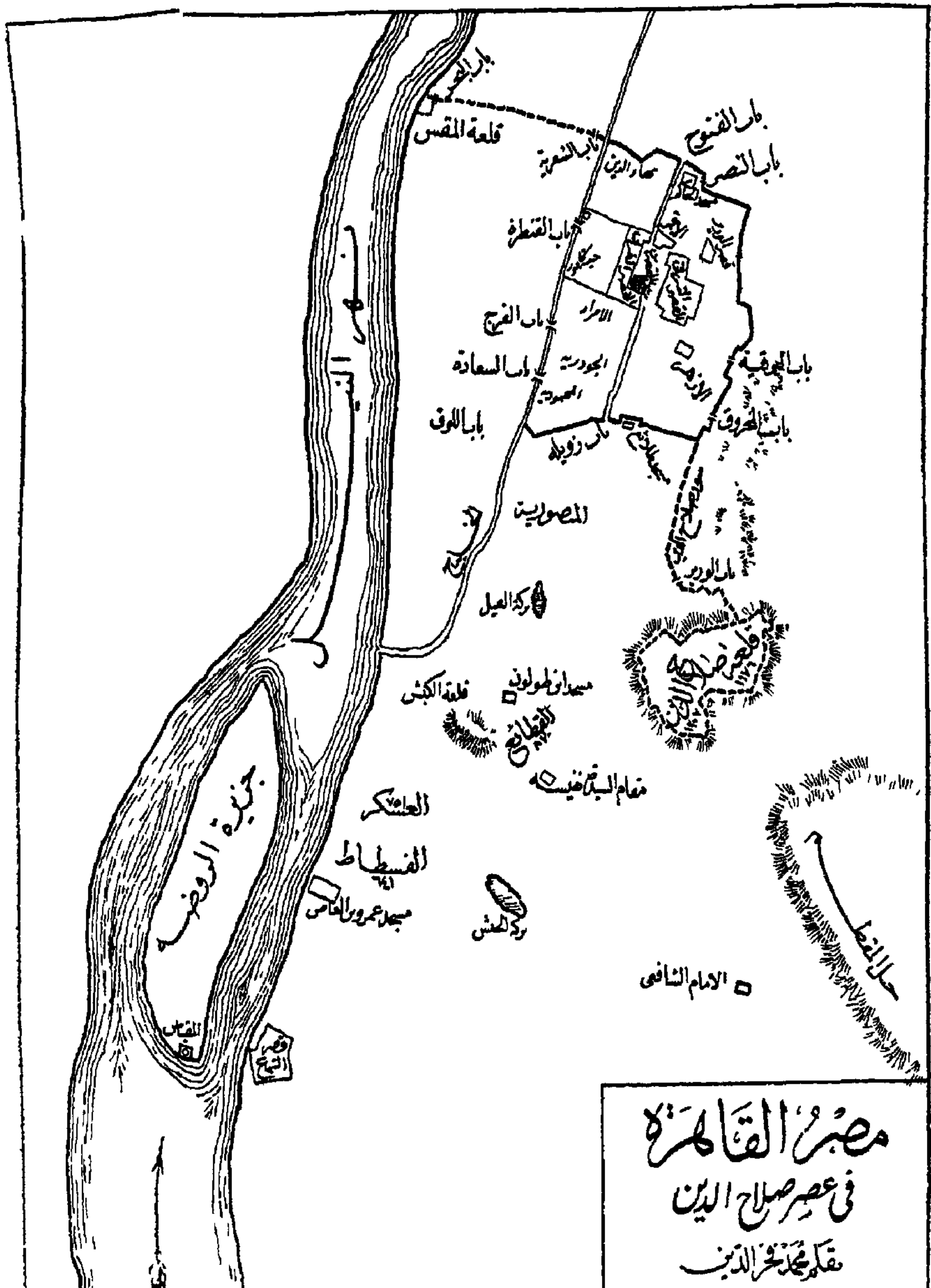
فبينما هو ذات يوم في زيارة لشيركوه الذي كان قد غاب أو تظاهر بالغياب عن خبائه ليزور قبر الامام الشافعي أو ليتروض على جسر النيل، إذ قام صلاح الدين وبعض الأمراء الآخرين وركبوا مع الوزير شاور حتى أبعدوه عن رجاله ؛ ثم ألقوه على الأرض وكبلوه ، وأرسلوا للخليفة فأبى إلا أن يُقطع رأسه ، ففعلوا وأرسل إليه ؛ وبهذا أُسدِل الستار على حياة

هذا الرجل الذى جر مصائب كثيرة على الديار المصرية ؛ ويصح أن يكون سبب انقراض الدوله الفاطمية

استدعى الخليفة العاضدُ لدين الله أسد الدين شيركوه ، فركب إليه ورأى من اجتماع الناس ما خاف منه على نفسه ، فقال لهم « الخليفة العاضد يأمركم بنهب دار شاور » فتفرق القوم إليها لنهبها ، أما هو فدخل القصر فلقيه العاضد وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ثم أخرج له مرسوماً عليه بخط العاضد : « هذا عهد لاعهد لوزير بمثله ، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلا لحمله ، والحجة عليك عند الله فيما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا « صبح الاعشى »

خرج شيركوه من القصر إلى دار الوزارة ، وهى التى كان يقيم بها شاور ، فلم يجد فيها مقعداً يجلس عليه ، لأن الناس قد نهبوها عن آخرها وبهذا استولى شيركوه على مصر هذه المرة دون أن يسفك فيها قطرة دم واحدة ، وكانت هى القاضية على آمال الافرنج فى مصر

أخذ شيركوه يرتب أمور الدولة ، فوضع من يثق بهم فى الأعمال ، على أن أجله لم يمهله كثيراً ، ففارق الحياة يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة (٢٣ مارس سنة ١١٦٩ م) بعد أن مكث يدبر الأمور خلال هذه المدة القصيرة ، وصلاح الدين مباشر



قلعة المقس
باب الفتوح
باب النصر
باب الشعرية
باب القنطرة
باب الفرج
باب السعادة
باب اللوق
باب زويلة
باب المحروق
المصوارية
الأزهر
بركة الفيل
ميدان طولون
قلعة الكبش
القطائع
مقام السيدة نفيسة
العسكر
الفسطاط
مسجد عمرو بن العاص
بركة الحبش
الإمام الشافعي
جزيرة الروضة
المقياس
مصر القاهرة
فى عصر صلاح الدين
بقلم محمد فخر الدين

للأعمال مقرر لها ، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته وحسن رأيه وسياسته كما يقول ابن شداد . ويقول ابن خلدون « ولما احتضر شيركوه أوصى طواشية بهاء الدين قراقوش فقال له : الحمد لله الذى بلغنا من هذه الديار ما أردنا وصار أهلها راضين عنا ، فلا تفارقوا سور القاهرة ، ولا تفرطوا فى الأسطول »

وفى موته يقول استيفن سن ما ترجمته : « إن الخدمات التى أداها عمل شيركوه للإسلام والمسلمين لجديرة بأن يكتبها التاريخ على صفحاته بأحرف من الذهب ، لأنه بعد عشرين سنة من توليته أمر مصر عادت مدينة القدس الى أيدى المسلمين ، كما عاد كثير غيرها من البلاد التى كانت بيد الأفرنج ، ولأنه كذلك لم يسترح يوماً واحداً من الحروب ؛ ولقد كان ذا نظر بعيد فى الأمور ، يضع الخطط لنفسه فلا يغيرها ، بل ينفذها بكل جسارة وإقدام ، ولو مات قبل موته بستة أشهر لكان مصابه أليماً ورزؤه جسيما على نور الدين وأهله وبلاده ، ولكنه مات بعد أن أنهى ما علق فى عنقه واقضت مهمته التى تطاول إليها فأدركها ، تاركا ثمرة جهاده وانتصاراته الى ابن أخيه يوسف صلاح الدين الذى استحق بكل جدارة شرف الوزارة لهذا البطل الكبير »

وقد مدحه العماد بقصيدة منها :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر ... ونلت ما عجزت عن نيله القدر
أصبحت بالعدل والاقدام منفرداً ... فقل لنا أعلىٌّ أنت أم عمر
اسكندر ذكروا أخبار حكمته ... ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
يسرت فتح بلاد كان أيسرها ... لغير رأيك قفلا فتحه

صلاح الدين

حياته العملية

الدور الأول

لو راقب الأنسان أنه فى يد القدرة الألهية تصرفه كيف شاءت ، وأنه ولد الظروف ، تكونه المناسبات على ما تجرى عليه ، وأن ليس له فى نفسه حاضرها ومستقبلها أمر ما ، لما اختار لنفسه أن يكون هذا أو ذاك ، ولما أضاع وقته فى تفضيل طريق على طريق ، ولوجب عليه أن يعمل فيما هو فيه ، تاركا لتموجات الأيام وتقلبات الزمان تقرير حاله التى يكون عليها

إن فى تاريخ صلاح الدين لأكبر برهان على ما قدمنا . يقول ابن الاثير وغيره من مؤرخى العرب إن صلاح الدين جاء إلى مصر فى المرة الثالثة مع عمه شيركوه وهو كاره لمجيئه كل الكره ، وعللوا ذلك بما عللوا ؛ فمنهم من قال إنه خاف غدر المصريين وخيانتهم ؛ وإلى هؤلاء أسوق بعض اللوم على تهمتهم المصريين كافة بالخيانة ، وكان الأجدر بهم ، وهم لايجهلون حالة الأمة المصرية إذ ذاك ، أن يقولوا بخيانة شاور لا بخيانة المصريين ، ولكن هى الأقلام تسير مفرطة فى الألفاظ ؛ فتوقع أمة بأسرها فى تهمة من أشنع التهم ، هى تهمة نكران الجميل والخيانة

والمعتدلون من هؤلاء المؤرخين يقولون بأن سبب امتناعه عن العودة إلى مصر شدة ما لاقى من الحصار فى الاسكندرية فى المرة الثانية ؛ وعندى أن هؤلاء هم أكثر المؤرخين إنصافاً ، لأن الحصار حقيقة كان شاقاً كبيراً مؤلما

ليس يعيب صلاحَ الدين امتناعهُ عن مرافقة عمه فى المرة الثالثة ، فليس من المحتم عليه أن تكون سياسته كسياسة عمه شيركوه فيما يختص بمصر وفتحها ، فقد يكون له سياسة ترمى إلى غير هذه الجهة من الأقاليم الأسلامية الأخرى

ولقد اتخذ المؤرخون إقراره ببغضه لجيشه وإحجامه أولا عن الحصور سبيلا إلى الطعن فى شجاعته وإقدامه وبسالته ، وقالوا من غير مسوغ ولا مبرر إن طباعه وأخلاقه إلى ذلك الوقت كانت طباعا هادئة وأخلاقا لينة

على أن سبب إبائه قد بالغ فيه المؤرخون كثيراً واتخذه نفر منهم مدعاة للطعن على مقدرته فى حياته الاولى ، وعماداً يستندون عليه فى وصف حالته قبل أن يظهر شأنه ؛ وقد كثرت المبالغات حتى تكاد تلمسها اليد ، فقالوا إنه كان فى كل مرة يأبى الخروج إلى مصر ، ولست أرى أمامى برهاناً أقوى لدحض حجة هؤلاء من أن أذكّرهم بموقفه وهم بالقرب من إطفيح فى المرة الثانية حينما انتصر لمن قال بالحرب ، وخالف من قال بالعودة من أمراء شيركوه

والمتتبع لسياسته بعد الاستيلاء على مصر ، ورغبته فى أن يكون حاكمها ، يعلم مقدار هذه المبالغات من الصحة

وعلى فرض أنه أبى المجىء لأى داع من الدواعى التى ذكرت. فبأى شىء نفسر إلحاح عمه شيركوه عليه ، وتمسك نور الدين بوجوب سفره مع عمه ؟ إن قيل لنا إن تشبث نور الدين بمرافقة صلاح الدين لعمه يرجع إلى رغبة عمه نفسه ، وسلمنا بهذا جدلا دون أن نوجه نظرنا إلى الملاقات التى كانت بين صلاح الدين ونور الدين فيما مضى وقبل قيام هذه الحملات ، فبأى مبرر نبرر إلحاح شيركوه وهو عمه وأكثر الناس علماً بأحوال ابن أخيه ؟ أفلا يكون إلحاحه هذا حجة دامغة على كفاءته ومقدرته التى عرفت عنه ؟ وهلا كانت شدة التمسك برحيله راجعة إلى ما أظهره صلاح الدين فى الحملتين المتقدمتين من الكفاءة والدراية

ومهما يكن من تعليل المؤرخين لامتناعه عن الحضور فى المرة الثالثة، فقد كان فيها عزه ومجده وسؤدده وإنتصاره، سواء أكان كارهاً أم راغباً، بل وكان فيها إنتصار الشرق على الغرب وإيقاف السيل الجارف الذى كان ولاشك مهلكة الشرق بأسره ؛ وما كان صلاح الدين يحلم بملك مصر وهو بالشام، بل وما كان من حقه أن يتطاول إلى هذا المركز السامى الذى أدركه بعد زمن قليل ؛ لكن هى الأيام تسير بالانسان إلى حيث قدر له ؛ هذا مع ما نحفظه لصلاح الدين من المواهب الفطرية والذكاء النادر الذى ظهرت آثاره فى أعماله المختلفة

مات شيركوه وأقام له صلاح الدين العزاء ثلاثة أيام ، والخليفة الفاطمى هو وأمراؤه فى شغل شاغل ، يعرضون على بساط بحثهم من يليق للوزارة بعد شيركوه ، باحثين منقبين ؛ وأمراء نور الدين بمصر متنافسون

متسابقون إلى هذا المركز الكبير بوصلاح الدين بعيد عن هؤلاء وهؤلاء قائم بمأتم عمه ؛ وماهي إلا كلمة الخليفة الفاطمي صدرت بتقليد صلاح الدين هذا المركز العظيم ؛ وهنا قامت مرة أخرى قيامة المؤرخين واختلفوا اختلافهم في كل حادث ذي شأن ، فلو لم يظهر صلاح الدين بما ظهر به ، ولو لم يكن من أمره ما كان ، لما تعرض المؤرخون لمسألة اختيار الخليفة له دون سواه لمركز الوزارة

يظن بعض المؤرخين أن الفواطم رأوا في صلاح الدين هدواً وسكينة ولينا ، وطمعوا فيه أن يكون لهم من صغر سنه قوة في إظهار شأنهم وإحكام أمرهم ، فيظهرون يوماً ما عليه وعلى جنده ويخرجونهم من البلاد ، وفي قيام المؤامرة التي كشفها صلاح الدين فيما بعد ، والتي كان يقوم بها أمراء الفواطم أنفسهم تعضيداً لهذا الرأي

رب قائل : كيف يستطيع الخليفة أن يولى صلاح الدين هذا المركز مع أن الخليفة لم يكن له من الأمر من شيء كما هو معروف ، والجواب على هذا سهل جدا إذا راعينا أن الخليفة في ذلك الوقت أراد أن يعتز بصلاح الدين لما رآه فيه من الحكمة والرزانة والشدة أيام وزارة عمه وقيامه بأعباء الاعمال هذه الصفات حببته في الأمير الشاب فقدمه على غيره ؛ وعندي أن هذا هو الذي يمكن الاعتداد به والاعتماد عليه ، لأنه كما يظهر لي هو الرأي الموفق الذي يستطيع به الخليفة القضاء على التنافس القائم بين الأمراء المصريين ، وقد أودى بالبلاد كما تقدم

وغير هؤلاء يقولون إن الأمراء النورية أجمعوا أمرهم على إحلال

صلاح الدين محل عمه ، لقرابته له من جهة ، ولما قام به من الخدمات فى الأيام السالفة من جهة أخرى ؛ ولكن هذا القول يصح الطعن فيه بما ثبت أولا من قيام الفقيه عيسى الهكارى بتسكين ثائرة الأمراء الشامية الذين غضبوا عند إسناد مركز الوزارة إلى صلاح الدين ، وثانياً من عودة بعض هؤلاء الأمراء إلى الشام ، مظهرين عدم الرضى بالخدمة تحت سيطرة صلاح الدين بمصر

كل هذا يوضح لنا أن صلاح الدين كان له من المنزلة ما استطاع به أن يحوز هذا المركز السامى رغم كل معارض ومنافس ، ولم يكن اللقب الذى اختاره له القوم « الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب » قد أعطى له جذافاً من غير استحقاق ، بل قد ظهر أنه جدير به وبأكثر منه ، واليك ما كتبه العاضد فى طفرة (طرة) العهد بالوزارة له « هذا عهد أمير المؤمنين اليك ، وحجته عند الله عليك ، فأوف بعهدك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة ، ولمن بقى بقربنا أعظم سلوة ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » نقلا عن صبح الأعشى

استوزر وعمره ٣٢ سنة بعد أن دربته الحروب ، وأخذ من دروسها أيام مخالطته لنور الدين وعمه شيركوه ما كان سبباً فى رفعته وعلو شأنه وإظهار أمره

قام صلاح الدين فرأى نفسه فى مركز محوط بالفتن والقلاقل ، شاذ

بابه شذوذاً غريباً ، وليس حوله من الأمراء من ينصره ؛ فأحب أن يحوط نفسه بسياج من أهله وذويه ، فأرسل فى طلبهم فجاؤا ، ولما استقر ركبهم فى ساحته . وما استقر إلا بعد حصار دمياط ، كاسيجىء ، « سلك مع أبيه — كما يقول ابن شداد — من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه ، وقال : ياولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له ، ولا ينبغى أن يغيَّر موقع السعادة ، فحكّمه فى الخزائن كلها » وقام إخوته وذووه بمساعدته فى مركزه الصعب الحرج ، فكانوا عصبته التى أعزته ونصرته فى حياته القادمة كلها

رأى صلاح الدين من الحكمة أن يرضى المصريين حتى لا يقوى أمراؤهم بهم عليه ، فأغدق عليهم نعماً كثيرة ، وعاملهم بما وهبه الله من خلة الكرم ولطف الأخلاق ما حببهم فيه وقربهم إليه ؛ ورأى ألا يثير غضبهم ، وهو شيعة قضوا نحواً من قرنين تحت حكم الخلفاء الفاطميين الشيعيين ، وهو سنى تابع الخليفة بغداد السنى ، فأبقى حالهم فى مذهبهم كما كان دون أن يبدل أو يغير ، فكان هذا داعياً آخر إلى حب الناس له والتفافهم حوله وعدم التعرض له ، أو التحرش به ، واكتفى بذكر إسم نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمى على المنابر

أضف إلى هذا ما ناله من الشهرة فى حرب الأفرنج بعد غزوهم دمياط . حيث قام بعد ردهم لمحاربهم فى غزة وغيرها ، واستولى على مدينة العقبة ، وهى مفتاح البحر الأحمر لطريق الحجاج المصريين خاصة والمسلمين عامة إلى مكة ، فكان هذا النصر العظيم والفتح المبين وتأمين

طريق حجاج المسلمين حببه إلى المصريين كثيراً ، فأخذوا منذ ذلك الحين يخلعون غيرتهم وحسدهم ، ويتركون تمسكهم بمذهبهم الشيعى ، فانضموا إلى إخوانهم السنيين ، وراء راية صلاح الدين ، يقاتلون عدو الله وعدوهم جميعاً ، وما أظهره صلاح الدين من القوة والشجاعة والحزم فى صد هجمات الأفرنج فى حصار دمياط ، وما قام به فى تلك الغارات على بلاد الأفرنج ، جعل القوم يعترفون له بالقيادة عليهم ؛ وقد رأى العامة فيه حامياً لهم قوياً ، ومدافعاً عنهم شجاعاً باسلا ، وعلموا أن خطر الأفرنج الذى كان يهددهم على الدوام قد زال بفضل جهاد هذا البطل ، فازدادوا تعلقا به ، وحباً له ، فثبتت قدمه من ذلك الحين ، وأصبح سيد مصر كلها ، وصاروا لا ينتقدون عليه إذا هو ولّى بعض خواصه وأقاربه المناصب المختلفة

ولم يكن حرج مركزه من جهة نور الدين بأقل منه من جهة المصريين فاتخذ الحيطة لذلك ، فلم يحدث أى حدث من شأنه أن يوغر صدر نور الدين فيظن به الظنون . فقوى بذلك مركزه من الجهتين جميعاً . على أنه لم يأل جهداً فى جمع كلمة المصريين ، وإرضاء الخليفة الفاطمى ، ليكونوا له عدة يتقى بها شرور نور الدين ، إذا ثارت ثائرته لسبب من الأسباب .

رأى صلاح الدين فى أسارير وجوه أمراء المصريين علامات الحقد والحسد ، وأحس أن نيران الفتن والخيانة تتأجج فى القصر ، وشررها يتطاير إلى حد بعيد يكاد يهدم بنيانه فى مصر من أساسه ، وما هو إلا أن دبر مؤتمن الخلافة الخصى حيلة للقضاء بها على صلاح الدين ، فكتب إلى الافرنج بالزحف على مصر ، حتى إذا وصلوا وخرج إليهم صلاح الدين ،

قام مؤتمن الخلافة بجموعه ، واقتفى أثره ، فيقع بين نارين ، وفى هذا القضاء المبرم والهلاك كله

كتب مؤتمن الخلافة كتابا ووضعه داخل نعل جديدة وأعطاها إلى رجل من رجالاته ليذهب بها إلى الافرنج ، فوقعت النعل فى يد أحد أتباع صلاح الدين ، وأوصلها إليه ، فعلم الحقيقة لكنه لم يظهرها ، ولم ينتقم من مؤتمن الخلافة حالا ، بأن يقتله مثلا ، مخافة أن تثور ثائرة الناس عليه وهو لايزال يرى أن مركزه غير ثابت ، فما زال يمهله ويطاوله حتى خرج ذلك المؤتمن الخائن يوماً إلى قصر له خارج القاهرة ، فأرسل إليه صلاح الدين من قتله ؛ وعند ذلك قام جند الخليفة السودانيون ، وكانوا حوالى خمسين ألف ، وهم الذين يقول فيهم العماد « ولما قتل — أى مؤتمن الخلافة — هاج السودان وثاروا ، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه

يقول صاحب كتاب الكافى إن سبب قيام مؤتمن الخلافة أن صلاح الدين أخذ فى إذلال العاضد والتضييق فى جميع أموره ، واشتد عليه شدة بالغة فشكى العاضد من ذلك وأرسل إلى صلاح الدين يعاتبه ، فلم يلتفت إليه فكبر الأمر على من بالقصر ، واتفق مؤتمن الخلافة هو وجماعة من المصريين إلى آخر ما قدمنا

وعندى أن هذا يخالف سنة صلاح الدين فى معاملة الخليفة ، لأنه ما كانت قدمه قد ثبتت فى أرض مصر بعد ، وكان من واجبه ألا يثير غضب القوم ، حتى يصبح من القوة بحيث لاتزعزعه عواصف كهذه ، تلك التى

لولا ما قام أخوه شمس الدولة طوران شاه ، لما كان لصلاح الدين ما كان من فوز وظفر

أضف إلى ذلك أن صلاح الدين إلى هذا العهد لم يكن غيَّر على عمال القصر شيئا ، فما استخلف عليه غير مؤتمن الخلافة ، وما غيَّر فيهم وما بدل فكيف يبدأ بالتضييق على الخليفة ؟

وزد على هذا أن صاحب الكافى نفسه يقول فى موضع آخر بعد ذلك عند قدوم الافرنج إلى دمياط مانصه « قال صلاح الدين : ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إليّ مرة لمقام الافرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها » فلو كان الخليفة فى ضيق لما استطاع أن يرسل شيئاً

ولا بد من ملاحظة شيء آخر وهو أن صلاح الدين لم يغير عمال القصر إلا بعد واقعة السودانيين فأقام عليه بهاء الدين قرقوش

ومهما يكن من الأمر فقد قام الجند السودان ، وثار ثائر الأجناد الصلاحية ، ووقعت الواقعة بين القصرين ودامت هناك يومين « ومن عجيب مااتفق — كما يقول العماد — أن العاضد كان يتطلع من المنظرة ، يعاين الحرب بين القصريين ، فقيل إنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا ، وقيل ذلك كان عن غير اختياره ؛ فأمر شمس الدولة الزراقين باحراق منظرة العاضد ، فهمّ أحد الزراقين بذلك وإذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم العبيد الكلاب ، أخرجوهم من

بلادكم ؛ وكانت عزيمة السود مشتدة ، على زعم أن العاضد راض بما يفعلون فلما سمعوا ذلك ضعفت عزائمهم ، وانحلت قواهم ، فانهزموا شر هزيمة »

قد يكون هذا صحيحاً فللحاكم بأمر الله الفاطمى قصة على هذا النحو فى مثل هذا الموقف ، ولكن ذلك لا يمنع من دحض هنا ، لميل الخليفة إلى صلاح الدين من جهة ، ولأن صلاح الدين لم يكن يريد أن يثير عواطف الناس عليه من جهة أخرى ، ولأنه من جهة ثالثة كان يستطيع فى مثل هذا الظرف أن يحظر على الخليفة الخروج إلى المنظرة

على أن الذى فت من قوى العبيد وبدد شملهم قيام صلاح الدين ورجاله بأحراق محلتهم التى كانت تعرف بالمنصورة بالقرب من باب زويله ، وفيها عيالهم وأولادهم ومتاعهم ، فلما سمعوا بالخبر ، انفرط عقدهم ، وذهبت ريحهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فأخذوا وقتلوا تقتيلا ، ومن بقى منهم طرد إلى الجيزة ومنها طوردوا إلى صعيد مصر إلى بلاد النوبة وما زال أخوة صلاح الدين يتابعونهم ويوقعون بهم النكال فى كل مكان رحلوا إليه حتى أبادوهم عن آخرهم وأراحهم الله من شرهم

ولقد كانت مصيبة المدينة من هذه الحادثة فادحة ، إذ قد تحرقت وتهدمت وتخربت بيوت عدة ، وتعطلت الاعمال ، وزهقت الأنفس ، وهكذا كل ثورة من الثورات يخلفها الأذى والخراب

يقول استانلى لين بول إن بقية السودانيين ما زالوا يثيرون الفتن وإخوة صلاح الدين يتتبعونهم حتى أوصلهم طوران شاه وهو فى أثرهم إلى نوبيا حيث استولى على مدينة إبريم بالقرب من كرسكو

وحتى فى سنة ١١٧٤ م ثار ثائر بقية السودانيين فى أسوان بقيادة كنز الدولة ، فقام العادل أخو صلاح الدين وقاتلهم قتالا طويلا حتى تمكن من قتل عميدهم . وفى سنة ١١٧٦ م هبت زوبعة أخرى ولكن قضى عليها وأطفىء لهيبها وهى آخر الثورات التى سمع التاريخ بها عن السود فى مصر

هذا يدل على أن الوجه القبلى كان مسرحاً للثورات مدة ست سنوات يعزو المؤرخون هبوبها إلى السودانيين ، ولكن الأمر الذى لا يشك فيه العقل ولا يتردد فيه الفكر هو أن السودانيين ليسوا هم وحدهم الذين أثاروا هذه الفتن ، بل كان لأعداء صلاح الدين من أمراء الفاطميين دخل كبير ، ذلك لأنه أبعدهم عن الملك والسلطان ، وأحل محلهم قومه ورجال بيته وبنى جلدته ، وفى رأيى أن هؤلاء السودانيين ما كانوا إلا آلة لهؤلاء فى أطماعهم

على أنه ما كاد صلاح الدين ينتهى من طرد هؤلاء من القاهرة حتى قام الافرنج يريدون دمياط ، لعلمهم مقدار الخطر الذى ينجم عن امتلاك نور الدين مصر وتثبيت قدمه فيها ، فأرادوا الاستيلاء على دمياط حتى تكون مركزهم فى البلاد ، ومنها يعدون الحملات على مصر كلها . قام ملك القدس يطلب النجدة من الأغريق الذين كانوا يتخوفون من نور الدين إذا تم له امتلاك الشام ، فيغير على آسيا الصغرى ، ثم يتخطى إلى ملكهم ، فأرادوا أن يوجهوا نظره نحو جهة أخرى ، فقاموا بما طُلب منهم من المساعدة ضده

بيد أن أملريك لم ينتظر وصول المدد الاغريقى إليه ، فأسرع فى

الدهاب إلى دمياط ، وقد أعد صلاح الدين فيها كل معدات الحرب وأدوات المقاومه ، حتى تمكن المصريون من صد هجمات هؤلاء المغيرين ، وانكسر الافرنج أشنع كسرة ؛ ووصل الأسطول الأغريقي الشواطىء المصرية بعد ما قاسى من العناء ما قاسى أثناء الطريق ؛ فعاد الكل بالخيبة والندامة ولم يقع للافرنج فشل كما وقع لهم فى هذه المرة

ويقول استانلى لين پول إن الطبيعة ساعدت المصريين ، فلقد أمطرت السماء حتى ملأت مجرى السيل ، ففاض على السهل حيث تقيم الافرنج فأغرقهم ، كما هبت الزوابع فاقتلعت خيامهم ، فرماهم المحصورون بالحجارة أثناء تخبطهم فى مقاومة الطبيعة .

ومهما يكن من الامر فقد ارتد أملريك خائباً بعد أن أقام بأرض مصر نحواً من خمسين يوماً قاسى فيها هو وجنوده ما قاسى من الجوع والالم ؛ وكان مثلهم فى غزوتهم هده مثل النعامة ذهبت تطلب قرين فعادت بلا أذنين

ويقول استانلى « وليتم الله نصره على المسلمين ، قامت زوبعة بحرية شديدة حطمت ما قد بقى من أسطول الاغريق ، فمات كل من كان عليه ، وطفت جثثهم على شواطىء البلاد التى كانوا قد جاؤا لفتحها »

نعم قد كان للافرنج عذر فى حملتهم هذه ليكسروا هذا القيد الصلب ، فأن الاسطول المصرى تمكن من قطع كل صلة بحرية بين القدس وأوروبا ومنع جماعات الحجاج المسيحيين من أداء الفريضة ؛ وهم الذين كان يستعين بهم ملوك القدس ، فكان فى امتلاك نور الدين مصر قطع كل مدد يجىء إلى الأفرنج من هذه الناحية

وقام نور الدين فى هذا العراك العنيف بأرسال الأمداد إلى صلاح الدين كما قام بشن الغارات على حدود فلسطين ؛ ليخفف الضغط على صلاح الدين وأصبح مركز الافرنج بعد هذه الخيبة حرجاً ؛ حتى ارتضوا لانفسم الدفاع بدل الهجوم

بهذا النصر الذى أحرزه صلاح الدين استطاع أن يأخذ جيشاً يغزو به بلاد فلسطين من جهاتها الجنوبية ، قاصدا بذلك إزالة الرعب الذى كان يستولى على قلوب الجند من نزال الافرنج ، حتى يمدهم بعد ذلك بالجلاد والطعان القادم الذى شعر به من أول يوم استولى فيه على وزارة مصر ، ولأنه كان شديد الرغبة فى طرد الأفرنج من بيت الله المقدس . عاد من غزواته الصغيرة ظافراً منتصراً مستولياً على مدينة العقبة كما أسلفنا ، فالتف المصريون حوله وعظم فى أعينهم أمره

وفى غزواته هذه يقول عمارة الشاعر من قصيدة

غزوا عقر دار المشركين بغزة ... جهاراً وطرف الشرك حزنان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بأرعن ... يفيض إناء البر منه ويفهق
وكانت على ما شاهد الناس قبلهم ... طرائق من شوك القناليس تطرق
وما عصمتهم منك إلا معاقل ... تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما اتقى ... بوادره سور عليهم وخندق
وأخربت من أعمالهم كل عامر ... يمر به طيف الخيال فيفرق
وهيجت للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوق
وغزوك هـذا سلم نحو فتحه ... قريبـاً وإلا رائد ومطرق

هو البيت إن تفتحه والله فاعل ... فما بعـده باب من الشأم مغلق

ثبتت قدم صلاح الدين ، ورأى أن البلاد قد طهرت من الخوارج ، فأراد أن يتقدم خطوة أخرى فى سبيل الاستقلال ، رأى أن البلاد شيعة ، وأن أهلها يبالغ ، فى التشيع ، فليس من شىء يحولهم عن مذهبهم هذا سوى نشر المذهب السنى ، وهو مذهبه ، فأسس مدرستين كبيرتين المدرسه الناصرية والمدرسة الكاملية ، حتى يحول الناس ويمهد البلاد للتغيير الذى يريده . ويقول ابن الأثير فى ذلك ما نصه « كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية ، وأزال ما كان فيها من الظلم ، وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضاً ؛ وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة ، وأقام قاضياً شافعياً فى مصر فاستناب القضاة الشافعية فى جميع البلاد »

ولقد صادفت رغبته هذه الحاح نور الدين عليه بتغيير خطبة يوم الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسى بدل الخليفة الفاطمى ؛ وما كان نور الدين وحده هو الذى يلح على صلاح الدين بذلك ؛ بل كان العالم الاسلامى السنى كله كذلك ; واليك ماقاله العماد مخاطبا صلاح الدين :

رد الخلافة عباسية ودع الـ ... ـدعى فيها يصادف شر منقلب

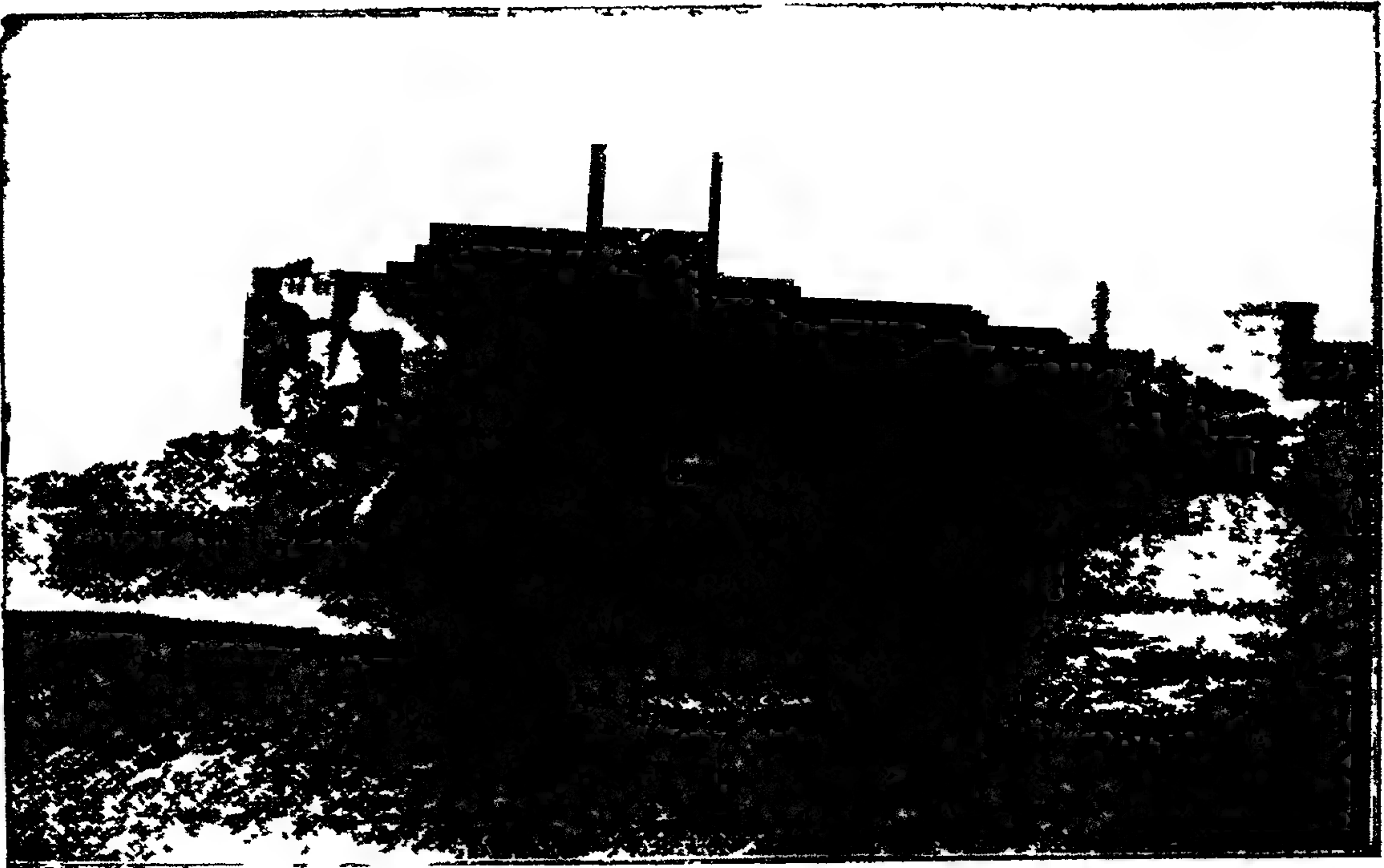
لاتقطعن ذنب الأفعى وتتركها ... فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب

نظر صلاح الدين إلى هذا الأمر بنظر الحازم البصير ، فلم يشأ أن يغير على الخليفة الفاطمى شيئاً حتى يتمكن هو من أمره أولا ، كما أنه رأى فى بقاء العاضد هذا ما يساعده على البقاء فى مركزه ، ورأى كذلك

فى الخليفة العلوى القدرة على معاونته إن أوجبت الحال أن يعادى نور الدين كما وجد فيه عونا له فى تنفيذ مأربه وهو الاستقلال عن نور الدين ، فتباطأ فى الامر ريثما يتم له نشر الدعوة السنية من جهة ؛ ويتمكن من جذب جميع المصريين إلى جانبه من جهة أخرى .

يقول ابن الاثير « وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه بمصر ، وأزال المخالفين له ، وضعف أمر الخليفة العاضد ؛ وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش » إلى يقول « وكتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة المستضيئية ، فامتنع صلاح الدين ، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه ، لميلهم إلى العلويين ؛ وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ؛ ويريد بقاءهم ، خوفا من نور الدين ؛ فانه كان يخاف أن يدخل الديار المصرية يأخذها منه ، فكان يريد أن يكون العاضد معه ، حتى إن قصده نور الدين إمتنع به وبأهل مصر عليه »

فرأى صلاح الدين من الحكمة انتظار الفرص الملائمة ، ورأى من الصواب عدم الظهور بمخالفة نور الدين ، فلما مرض الخليفة الفاطمى ، وكثر الالحاح من نور الدين جمع قومه واستشارهم ؛ وكانت هذه عادته فى كل أمر جلل ؛ فقام من وسط القوم عالم أعجمى يقال له « الأمير العالم » وأخذ على عاتقه القيام بالامر كله ، ثم أخذ سبيله إلى المسجد ، وخطب للخليفة العباسى ؛ فأمر صلاح الدين أتباعه بعدم إخبار الخليفة الفاطمى ، وقال لهم : إن عوفى فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن تفجعه



القلعة

يمثل هذه الحادثة قبل موته ، وقوبلت الخطبة بسكون وهدوء عجيب « ولم ينتطح فيها عنزان » كما يقول ابن الأثير . غير أن بعض الروايات تقول إن الخليفة العاضد علم بالخطبة لغيره فاغتم فمات. على أى وجه فسرها المؤرخون ، فقد توفى العاضد ، وبوفاته انقرضت دولة كانت لها يد كبيرة فى الحضارة الأسلامية ، فأن آثارها التى خلفتها تدل على مبلغ الرقى الذى وصلت إليه

ولقد كان من سياسة صلاح الدين نحو الفاطميين أن يستبقيهم حتى يستعين بهم على نور الدين كما أسلفنا ، لأنه يعلم مقدار حرص نور الدين على ملكه من جهة ، ولأنه ما كان يريد أن يثير غضب المصريين من جهة أخرى ، لذلك تكدر لموت العاضد كدراً شديداً ، وذلك يفسر لنا سياسة اللين التى اتبعها مع الفاطميين ، وهى سياسة جذب الناس إليه بالمعاملة الحسنة ، والعطايا الكثيرة ، وتجنب كل ما من شأنه أن يهيج عواطف القوم ، حتى اضطر كثيراً لمخالفة نور الدين فى قطع الخطبة عدة مرات، وهو فى أثناء سلوكه هذا يدنى منه أهله وذويه ، ويحلهم محل أنصار الفاطميين فى أمور الدولة رويداً رويداً حتى لايخرج القوم عليه ، فاستطاع فى النهاية أن يكون الأمر كله بيده وبأيدى أتباعه ، وأصبح بموت العاضد فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ (سنة ١١٧١ م) سيد مصر المطلق ، ليس لأحد فيها كلمة سواه

قام صلاح الدين بمأتم العاضد ثلاثة أيام ، وأخرج الخليفة إلى قبره بكل حفاوة وإكرام ، لشدة حرصه فلا تأخذه العامة بالظنون ، ثم بعد

ذلك أمر عامله قراقوش بفتح خزائن القصر ، ففرقها على قومه وأتباعه ، وبذل المال ولم يبخل به ، ولم يأخذ لنفسه من كل ما وجد شيئاً ، وفى ذلك يقول الحكيم عبد المنعم الجليانى من قصيدة :

ملك تقلد سلك الملك منتظما ... وقال للمال هذا منك لى عدل

ففرق المال جمعاً فالقلوب به ... وحسبه فيه إدراك لما سألوا

إن الملوك الذين امتد أمرهم ... لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا

كذا السياسة فالأجناد لو علموا ... بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

أما الجوارى فقد أعتق البعض ووهب البعض الآخر وباع الباقى ، أما أهل العاضد ، وكانوا أحد عشر ولداً وأربع بنات وأربع زوجات ، وأقارب آخرون يربو عددهم على ١٥٢ ، فأنه أخرجهم من القصر ووضعهم فى دار فسيحة ، وأمر عامله بتدبير مايحتاجون إليه ، ووضع الرجال وحدهم والنساء وحدهن حتى لا يتناسلوا . ويقول بعضهم إن المعاملة التى عومل بها أتباع العاضد كانت معاملة مخجلة حتى أدى الحال إلى أن الجيران كانوا يرمون الخبز رمياً من فوق الأسطح لهم ، وفى اعتقادى أن هذا بعيد على صلاح الدين الذى كان يرى كل شىء بنفسه ، وبرهان ذلك قول استانلى « فكان مغدقاً عليهم النعم مصرحاً لهم بكل الملاذ إلا ما يدعوا إلى التناسل »

أما الكتب فقد كثرت روايات المؤرخين فيها ، فمنهم من يلوم صلاح الدين على عدم الاحتفاظ بها ويقولون إنه بدد من غير مبرر حضارة أمة نالت فيها شوطاً واسعاً ، ولو أنه احتفظ بها لكان منها للعالم

الأسلامي مدنية وحضارة فائقة ، على أن هؤلاء يبالغون ، ناسيين أو متناسيين ما كان عليه القوم من التشيع والمغالاة فيه

أما صلاح الدين فأبه أحضر القاضي الفاضل وأمره باختيار ما هو صالح للأمة والدولة فيحتفظ به ، وما كان فيه التشيع فيحرقه ، ومافيه قليل فائدة يوزعه على الناس ، فتسلم منها القاضي الفاضل ١٢٠ ألف مجلد أما الباقي فباعه وأدخل ثمنه بيت المال

تلك هي الحال التي قضى عليها صلاح الدين أيام وزارته ، فلما مات العاضد وأخلى قصره ، لم يرغب صلاح الدين في سكناه ، بل ظل في بيت الوزارة ، دون أن يبهر نظره جمال القصر أو تأخذه حدائقه الغناء ، لأن هذا كله كان يخالف السذاجة التي كان يتحلى بها في جميع أعماله وأحواله .

رأى صلاح الدين مصر من غير قلعة تحميها من المغيرين ، بعد أن علم مقدار ماتؤديه القلاع في المدن الشامية من الخدمات ، فقد تسلم المدينة دون قلعتها ، فيحتمى فيها المدافعون والأهالى ؛ وقد يكون لهذا أثر في شروط التسليم وتخفيف وطأة العدو المنتصر ، فعزم على بناء قلعة في مصر

وجد أن عاصمة الديار المصرية عبارة عن العواصم التي اتخذها أمراء المسلمين من يوم أن دانت لهم البلاد ، فهي عبارة عن الفسطاط التي أحرقها شاور ، وأخذ أهلها يعيدون بناءها ، والعسكر وهي ما كانت تلى الأولى ، ثم القطائع التي ابتناها أحمد بن طولون ، ثم القاهرة المعزية ؛ فلم يشأ أن يضاعف مساحة البلد باضافة مبان جديدة إليه ، بل فضل إقامة سور حول هذه كلها ، وإنشاء قلعة تحمى ما بداخل هذا السور ، وقد

اتخذ فيها مقاماً له ، وداراً لدواوين حكومته . كذلك رأى صلاح الدين أن فى بنائه هذه القلعة ملجأ يلجأ إليه هو وقومه إذا ثار ثائر المصريين عليهم ، انتصاراً لبقايا الفاطميين ، ولعله اعتقد أن سيكون له فيها درع تحميه نزال نور الدين إن تحرش به

ومع أن من الراجح أن صلاح الدين كان يود لو استقل بمصر عن نور الدين ، فانه لم يجهر بشئ من ذلك بل تجنب كل ما من شأنه أن يشتم منه رائحة الخروج عليه ، فأقام الخطبة له بعد اسم الخليفة العباسى ، وضرب النقود باسمه وأرسل له الهدايا من كنوز القصر ، ذلك فعله حتى لا يرتاب نور الدين فى ولائه له ، وصلاح الدين من جهة أخرى ، يحيط نفسه بسياج الدفاع فاتخذ له من قومه وأهله حصناً ، وأعد له جيشاً ، وتجنب ملاقاة سيده الأسمى نور الدين

لم يكن بد من أن يظهر العداء الكامن بين الرجلين ، فان نور الدين لم يبعث بجيوشه إلى مصر إلا لتكون ملكا خاصاً له ، وصلاح الدين لم يتخذ لنفسه هذه المعاقل والحصون إلا ليستمد بها لما عساه أن يحدث ، وقد كان كلا الرجلين يخادع صاحبه ، ويتحين به الفرص ، حتى جاء الوقت الذى لم يكن بد من أن يقلب كل منهما فيه لصاحبه ظهر المجن

لا شك فى أن أعداء صلاح الدين من أمراء الجيش الذين امتنعوا عن خدمته ، وأبوا الاقامة معه فى مصر ، قد بذلوا جهداً غير قليل فى تحريض نور الدين وإغرائه ، وقد أفلحوا فيما حاولوا ، فارتاب نور الدين فى أن نائبه فى مصر إنما يتربص به الدوائر ، وينتهز الفرص للخروج عليه.

كانت الشوبك بفلسطين شجى فى حلق التجارة بين مصر والشام ، فعزم صلاح الدين على غزوها والاستيلاء عليها ، ولكنه ما كاد يبدأ فى ذلك حتى قفل راجعاً ، مع أن قلعتها كانت توشك أن تقع فى يده ، واعتذر لنور الدين بأن أهل مصر قد ثاروا عليه ، ومصدر ذلك فيما يقول جمهور المؤرخين أنه أحس بقدوم نور الدين ، فاتقاه ، فوغر ذلك صدر نور الدين وأزمع غزو مصر

وصل الخبر إلى صلاح الدين ، فجمع أهل شوراه ، وقص عليهم القصص فلم ينبس أحدهم بكلمة ، وبعد هنيهة أشار أحدهم عليه بالقيام فى وجه نور الدين ، فتكلم والده نجم الدين أيوب مظهراً أن البلاد بلاد نور الدين وما الكل فيها إلا مماليكه وأتباعه ، ثم انفض المجلس على هذا ، أما نجم الدين فأخذ ولده صلاح الدين ولامه على إعلانه هذا الملأ

بيد أن نور الدين قد شغله عن دخول مصر شواغل كثيرة فى بلاد الجزيرة ، فولى وجهه نحوها ، وانتظر الفرص الملائمة مرة أخرى

أما صلاح الدين فانه وجه همته نحو إيجاد مأوى يأوى إليه إن دهمه نور الدين وغلبه على أخذ مصر ، وأرسل أخاه طوران شاه إلى السودان يطارد بقايا السود من جهة ، ويكتب له تقريراً عن أحوال البلاد من جهة أخرى ، حتى يعلم قيمتها من الوجهة التى يريدها

وكانت نتيجة ما رأى أن البلاد السودانية لا تصلح أن تكون مأوى يأوى إليها . وعندى أن صلاح الدين لو أتيح له فتح السودان وضمه إلى القطر المصرى ، وكوّن إمبراطورية واحدة من منابع النيل إلى البحر

الأبيض المتوسط ، وترك من نفســه إلى أمد ما حرب الأفرنج بالشام والاستيلاء على بيت المقدس ربما يتم له الأمر في وادي النيل ، وحول فكرته وهمته نحو تأسيس أمبراطورية قوية ذات سلطان في هذا الوادي ، لكان بهــذا أدى خدمة جليلة للأمة الأسلامية والشرق ، أكبر أثراً وأخلد ذكراً من أن يولي وجهه شطر الشام وفلسطين

على أي حال فقد عاد نور الدين عن عزمه لما وصلته كتب صلاح الدين التي يقول فيها « يرســل المولى — أي نور الدين — نجابا يضع في رقبتي منديلا ويأخذني إليه ، وما ههنا من يمتنع » نقلا عن ابن الأثير

أراد نور الدين بعد زمن يسير أن يختبر حال صلاح الدين ، فأمره بالخروج لغزو الأفرنج بالكرك ، وهي إلى الشمال من الشوبك . وقيل إنهما اتفقا عقب الرحيل عن الشوبك على هذه الغزوة ، وحددا لها اليوم الذي يلتقيان فيه هناك ، وفي ذلك يقول ابن الأثير « وسبب ذلك أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الأفرنج في العام الماضي ، وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه ، أرسل يعتذر ، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين ، فاستقرت القاعدة بينهما أن صلاح الدين يخرج من مصر ، ويسير نور الدين من دمشق ، فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه ، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه » فذهب صلاح الدين وحاصرها ، فلما بلغه قرب وصول نور الدين ، خاف وأخافه أصحابه منه ، فعاد محتجا هذه المرة بمرض والده نجم الدين

فلما وصل إلى مصر وجد والده قد هوى من جواده بالقرب من

باب النصر ، وقضى بعد أيام قليلة ، فحزن عليه صلاح الدين حزناً شديداً وبموته فقد صلاح الدين أكبر عون وأخلص نصير

فألم نور الدين غاية التألم ، واعتقد أن صلاح الدين يحاول العمل منفرداً ، فعزم على تسيير جيش للاغارة به على مصر ، وعزل صلاح الدين ، وأخذ البلاد لنفسه ، فولى ابن أخيه على الشام وأرض الجزيرة ، ولكن المنية عاجلته ، فقضى قبل أن يقضى حاجته

وكان صلاح الدين منذ حين يعمل على ادخار المؤن وغيرها ، وتدريب الجيوش تحت امرة والده ، وكان قد استولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس ؛ وتبين له أن هذه البلاد لا تصلح للدفاع ، إذ من الميسور مهاجمتها من البر والبحر ؛ لذلك ولى وجهه نحو بلاد اليمن ، وسبب ذلك أن عمارة اليمنى الشاعر المشهور الذي كان يقيم بمصر إذ ذاك أراد هو وجماعة من شيعة العلويين الخروج على صلاح الدين ، وانضم إليهم بعض من جند صلاح الدين نفسه واتفقوا على مكاتبة الافرنج في الساحل وفي صقلية للوثوب على صلاح الدين ، وأخذ عمارة بما له من حسن الأسلوب في شعره يؤثر في طوران شاه أخي صلاح الدين حتى أغراه على غزو بلاد اليمن ، ومن قوله في ذلك

أقاليم أرض النيل وهي عظيمة ... على كل راج فتحها ومؤمل
متى توقد النار التي أنت قادح ... بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين ... وصنعاء من حصن حصين ومعقد
وتخلق ملكاً لا يحيل بفخره ... على أحد إلا على عزمك العلي

وقوله من أخرى :

فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به   إلا سواك وأور النار فى العلم

إلى غير ذلك من الأقوال التى تثير الهمم ، وقصده من هذا أن يرحل طوران شاه من مصر ، فيبعد عن أخيه صلاح الدين الذى إذا قام لحرب القادمين من الأفرنج قام عمارة ومن معه باحداث ثورة لا يتمكن صلاح الدين حينئذ من قمعها ، ويقع بين نارين نار الثائرين داخل البلاد ، ونار المهاجمين من الأفرنج ، غير أن الأمر قد تبين لصلاح الدين قبل وقوعه بسبب اختلاف المتآمرين فيما بينهم على من يكون الخليفة والوزير ، إذا تم لهم الأمر على ما يبتغون

أما طوران شاه فانه سافر إلى اليمن واستولى عليها وعلى عدن ، وأقام ملكا هناك قويا ، وأعاد الخطبة لبنى العباس بعد ما قطعها المتولى عليها من قبل

ولما وصل خبر المتآمرين إلى صلاح الدين ، أمر بهم فصلبوا ، ولما جيء بعمارة ليصلب ، قام القاضى الفاضل عبد الرحيم ، وكانت بينه وبين عمارة وحشة أيام الخليفة العاضد ، يتوسل إلى صلاح الدين ليخلى سبيل عمارة ، فظن عمارة شراً وقال « لا تصدق يا مولاى ما يقول » فغضب القاضى عبد الرحيم ، وقال صلاح الدين ، « إنما كان يشفع فيك » فلما أخرج عمارة ليصلب ، طلب أن يطاف به على مجلس القاضى الفاضل ، فأغلق هذا بابه عند ما رآه قادماً ، فقال عمارة فى ذلك

عبد الرحيم قد احتجب   إن الخلاص هو العجب

وكأنى بعمارة وهو يصف إنساناً مصلوباً كان قد خرج على الصالح ابن رزيك ، وما وصف إلا نفسه حيث يقول

أراد علو مرتبة وقدر　　فأصبح فوق جذع وهو عال
ومُدّ على صليب الجذع منه　　يمينٌ لا تطاول على الشمال
ونكّس رأسه لعتاب قلب　　دعاه إلى الغواية والضلال

وكان عمارة هذا شاعراً مجيداً يغالى فى التشيع للفاطميين ، وله فيهم أشعار كثيرة ، من ذلك قوله من قصيدة طويلة فى نكبتهم وانقراض دولتهم

رميت يا دهر كف المجد بالشلل　　وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة　　على فجيعتهـا فى أكرم الدول
يا عاذلى فى هوى أبنـاء فاطمة　　لك الملامة إن قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى　　عليهما لا على صفين والجمـل
وقل لأهلهما والله لا التحمت　　فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل
ماذا ترى كانت الأفرنج فاعلة　　فى نسل آل أمير المؤمنين على

إلى أن يقول

مررت بالقصر والأركان خالية　　من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد　　من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت　　رحابكم وغدت مهجورة السبل
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم　　ولا نجا من عذاب الله غير ولى
أئمتى وهداتى والذخيرة لى　　إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
والله لا حلت عن حبى لهم أبداً　　ما أخر الله لى فى مدة الأجل

كان القضاء على هذه المؤامرة فى ٦ ابريل سنة ١١٧٤ فانكمش إفرنج الشام لما علموا من أمر فشلها ، والقضاء على رؤسائها ، ونفى أعضائها إلى الصعيد، وعبسوا عن عزمهم ،ووقفوا على حدود بلادهم موقف المدافعين

أما نور الدين فقد مات فى يوم الأربعاء ٢١ شوال سنة ٥٦٩ هـ (١٥ مايو سنة ١١٧٤ م) فتلمس صلاح الدين نسيم الأمل والحياة ، وقام يجد يخطو خطواته الواسعة نحو ما كانت تطمح إليه نفسه ، فأنه بعد وفاة نور الدين ، التى ما كان يحلم بها ، تمكن من كسر أسطول صقلية ، وهو الذى فاجأ الأسكندرية فى شوال المذكور ، والذى كان قد جاء عقب اتفاق المتآمرين ولم يعلم بفشلهم ، وفى هذا الشهر أيضاً مات الملك أمورى ملك القدس ، وخلفه ولده الصغير الأبرص بلدوين الرابع

بهذه الحوادث التى تلا بعضها بعضاً فى زمن متقارب جداً ، زالت كل عقبة كانت تقوم فى وجه صلاح الدين ، فأصبح دفعة واحدة سيداً للشرق ، والقائد الوحيد لجميع المسلمين فيه ، لا يناضله فى ميدان العمل القادم سوى أفراد قلائل ، هم ولد نورالدين الصغير،وسيف الدين صاحب الموصل ، وهو أكبر أفراد أسرة زنكى فى ذلك الوقت،ثم سلطان سلاجقة الروم . هؤلاء هم البقية الباقية التى يصح أن تقاومه ، ولكن ليس من بينهم واحد يعدله مقدرة وقوة . ولما كان يعتقد أن واجبه هو محاربة الأفرنج وطعنهم طعنة نجلاء تجليهم عن أرض المسلمين ، فقد عمل على توحيد هذه القوى الأسلامية المختلفة بكل ما أوتى من قوة وحزم ، فبدأ دور حياته القادم بتنفيذ هذه الخطة

تلك الحوادث التى مرت من يوم توليه وزارة مصر من سنة ٥٦٤ إلى سنة ٥٦٩ هـ (سنة ١١٦٩ — ١١٧٤ م) كونت السلسلة الأولى من حياته العملية ؛ ومن تلك الحوادث نعلم مقدار ما قام به من التخلص من العبيد وطردهم من القاهرة ، ولقد كانت ثورتهم من أشد الثورات خطراً عليه

كذلك فى هذه المدة استطاع أن يعطى دروساً للأفرنج علمهم أن نار مطامعهم فى مصر بل فى الشرق قد انطفأت ، فأخذوا فى حياة الدفاع عن حدود بلادهم دون أن يجسروا على الخروج منها للهجوم ، كما كانت عادتهم من قبل

ثم انقرضت الخلافة الفاطمية دون أن يتأثر بانقراضها وذهاب أمرها أحد ، اللهم إلا تلك الشيعة التى أرادت أن تقوم فقضى عليها القضاء المبرم

أما صلاح الدين نفسه فأنه ما زال يعمل بسكينة وهدوء ، حتى أنقذته المقادير من يد نور الدين ، الذى لو طال عمره قليلا لما سمعنا إلا تفريقاً فى شمل المسلمين، وحرباً بين الأمير وتابعه ، ذلك الذى ظل يخاطبه حتى مماته بـ(الأمير الاسفهسلار وكذا الأمراء النورية فى مصر يعملون كذا وكذا) إعلاناً منه أن صلاح الدين ليس إلا تابعه كأحد هؤلاء الأمراء الذين كانوا بمصر معه

ومهما يكن من الأمر فقد قام صلاح الدين فى هذا الدور من حياته العملية بكل ما مهد له السبيل للعمل فى الأيام التالية ، وأوجد لنفسه من النفوذ ما أصبح به سيد القوم فى مصر والشام وما والاهما

الدور الثانى

صلاح الدين فى الشام

توفى نور الدين وترك ملكه إلى ولده الملك الصالح إسماعيل ، ولم يكن يبلغ من العمر حينذاك إلا الحادية عشرة ؛ فتولى رعايته وتدبير ملكه شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ؛ فأخذ الأمراء النورية فى الشام يتنافسون ، كل منهم يعمل على إضعاف الآخرين والأيقاع بهم ، والامير الصغير لا يدرى من الأمر شيئاً ، فكان ألعوبة فى يد أولئك الأمراء الذين كانوا إذا رأوا واحداً منهم قوى عليهم، ركنوا إلى محالفة الافرنج

نهض سيف الدين ابن عم الملك الصالح وصاحب الموصل واستولى على ما كان لنورالدين من البلاد فى أرض الجزيرة ، وما استولى عليها إلا بذلك الجيش الذى كان قد طلبه منه نور الدين قبل وفاته ليغزو به الأفرنج، كما يقول نورالدين، وفى نفسه أن يحارب به صلاح الدين فى مصر. استولى سيف الدين على بلاد الجزيرة ، وركن الأمراء الآخرون إلى الاستقلال بما فى أيديهم،فكتب صلاح الدين إلى ابن المقدم والأمراء النورية يعاتبهم على تقاعدهم عن نصرة الملك الصالح ، ووقوفهم جامدين ، وبلاد سيدهم يستولى عليها الطامعون ، ويذكرهم أنهم إن لم ينصروا ابن مولاه، فأنه يحضر

بنفسه ويقتص منهم ومن غيرهم ، ولكنهم أهملوا كتابه ولم يعبأوا به

ولولا ما كان عليه الافرنج فى ذلك الوقت من الانقسام الذى يشابه ما كان عليه المسلمون، لما تأخروا لحظة واحدة فى الاستيلاء على أجزاء مملكة عدوهم نور الدين ، لكنهم كانوا قد فجعوا بموت ملكهم أمورى، وتولى ولده الصغير الأبرص بلدوين كما قدمنا ، فكانت حال المسلمين والأفرنج سواء

طلب الأمير شمس الدين بن الداية والى حلب إلى الملك الصالح الرحيل إليه ومغادرة دمشق ، وأرسل فى ذلك سعد الدين كمشتكين ، فرده أهل دمشق أولا ، ثم عاد إليهم ثانية فرحل معه الملك الصالح ، ولما وصل به إلى حلب قبض كمشتكين هذا على ابن الداية وأولاده وغيرهم من أمرائها وأودعهم السجن ، ثم انحاز إلى جانب الأفرنج ليتقوى بهم ؛ يدلنا على هذا ماقاله صلاح الدين فى كتاب من إنشاء القاضى الفاضل ، أرسله إلى الخليفة المستضىء بالله فى بغداد « وتوافت إلينا الأخبار ، بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب ، والأفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الأسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعماد ، الذين خلقوا للأطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للقعود ، قد مدوا الأيدى والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر ، والنهى عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الأفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً »

على هذا كانت فلسطين والشام مملكتين عظيمتين ، يتولى شئونهما أميران طفلان ، لاقائد يقودهما ؛ فكان من حق صلاح الدين أن يقوم بالغزو من غير توان ولا تأخير ؛ لكنه لما كان غرضه ألا يتعرض للافرنج لخوفه الشديد على ميراث نور الدين وطمعه فيه حتى يقوى بأهله عليهم ، ظل يراقب الحوادث مراقبة دقيقة ، ليثب فى الوقت الملائم ؛ لأنه لم يشأ أن يثير غضب أهل الشام عليه ، خشية أن يعرقلوا أعماله ؛ ولهذا كان على الدوام يكتب إلى الملك الصالح ، فيظهر له خضوعه وخشوعه وولاءه ، فضرب السكة باسمه ، وخطب له على المنابر ، ثم أظهر للسوريين شدة مراقبته وخوفه على مصالح الأمير الصغير ابن سيده وأستاذه

لما انتقل الملك الصالح إلى حلب ، وتغلب كمشتكين على ابن الداية وغيره وسجنهم ، خافه ابن المقدم ومن معه من الأمراء فى دمشق، فراسلوا سيف الدين صاحب الموصل ، وطلبوا إليه أن يعبر الفرات ويقصد بلدهم لنجدتهم ، فأوجس فى نفسه خيفة من ابن عمه الملك الصالح ، وظن أن الأمر خديعة ومكيدة ، وخاف إذا وصل دمشق لأخذها ، قام من ورائه الملك الصالح وغدر به ، فأبى عليهم ماطلبوا ، وما طلبوا حضوره إلا ليكون لهم نصيراً على كمشتكين ، لتوقعهم أنه إن استقر به الحال فى حلب ، عاد إليهم وأوقع بهم ، كما فعل بابن الداية من قبلهم

ولم يقف امتناع سيف الدين هذا إلى حد الأباء فحسب ، بل صالح ابن عمه الملك الصالح ، الذى أقره على مابيده من البلاد التى كانت لأبيه نور الدين ، فخاف أمراء دمشق خوفاً شديداً ، وأدركوا الخطر المحدق بهم.

فراسلوا صلاح الدين وطلبوا إليه الحضور لينقذهم من خطر يداهمهم
ما كان لصلاح الدين أن يتمنى أكثر من هذه الدعوة لتكون مبرراً له عند أهل الشام فى غزوه البلاد ، فلم يتأخر لحظة واحدة ، وأسرع بالمسير ، فاخترق الصحراء دون أن يكترث بوجود الافرنج بينه وبين دمشق ، اعتماداً منه على قوته ، ووثوقاً بنفسه ، علما منه بأحوال هؤلاء بعد منازلته إياهم كما سبق

ويؤخذ من عبارة استيفن سن أنه كاتب خليفة بغداد فى أن يكون سلطان مصر والشام ، ليقوم بحرب الافرنج الذين أهمل محاربتهم أتباع الملك الصالح ، ولم يقفوا عند الكف عن قتالهم ، بل حالفوهم وعاهدوهم

فظهوره بمظهر المدافع عن الاسلام أعانه كثيراً على توالى غزواته فى فلسطين والشام ، فقد جاءت إليه الأمداد من كل حدب وصوب ، وعبارة استيفن سن صحيحة فيما يختص بطلب الولاية ، فقد جاء فى الكتاب المتقدم الذى أرسله صلاح الدين إلى الخليفة ما نصه « وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتحه العزم فى قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه » إلى أن يقول « وإنا لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، فإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما فى الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع

غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء فى خدمتـه ، وهم عاملون بظلمه ، والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقيـة البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسى كل ما تطبقه المهاد ، وهو تقليد جامع لمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليـه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا »

ترك صلاح الدين مصر فوصل بصرى وقابله صاحبها بكل إكرام ، وكان من جملة الأمراء الذين كاتبوه فى المجىء ، رحل عنها إلى دمشق ، فوصلها سلخ ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ (أواخر اكتوبر سنة ١٧٧٤ م) ودخل دار أبيه وجلس فيها قليلا حتى سلمت القلمة ، فذهب إليها واستولى على ما فيها من الأموال والكنوز . وفرقهـا على الأهالى الذين فرحوا بقدومه فرحا كبيراً ، لما كانوا يعرفون عن أبيه وعمه ، وسابق خدماتهما فى بلادهم ، وقد مدحه الشعراء كثيراً ، من ذلك قول وجيش الأسدى

قدجاءك النصر والتوفيق واصطحبا فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد أدنى فريسـته الايام إن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نصـير له فجئتها عامراً منهـا الذى خربا
نادتك بالذل لمـا قل ناصرها وأزمع الخلق من أوطانها هربا
والشام لو لم يدارك أهلها اندرست آثاره وعفت آياته حقبـا

وكان صـلاح الدين يظهر فى كل مكاتباته ومحادثاته أنه ما جاء إلى



نسر على حائط القاعة

ديارهم إلا لنصرة ابن سيده الملك الصالح ، ومن ذلك ماقاله لرسول حلب بعد امتلاكه دمشق « ياهذا ! إعلم أنى ما وصلت إلى الشام إلا لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين » وذاكراً للناس أنه لو لم تفاجئ المنية نور الدين لأعلن للناس أنه أدلى إليه بابنه الملك الصالح ليكون فى كنفه ، وموضحاً لهم أنه هو وحده القادر على حماية ملك نور الدين ، والتغلب على الأفرنج ، إلى غير ذلك مما جعل أهل الشام لا يعارضون فيما يفعل ، بل تقدموا إليه بالمساعدة التى طلبها

أقام فى دمشق قليلا حتى رتب شئونها ، وسلمها إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين ثم انحدر منها إلى حمص فملكها دون قلعتها ، فترك من يحاصرها ويحفظ المدينة ويدبر شئونها ، وسار منها إلى حماه ، وكان الوالى عليها الأمير عز الدين جورديك أحد أولئك الذين كانوا معه فى الحملة الثالثة على مصر ، ولم يشأ أن يخدم تحت حكمه ، امتنع جورديك أولا ، فأعلمه صلاح الدين أنه إنما جاء ليحفظ البلاد من الأفرنج ، ويسترد ما استولى عليه صاحب الموصل من البلاد النورية ، وأنه فى طاعة الملك الصالح ، فسلمه المدينة مستخلفاً على قلعتها أخاه ثم قَبِلَ أن يكون رسولا لصلاح الدين إلى كمشتكين فى حلب يطلب منه فك الأسرى وإطلاق المسجونين وعدم العمل على تفريق كلمة المسلمين ، فأخذه كمشتكين وسجنه مع من سجن من قبل ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين ، فرحل هذا بعد

تسلمها إلى حلب الموجود بها الملك الصالح ووزيره كمشتكين . رأى أصحاب حلب ألا قِبل لهم بمحاربة صلاح الدين فى العراء فتحصنوا داخل مدينتهم مغلقين أبوابها فى وجه ذلك القادم ، فأقام الحصار عليها ثالث جمادى الآخرة سنة ٥٧٠ (٣٠ ديسمبر سنة ١١٧٤) وأعلن أنه ما جاء معادياً إنما أتى ليخلص سيده الملك الصالح من شرذمة الأمراء وعلى رأسهم كمشتكين

خاف الملك الصالح من هذا القادم المتظاهر بالأخلاص، ولم يثق كذلك بحالة كمشتكين ، وظن أن القوم قد تقابل صلاح الدين وتنخدع بما يقول، فطاف بهم وقال « قد عرفتم إحسان أبى إليكم ومحبته لكم ، وسيرته فيكم، وأنا يتيمكم ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق » إلى غير هذا حتى بكى فأبكى الناس ، فتجمعوا حوله وقاوموا كل ما أبداه صلاح الدين من عنف فى الهجوم

رأى كمشتكين أن أمر صلاح الدين عليهم جلل ، فراسل جماعة الأسماعيلية ، وهم باطنية شيعية ؛ وقد يكون لهم يد فى المؤامرة التى قام بها عمارة اليمنى فى مصر ؛ فأوفد إلى شيخ الجبل راشد الدين سنان ، وهو صاحب الدعوة الأسماعيلية بقلاع الشام ورئيس الطائفة كلها ، رسولا يطلب إليه مناصرته ومعاونته، فأرسل إليه جماعة تغتال حياة صلاح الدين؛ طلب هؤلاء المثول بين يدى صلاح الدين ، فأدخلوا خباءه ، ولم يكد يستقر قرارهم حتى انكشفت نيتهم ، فقُتل عميدهم وأخذ الباقى فى الفرار فقتلوا تقتيلا ، ولم تؤثر مؤامراتهم أدنى تأثير فى حصار حلب

فلما خاب كمشتكين فى متمناه هذا عمد إلى ناحية الأفرنج ، وكان قد

أخلى سبيل رياموند أمير طرابلس وأسير نور الدين منذ عدة سنوات . أطلقه كمشتكين عند قيامه بأمر حلب ، فطلب إليه أن ينجده ،فصادفت هذه الدعوة ميل ريامو ند للأخذ بالثار لنفسه وقومه ، وكان فى ذلك الوقت هو القيم على الملك بولدوين الرابع ملك القدس ، فأسرع بجيش نحو حمص، فعلم بأمره صلاح الدين ، وما كان يخفى عليه خطر الافرنج إذا غلبوا ، ففك الحصار عن حلب وقصدهم ، فلما علموا بهذا عادوا من حيث أتوا ، فسار إلى دمشق ، واستولى فى طريقه على بعلبك

نظر الملك الصالح وأتباعه إلى ما وصل إليه أمر صلاح الدين ، وما استولى عليه من البلاد الشامية ، فراسلوا سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فقام وجند الجنود وجمع المؤن وغيرها ، وواصل السير بها حتى اجتمع بابن عمه الملك الصالح ، وانضم جيشه إلى جيش حلب ، وقصدوا جميعاً صلاح الدين،فراسلهم فى الصلح ورغبهم فيه ، حقناً لدماء المسلمين، وحتى لايتخذ الافرنج من هذا النزاع سبيلا إلى تملك البلاد واستعباد العباد ، وقدم لهم كل البلاد التى استولى عليها ، على أن يبقى فى دمشق نائباً للملك الصالح فيها ، فأبوا عليه إلا أن يسلم كل ما بيده ، ويعود إلى مصر،فتجهز لهم وخرج يقصدهم ، فنازلهم بالقرب من حماه وانتصر عليهم يوم تاسع عشر رمضان سنة ٥٧٠ (١٣ ابريل سنة ١١٧٥) انتصاراً عظيما حتى أصبح الواحد منهم لايلوى على أخيه من شدة فزعه وخوفه ، وما زالوا فى فرارهم وهو من ورائهم يستولى على أثقالهم حتى دخلوا حلب.فحاصرهم بها

عاد سيف الدين إلى بلده قلق البال خائفا يترقب، وظن أنه إن سكن ولم يتأهب ، فاجأه هذا المغير الذى ظهرت بسالته وشجاعته ، فقام على قدم الجد والنشاط يجمع الجيوش من كل أطراف بلاده وما جاورها ، فجمع جيشاً بلغ عدده ستة آلاف مقاتل وتوجه به إلى مكان يعرف بتل السلطان حيث تقابل مع الجنود الصلاحية التى كانت قد وصلت بعد وصول جنود صاحب الموصل ، ولو فاجأ هؤلاء أولئك عند وصولهم لدارت الدائرة على الأجناد الصلاحية ، ولكن قائد جند سيف الدين أخر القتال لغده ، فأعطى بذلك فرصة كبيرة لجيوش عدوه ، فارتوت واستراحت ، ثم نازلتهم وجها لوجه وانتصرت عليهم انتصاراً باهراً، وأسر عدد كبير من جنود الموصل وجرح غيرهم ، ووقعت غنائمهم كلها فى قبضة صلاح الدين ، أما الدين بقوا من جيوش الموصل ، فولوا وجوههم نحو حلب ، أما صلاح الدين فانه سار بما غنم إلى بزاغة وتسلم قلعتها ثم سار منها إلى منبج واستولى عليها ثم قصد قلعة إعزاز أو عزاز وهى على بعد ١٥ ميلا من حلب فضيق عليها الحصار حتى سلمت إليه

وبينما هو قائم بحصار قلعة إعزاز ه إذ انقض عليه أحد الخوارج حين كان فى خباء أحد قواده وضربه على رأسه ضربة كادت تقضى عليه لولا دروعه ؛ أما الخارجى فقد أرسل الله من قبض عليه وقتله ، فدخل خارجى آخر ثم آخر ولكن الكل لاقوا حتفهم ، وقد بعث القاضى الفاضل كتاباً إلى الملك العادل يطمئن خاطره على هذا الحادث يقول له فيه « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصرى حاصلة ، ولم ينله من

الحشيشى الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها واندملت اساعتها ، والركب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ، وليس فى الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ولا ما يشغل سراً ؛ ويظهر أن هؤلاء الخوارج كانوا قد اندسوا فى صفوف حرسه بأغراء من كمشتكين ، كما اعتقد صلاح الدين، إذ ذهب مسرعاً نحو حلب ليوقع العقاب بمن دس هذا السم القتال ، فحاصرها وامتنع أهلها ولكن لم يطيقوا شدته ورأوا ألا قِبَل لهم بذلك فتراسلوا فى الصلح ، وكانت من شروطه أن يكونوا جميعاً على من ينكث الأيمان أو ينقض العهود

ولقد خرجت لصلاح الدين فى هذا الحصار وهو الثالث إبنة نور الدين وأخت الملك الصالح ، وهى بنت صغيرة فقابلها بالحفاوة والأكرام ، وأعطاها من المال والهدايا شيئاً كثيراً ، وسألها عما يطلبه قومها فقالت : إنهم يريدون إعزاز ، فوهبها لها ، وردها إلى حلب بما يليق بمقام أبيها من التجلة والأحترام إذ أوصلها بنفسه وحرسه إلى أسوار المدينة

قام صلاح الدين بعد ذلك بفك أسر من أسر فى تلك المواقع بعد أن أدى من العناية بجرحاهم ما أطلق ألسنة الجميع بمدحه والثناء عليه ، وكان فيهم أناس من علية القوم ، فعادوا يتحدثون بكرمه وجوده وشفقته وحسن معاملته ، ذاكرين ما قد أغدق عليهم من الهدايا عند ما فك أسرهم بعد أن ضمد جروحهم ، فأصبحوا مدينين له بحياتهم ، ورغب كثير منهم فى الدخول تحت طاعته ، والانتظام فى سلك خدمته

ويظهر أن المخابرات التى دارت فى مسألة الصلح المتقدم لم يكن يقصد

بها صلاح الدين سوى اكتساب الوقت ، لأنه ما كان ليرضى بأى حال من الأحوال التنازل عما استولى عليه ؛ أراد أن يكسب الوقت من جهة ، وأن يظهر للناس عامة أنه ما جاء لغزو أوفتح ، بل جاء ينصر الأمير الصغير

لما رأى الملك الصالح شدة حصار المدينة اتفقت كلمته مع قومه على قبول صلح مع صلاح الدين يقضى بأقراره على ما بيده من البلاد التى افتتحها ، فأصبح صلاح الدين سيداً على دمشق وحمص وحماه ومدن كفر طاب وبعرين والمعرة ، تلك التى لا تبعد كثيراً عن حلب ، وبعبارة أخرى أصبح الملك الصالح وليس له من البلاد إلا حلب وما والاها

اتخذ صلاح الدين طريقه قافلا إلى دمشق فوصلها فى شوال من السنة عينها (مايو سنة ١١٧٥) وبوصوله إليها وصلت إليه خلع الخليفة وأمر الولاية من قبله على مصر والشام ، واعتراف من الخليفة له بأنه أصبح سلطاناً لها وفى هذه الخلع يقول ابن سعدانى الحلبى

يا أيهـا الملك العزيز فضله ... لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمـير المؤمنين شرفاً ... أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى ... فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة ... لم يولهـا قبلك آدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة ... حتى حكته رونقاً وريا

فأمر بقطع اسم الملك الصالح من الخطبة ، وضربت النقود فى القاهرة باسمه بدل الملك الصالح ، فكتب عليها « الملك الناصر يوسف بن أيوب »

أما جنده فقد وزع عليهم الغنائم كلها دون أن يبقى لنفسه شيئاً منها ،

وبهذا قام السلطان بعملين كبيرين الأول أظهر به كرمه وسخاءه ، والثانى أظهر به أنه رجل سياسى محنك بعيد النظر ، فقد نتج عن سلوكه هذا أن رغب جيشه فى الغزو ، وأصبح على استعداد تام للسير وراءه أنّى سار وحيث ذهب

ذلك سر من أسرار نجاح هذا الرجل العظيم فى تلك البلاد النائية عن منبع قوته مصر

كان على السلطان بعد هذا أن يعاقب الطائفة الاسماعيلية على شر ماجنته أيديهم ، ومحاولتهم اغتياله ، فأخذ جيشاً وساربه إلى الجبل، فأحرق بعض قراهم وخربها ، وكانت لهم قلعة يقيم بها رئيسهم شيخ الجبل سنان ، يسميها ابن الأثير مصبات ويسميها غيره مصياف أومصيف ، فضيق عليها السلطان الحصار ، وما زال يشدد عليها حتى أرسل سنان إلى خال السلطان وهو صاحب حماه أن يتوسط فى الصلح فأجيب إلى ماطلب

قضى السلطان بهذه الغزوة على أحلام بقايا الفاطميين فى مصر ، فانقطع رجاؤهم فى كل مساعدة تأتى لهم على يد هؤلاء الخوارج ، كما أنه قضى على آمال الأفرنج فى هذا السيف نفسه ، ذلك السيف الذى طالما استلوه ضد المسلمين ، وهو مالم يستطع نور الدين أن يقضى عليه القضاء الأخير ، إذ كل ما فعله بهم أن أبقاهم فى أمكنتهم دون أن يذهب لهم فيها

رحل السلطان إلى دمشق ، وصرف العساكر إلى أوطانهم ليتمتعوا هم وأهلوهم بما غنموا ، وليستريحوا من عناء الحرب ومتاعبها لاسيما أنه قد هادن الأفرنج

وصل إليه أخوه طوران شاه والى اليمن بعد أن أرسل إليه خطاباً يعلمه فيه أنه قادم عليه ، وفى الخطاب شعر من عمل ابن المنجم المصرى يدل على الأخلاص والطاعة لأخيه صلاح الدين كقوله

وأقدمنّ إليـه قلبى مخبراً أنى بجسمى من قريب أتبع

رأى صلاح الدين وقد غاب عن مصر سنتين أن يتفقد حالها بنفسه فعزم على الرحيل إليها ، فأقام أخاه طوران شاه المذكور مكانه وسار إليها فوصلها وأخذ يرتب أمورها ويقيم الأبنية فيها ، وفى هذه المرة بدأ فعلا فى بناء القلعة والسور

أما القلعة فقد كانت من يوم تأسيسها إلى اليوم عرضة للتغيير والتبديل حتى خرجت عما كانت عليه أولا ، والذى يوجد بها الآن من بقايا السلطان صلاح الدين إنما هو ذلك النسر فى احدى حيطانها ، وقد كان هذا النسر علم صلاح الدين الشخصى « نسر أحمر فى قماش أصفر »

أما سور المدينة فقد أخبرنى حضرة الفاضل يوسف افندى احمد مفتش دار الآثار العربية بأنهم عثروا على جزء منه مع بوابة من بواباته وذلك أثناء حفرهم على أنقاض مدينة الفسطاط ، وقد زرت المكان ورأيت هذا السور العظيم وبقايا الأبراج التى كانت تقوم عليه ، كما تكرم حضرة الأستاذ حافظ قدرى افندى المهندس بلجنة الآثار العربية وأدخلني ناحية من السور حول القلعة قرب باب القرافة الذى كشف حديثاً

وليس سور صلاح الدين بالوحيد فقد بنى قبل ذلك مرتين ، الأولى حين بناه جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى عند ما اختط له مدينة القاهرة ، والثانية حين بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، بناه

حول السور الأول ، وهذان السوران بنيا باللبن ، أما سور صلاح الدين فقد بنى بالحجارة ؛ تولى أمر بنائه قراقوش الأسدى ، وكان غرضه أن يضم الأبنية جميعها داخل السور ثم حفر حوله خندقاً عظيما.

عاد السلطان صلاح الدين إلى مصر بعد أن رتب أمور الشام ، وبعد أن هادن الأفرنج وحالف الملك الصالح وأقاربه ، وبعد أن ركن الباطنية إلى الخلود والسكينة ، بيد أن التاريخ يحدثنا عن مقدار العهود والمواثيق عند هؤلاء الأفرنج ، إذ لم يكن لها عندهم وزن ولا قيمة أكثر من أنها فرصة يتحينون بها الوقت الملائم للعمل ، فلما علموا بغياب السلطان عن الشام ، قاموا فى جهات شمالى القدس يغزون البلاد وينهبون العباد ، شأنهم منذ حلوا تلك الديار ، فغزت طائفة منهم ملبك من غير جدوى ، وأخرى ولت وجهها نحو دمشق فانتصرت على المسلمين انتصاراً تمكنت به من أسر جماعة منهم من بينهم ابن السلار أحد قواد أجناد الشام المشهورين، وانهزم طوران شاه هزيمة منكرة

علم السلطان بما فعل الأفرنج ، فغزى جهات فلسطين الجنوبية ، وما وصل إلى الرملة حتى فاجأه ملك القدس، وشتت شمل جيشه ، وأوقع به هزيمة كاد يقع فيها السلطان أسيراً ، وكتب إلى أخيه طوران شاه كتاباً يبلغه ما وقع له ، جاء فى أوله

ذكرتك والخطى تخطر بيننا وقد نهلت منها المثقفة السمر

ويقول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى ، وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر — » وقعت

هذه الحوادث فى سنة ٥٧٣ هـ ، وقد أسر فى هذه المواقع الفقيه عيسى الهكارى ، وفداه السلطان بعد ذلك بمبلغ كبير من المال .

قفل السلطان راجعاً إلى مصر وهو على غاية ما يكون من التعب هو ومن بقى معه من الجنود ، فأعد العدة وأخذ يجمع الجيوش ليغادر بها الديار المصرية ليقضى بها على هؤلاء الأفرنج ، وبعد ثلاثة أشهر (فى شعبان) قاد السلطان جيشه إلى الشام ، واتصل بالدمشقيين ، وأخذ يناوئ الأفرنج الذين قاموا قبل وصوله بغزو حماه التى امتنعت عليهم ، فارتدوا عنها إلى حارم ، وكانت إقطاعاً لكمشتكين ، وكان الملك الصالح قد قبض عليه فى خلال تلك المدة وعذبه على قتله أبا صالح الأعجمى ، وكان من المقربين إلى نور الدين ؛ علم الأفرنج بهذا الحال فحاصروا حارم ، ولم يتخلوا عنها إلا بعد أن عرض عليهم الملك الصالح مبلغاً من المال ليرحلوا عنها

طلب طوران شاه من السلطان لنفسه بعلبك وكانت فى يد ابن المقدم الذى امتنع عن تسليمها ، فكانت بهذا فتنة بينه وبين السلطان ، إلا أنه أعطى بدلا منها كفر طاب وما جاورها

رأى الأفرنج أنفسهم وقد ضعفوا ، فأخذوا يحيطون أنفسهم وبلادهم بالمعاقل والحصون ، فبدأوا ببناء قلعة بالقرب من سهل بنياس عند بيت يعقوب عليه السلام ، بمكان يعرف بمخاضة الأحزان ، وكان هذا المكان حرماً بين المسلمين والأفرنج

وجد صلاح الدين فى إقامة هذه القلعة خطراً يهدده لجودة موقعها ، فوهب لهم المال ليكفوا عن البناء فلم يقبلوا ، واستمروا حتى أكملوا بناءها ، وكانت هذه القلعة هى قلعة يعقوب الشهيرة ؛ ملأها الأفرنج بالذخيرة

والميرة، فكانت مركز دفاع حصين، ومنبع مدد كبير، وفيها يقول ابن الساعاتى الدمشقى

أتسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى أوطانها وهى تحلف
نصحتكموا والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

قاد الملك بلدوين الرابع بعد هذا جيشاً نزل به على أعمال دمشق، فأرسل السلطانُ الاميرَ فروخشاه بن أخيه بجيش لحربهم، فنازلهم وجهاً لوجه، وانتصر عليهم انتصاراً باهراً كاد يأخذ الملك فيه أسيراً لولا بسالة إفرنجى يسمى همفرى بعد أن جرح جرحاً بليغاً كان السبب فى هلاكه بعد اثنى عشر يوماً، ففقد الأفرنج بموته بطلا من أبطالهم المقدمين

أما السلطان فأنه ذهب إلى بنياس لتخريب قلعة يعقوب، فأقام عليها الحصار حتى تأتى له بقية الجند، وهو فى هذا الحين يشاغل الأفرنج الآخرين، فيرسل السرايا لتنهب البلاد المجاورة كصيدا وبيروت

علم ملك الأفرنج بما يقوم به المسلمون من النهب والسلب وشن الغارات على بلاده، وأراد أن يمحوا عاراً ركبه فى الموقعة الماضية، فجمع جيشاً اشترك فيه كثير من عليتهم، وساروا من صفد إلى أعالى وادى الأردن، ونزلوا بمرج العيون، وأوقعوا بالمسلمين هناك واقعة ظنوا أنهم قد قضوا بها عليهم، وماهى إلا لحظة نادى فيها السلطان على جيشه فتجمع، وهبّ الكل صفاً واحداً وضربوا ضربة مؤلمة قاسية، فقتلوا عدداً كبيراً، وأسروا خلقاً عظيما. بيد أن الموقعة نفسها لم تكن بذات خطر إلا من حيث أنه قد أسر فيها كثيرون، من بينهم رياموند صاحب طرابلس،

وبولدوين صاحب الرملة، وهوج صاحب طبرية، وغيرهم ، وكان عماد الدين الكاتب المشهور يكتب هؤلاء الأسرى على ضوء مشعل فى خيمة السلطان يوم الأحد ثانى المحرم سنة ٥٧٥ هـ (١٠ يونيه سنة ١١٧٩ م) أما صاحب الرملة فقد فدى نفسه بمبلغ ٢٥٠ ألف قطعة من الذهب ، وتعهد بأطلاق سراح ألف من أسرى المسلمين الذين كانوا لا يزالون فى الأسر عنده

عاد السلطان بعد شهرين من هذه الموقعة إلى حصار قلعة يعقوب ، ولم يطل مقامه أمامها أكثر من خمسة أيام حتى استولى عليها ، وأسر من فيها من الأفرنج ، وأرسلهم إلى دمشق بعد أن فك اعتقال من كان بها من المسلمين ، ثم أمر بهدمها فهدمت حتى جعلها هى وما جاورها من السهل سواء ، وفى هذا يقول النشو بن نفاذه

هلاك الفرنج أتى عاجلا وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت أحزانها

أصبح مركز الأفرنج بعد تخريب هذه القلعة فى خطر شديد ، فأن السلطان صلاح الدين بما أعد من الأساطيل قد هاجم عكا ونهب جهاتها، وقام المسلمون بالسلب فى جهات صفد وهددوا طبرية ، فلم ير ملك القدس وأعضاء مجلسه إلا أن يهادنوا السلطان فهادنهم لمدة سنتين ، ولم تدخل فى هذه المهادنة طرابلس ولا أنطاكية ، فناوأ مسلموا الشمال أهل طرابلس الذين لم يجسروا على البعد عن قلاعهم، وانتهى أمرهم بأن صالحوا المسلمين، وبقيت أنطاكية وحدها وقد نشبت فيها الاختلافات الحزبية فلم تقدم على عمل عدائى للمسلمين . ويقول ميشود عن هذه المدنة إنها جديرة

بالاعتبار ، لأن المسلمين حافظوا على عهودهم ومواثيقهم ، فى حين أن الأفرنج ، كعادتهم ، اتخذوها وسيلة لأعلان حرب أخرى

ولى السلطان صلاح الدين وجهه نحو إتمام مهمته فى الشمال ، إذ قد حدث أن أمير حصن كيفا كان قد تزوج بابنة قليج أرسلان سلطان قونية غير أن الأمير بعد قليل عاملها معاملة سيئة وتزوج من فتاة مغنية ، فكان هذا سبباً فى أن أعلن قليج أرسلان الحرب على الأمير نور الدين صاحب حصن كيفا ، وكان هذا الأمير حليف السلطان صلاح الدين بمقتضى الصلح الذى عقد بعد حصار حلب الأخير ، فكان على السلطان بموجب هذا أن يدافع عن حليفه ، لاسيما وأنه هو نفسه على عداوة مع قليج أرسلان منذ حصلت واقعة حصن رعبان ، بيد أن الامر لم يطل إذ انتهى بين الطرفين المتعاديين من غير إهراق قطرة دم واحدة ، وقد مكن هذا الصلح السلطان من السير شمالا لمحاربة الأمير الارمنى روبين صاحب أرمينيا الصغرى ، وقد وقعت بينهما واقعة خضع بعدها روبين وأخذ على نفسه المواثيق والعهود ألا يتعرض إلى الرعاة الأتراك الذين يرعون بجانب بلاده

علم جمهور المسلمين فى تلك النواحى بما ناله السلطان صلاح الدين من النصر فى كل مكان ، فعرفوا قوته ، وأدركوا سطوته فتقدم الجميع لمحالفته ، والدخول تحت كنفه ، وقبول سيادته ، فعقدت محالفة كبرى فى جمادى الاولى سنة ٥٧٦ هـ (اكتوبر سنة ١١٨٠م) وقد وقع عليها أمراء الجزيرة كلهم وهم أمير الموصل وصاحب الجزيرة ، وأربل ، وكيفا ، وماردين ، وسلطان قونيا ، وملك أرمينيا أيضاً . كانت مدة هذه المعاهدة سنتين أخذ القوم

على أنفسهم الأيمان والمواثيق ألا يشهروا فيها سيفاً ، فانتهت الحرب بهذه في تلك الجهات ؛ ومن هذه المحالفة ندرك ماوصل إليه السلطان صلاح الدين من المركز الكبير الهام ، وما وصلت إليه قوته ، فانتشر اسمه فيما بين البحر الأسود وخليج الفرس شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً ، كما أن هذه المحالفة دلت دلالة واضحة على إمكان جمع شتات هذه الأمارات كلها والدخول بها مع الأفرنج في حرب دينية مقدسة ، كما كانت بلا شك الحجر الأول الذى وضع لتلك الحروب القادمة مع الافرنج على أنه لا يزال أمام السلطان صلاح الدين بعض الاعمال الاخرى حتى يستطيع القيام بأمر الجهاد الذى وضعه أمام عينيه منذ تولى وزارة مصر

رأى صلاح الدين وقد هادن الافرنج والمسلمين على السواء أن الفرصة ملائمة لزيارة مصر ليرى ما يجرى فيها من الأعمال ، فشد الرحال إليها وبدأ السير فى رجب سنة ٥٧٦ هـ (أواخر سنة ١١٨٠ م) تاركا الأمير فروخشاه بن أخيه يدير دفة الأمور فى الشام

وصل إلى مصر وأخذ ينظم أمورها وينشئ المدارس والمسالك والطرق والجسور ، ثم خطر له أن يحصن الاسكندرية على ظن أن أهل أوروبا قد تهاجمه فيها ، ويقال إن سبب عودته إلى مصر كان لوفاة أخيه طوران شاه الذى تولى بعلبك ثم تركها لولاية الاسكندرية مع اليمن يولى عليها من ينوب عنه

قبض رينولد (أرناط) صاحب الكرك على قافلة تجارية كانت قد مرت بالقرب من بلاده ونهبها وأسر أهلها وخالف شروط الهدنة ، وحصل

أن دنت من ثغر دمياط مركب تقل كثيراً من حجاج المسيحيين الأوربيين، فقبض عليها السلطان جزاء ما صنعه أمير الكرك مع قافلة المسلمين

وجاء إلى السلطان أن سيف الدين غازى صاحب الموصل قد مات وترك بلاده وملكه إلى أخيه عز الدين مسعود ، عدا جزيرة ابن عمر فأنه أعطاها لولده سنجرشاه ، كما أعطى قلعة عقر الحميدية لولده ناصر الدين كشك وجعل أمرهما بعد موته إلى أخيه عز الدين هذا ، وما اختار عز الدين الملك إلا خوفاً على بلاده من السلطان ، إذ كان ولده الأكبر سنجر شاه لا يزيد سنه على اثنتى عشرة سنة قُبيل وفاته

وصل إليه بعد ذلك خبر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين (٢٥ رجب سنة ٥٧٧ — ٤ ديسمبر سنة ١١٨١) وكان عمره حين وفاته نحو ١٩ سنة ، فأوصى بملكه إلى ابن عمه عز الدين مسعود والى الموصل إذ ذاك دون أن يوصى به إلى عماد الدين صاحب سنجار وهو زوج أخته، لعلمه أنه لا يقوى على الاحتفاظ به من إغارة السلطان الذى إذا ملك حلب ملك كل ما لأهلهم من البلاد ؛ أما عز الدين مسعود فقد أصبح بما له من البلاد فى الموصل قادراً على جمع الجيوش الجرارة ومحاربة السلطان . ولما تم تنازل الملك الصالح إسماعيل عن ملكه إلى عز الدين مسعود غادر الموصل إلى حلب ، وما كاد يطيب له المقام هناك حتى كتب إليه أخوه عماد الدين صاحب سنجار فى أن يستبدل حلب بسنجار ، فأجابه إلى ما طلب ، فرحل إليه وتسلم منه حلب فى ١٣ محرم سنة ٥٧٨ (١٩ مايو سنة ١١٨٢) وسلم سنجار ، وعندئذ عاد عز الدين إلى الموصل

وقد قابل أهالى عدة بلاد من بلاد الشام والجزيرة هذه الحوادث بالفرح والسرور حتى كاد يخرج بعض بلاد صلاح الدين من يده ، وينضم إلى حلب أو غيرها

أما السلطان فأنه حزن حزناً شديداً لموت الملك الصالح ، ورأى فى تغيبه عن بلاد الشام خسارة عليه ، على زعم أنه هو الوارث الحق لملك الملك الصالح ، ولأنه كان يفكر على الدوام فى أنه لا سبيل إلى منازلة حلب إلا بعد وفاة الملك الصالح ؛ ولكن تملك رجل كعماد الدين هذه المدينة كان من غير شك عقبة جديدة فى سبيله إليها ؛ على أنه فوق هذا لا يستطيع القيام بعمل عدائى فى هذا الأوان ، عملا بشروط الهدنة التى كان يحافظ على تنفيذها ؛ وما عُرف عنه أنه أخل يوماً بشرط أونقض عهداً أخذه على نفسه ؛ وما كان أمد الهدنة ينتهى إلا بعد أربعة أشهر من تسلم عماد الدين حلب ؛ غير أنه ما رغب فى نقض هذه الهدنة رغم ما سمعه من أن بعض حلفائه المسلمين قد حالفوا الأفرنج وشيخ الجبل ليعمل الجميع ضده على أنه عدوهم

أسرع السلطان إلى الشام ليحمى أتباعه من جهة ، وليحتفظ ببلاده من جهة أخرى من شر تلك الفتن ، واحتفل بوداعه بمصر أناس كثيرون ، وأخذ الشعراء ينشدون القصائد فى حضرته ؛ وبينما القوم فى فرحهم ومرحهم إذ بأحد المربين لأولاده قام وقال

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

فانقبض السلطان وكان الأمر كما قال هذا المربى ، فأن صلاح الدين

لم يعد إلى مصر بعد هذه المرة مع طولها . سار السلطان وسار معه جماعة من الأمراء وأصحاب المظاهر فى الدولة ، وفيهم نفر كبير من التجار وأهل البلاد فمروا بمدينه إيله (العقبة) إلى طريق الصحراء ، وقد علم السلطان أن الأفرنج تجمعوا لمقاتلته ، فأرسل الأثقال والضعفاء إلى دمشق مع أخيه تاج الملوك بورى ، وسار هو والعسكر فشن الغارات بأطراف البلاد ، فما تجاسر إفرنجى على أن يدنو منه ، وظل فى طريقه على حاله حتى وصل دمشق ، فلما عادت الأفرنج المجتمعة إلى بلادهم وجدوا أن المسلمين بقيادة فروخشاه قد نهبوا وسلبوا بلادهم من ناحية طبرية وأغاروا على شقيف التى طالما تأذى المسلمون منها

وصل السلطان دمشق فى صفر سنة ٥٧٨ ﻫ (يونيه سنة ١١٨٢ م) بعد أن بلغه وهو فى الطريق تخريب الشقيف ، ففرح فرحاً شديداً . وصل دمشق وأراح بها جنده ثم أخذهم بعد شهر تقريبا وشن الغارة بهم على بلاد الأفرنج الذين قد تجمعوا فى جهات طبرية ، فأشبعهم قتلا ، ودخل بجنده مدينة بيسان ثم عاد إلى دمشق يحمل ماقد غنم

ثم غادرها بعد شهر إلى حصار بيروت براً بعد أن حاصرها من البحر أسطول مصرى ، غير أنه رجع عنها قاصداً بلاد الجزيرة بدعوة من كوكبورى صاحب حران لخوفه من صاحب الموصل ، وما كان السلطان ليتأخر لحظة واحدة عن التدخل فى أمر تلك البلاد ، وماهى إلا أيام من تلك الدعوة حتى انقضى أمد المعاهدة ، ووجد السلطان كثيراً من الأمراء يراسلونه

فى الدخول تحت طاعته ، يتقدمهم كوكبورى المذكور ، ونور الدين صاحب حصن كيفا ، ثم تبعهما صاحب بلاد الرها وسروج والرقة وقرقيسيا ونصيبين ، وبهذا سهل عليه الطريق إلى حصار الموصل التى لم يبق من أمراء بلاد المسلمين من ينافسه سوى صاحبها ، حاصرها فامتنعت عليه فغادرها بعد شهرين من حصارها وولى وجهه نحو سنجار فاستولى عليها فى ٢ رمضان سنة ٥٧٨ هـ (٣٠ ديسمبر سنة ١١٨٢) وأرسل حاكمها وحاشيته إلى الموصل بكل حفاوة وإكرام

فى خلال هذا وصلته أخبار من دمشق بتجمع الأفرنج ومحاولتهم غزو جهاتها ، فلم يعبأ بهذا النبأ وقال « دعوهم يعملون مايشاؤن ، فانهم إنما يستولون على قرى وكفور ، فى حين أننا هنا نأخذ مدناً وبلاداً ، فاذا ما عدنا إليهم جئنا لهم بجنود لا قبل لهم بها ، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون »

هذه العبارة وحدها كافية لأدراك سياسة السلطان صلاح الدين فى اهتمامه بالتدخل فى شؤن الأمراء المسلمين ، لاعتقاده أنه إذا تغلب عليهم وضمهم إلى صفوفه ، استطاع أن يخوض بهم غمار الحرب الدينية لاسترداد القدس وغيرها من البلاد التى ملكها الأفرنج وهى تلك الأمنية التى تطاول إليها منذ زمن بعيد ، وهى التى فى الحقيقة ساعدت فى إعلاء كلمته وجمع قلوب المسلمين حوله ، وتآلفهم وتعاضدهم معه على قتال هؤلاء المغيرين الذين لم يراعوا فى السكان إلا ولا ذمة ، ولم يحفظوا العهود ، ولم

يراعوا المواثيق ، ولم يخافوا الله فى سفك دماء المسلمين ، مما لم يغفل كتاب الأفرنج أنفسهم أمره والأقرار به

ترك السلطان سنجار بعد أن أقام فيها الحرس اللازم لحفظها ، ثم سار إلى حصن آمد وملكه بعد حصار ثمانية أيام ، وكانت آمد هذه من المدن الشهيرة بسورها القوى ، وأبوابها الحديدية ، ومكتبتها الجامعة ؛ وفى أثناء ترتيب أمورها وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا علم أن عماد الدين صاحب حلب قد انضم إلى الأفرنج وبدأ يعمل معهم فى إحراق المدن التابعة له ، فعبر الفرات واستولى فى طريقه على عينتاب ، وفى يوم ١٦ محرم سنة ٥٧٩ (٢١ مايو سنة ١١٨٣) عسكر مرة أخرى أمام حلب التى لم يكن بها عماد الدين على الحالة التى كان بها فى سنجار ، وأحب أن يرجع إلى سنجار ، فلم يبد مقاومة تذكر ، وكان السلطان يريد حلب لأنها عاصمة سوريا الشمالية . اتفق الفريقان على استبدال الواحدة بالأخرى مع ضم كل ما حول سنجار من المدن مثل نصيبين والخابور والرقة وسروج إليها ، وشرط السلطان على عماد الدين المذكور — كما يقول صاحب حماه — الخضوع لخدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه ، فتم ذلك ودخل صلاح الدين حلب يوم ١٧ صفر سنة ٥٧٩ (١٩ يونيه سنة ١١٨٣) بين فرح الأهالى وسرورهم ، وحق لهم ذلك فما صلاح الدين إلا سلطانهم ، ولم يكن فى الناس مثله ملكا قويا عادلا كريما . احتفل القوم بتملكه المدينة احتفالا كبيراً ، وأخذ الشعراء والخطباء ينشدون ويخطبون ، والسلطان لا يقل فرحه بها عن فرحهم به ، لولا ما بلغه من خبر وفاة أخيه تاج الملوك بورى وهو على

حصار حلب ، إلا أن السلطان أسر الخبر فى نفسه ولم يبده للأهالى حتى لا يفسد عليهم مسرتهم ؛ ومن عجيب ما وقع أن محيي الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح السلطان بقصيدة جاء فيها

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

وقد اتفق أن فُتح القدس فى رجب ولو أنه لم يقع إلا بعد أربع سنوات من هذا التاريخ

أصبح السلطان بامتلاكه حلباً سيد أمراء المسلمين وأقواهم وأعظمهم شأناً وأعلاهم كعباً ، فقد كان سلطانه ينشر أجنحته على تلك الجهات من الرملة إلى حوض النيل ، ويمتد ظله فيعم سواحل إفريقية الشمالية حتى طرابلس ، وخضعت له بلاد اليمن وعدن ، وخُطب له على المنابر فى هذه الجهات كلها

أصبح السلطان الآن سيد القوم وصاحب البلاد كلها خلا الموصل وهو يعلم مقدار جبن صاحبها ؛ وما كان ليؤذى السلطان فى ملكه ويقف عثرة فى سبيله سوى تلك الجهات الساحلية وبيت المقدس إذ كانت لا تزال فى أيدى أعدائه الأفرنج ، فما كان ليرتاح ضميره ويطمئن خاطره إلا إذا قضى على آمال هؤلاء القوم ، فيقص من جناحهم ويأخذ من بلادهم ما يتركهم أمامه كمية مهملة ، وليس عنده ما يهتم به فيذكره صباح مساء سوى القدس واسترجاعها ؛ وإليك ما قاله ابن شداد « فانظر إلى هذه الهمة التى لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد »

ظل السلطان فى حلب ينظم أمورها ويرتب أحوالها حتى فارقها إلى دمشق يوم ٣ جمادى الأولى سنة ٥٧٩ (١٤ أغسطس سنة ١١٨٣) وقد تشجع الأفرنج أثناء غيبته فى جهات الشمال لاسيما وقد مات نائبه فروخشاه، وقاموا بأحراق عدة بلاد على مقربة من دمشق ، وغزا أمير الكرك البلادَ العربية وكاد يدخل المدينة المنورة لولا يقظة الأمير لؤلؤ إذ أدركه وشتت شمله وأسر رجاله وبعث ببعضهم إلى المدينة وبالآخرين إلى مصر ، وكاد أمير الكرك نفسه يقع فى الأسر ؛ فكان من واجب السلطان أن يعاقب هؤلاء ، لاسيما وقد أصبح آمناً من جهة الشمال ، فعبر نهر الأردن وأغار على بيسان فأحرقها واستمر حتى تقابل مع جيوش الأفرنج فى جهات الفولا ، وكان عدد الأفرنج كبيراً جداً ، على أن هؤلاء تحاشوا خوض معركة معه لاسيما وقد أخذ قوادهم يتنافسون حتى دخل عليهم الشتاء ، وانتهى الأمر بأن انسحبوا متراجعين إلى صفورية يحوطهم الخزى والعار

سار السلطان بعد ذلك إلى حصار الكرك التى كانت عقبة فى طريقه بين مصر والشام . هاجمها ولكن من غير جدوى ، ثم أعاد عليها الكرة بعد سنة من أوبته من حلب (جمادى الأولى سنة ٥٨٠ — أغسطس سنة ١١٨٤) ولكن من غير نتيجة كذلك

اجتمعت كلمة الأفرنج جميعاً على مهادنة السلطان . فعقدوا معه صلحاً لمدة أربع سنوات ، فولى السلطان وجهه نحو تنظيم أحوال ملكه ، فذهب تواً إلى دمشق عاصمة بلاده ، وسيدة جهاته ، وعروس الشرق ، وجنة الشام كلها

فى هذا الاوان سعى أمير الموصل ، بموافقة الخليفة العباسى ، فى الصلح مع السلطان صلاح الدين ، وأرسل فى ذلك مندوباً هو بهاء الدين ابن شداد الذى أحبه السلطان حباً شديداً ؛ وصل بهاء الدين وشيخ الشيوخ صدر الدين إلى دمشق فى شوال سنة ٥٧٩ (فبراير سنة ١١٨٤) فعرض السلطان صلاح الدين على القاضى بهاء الدين مكاناً رفيعاً فى ملكه بمصر ، فأبى مادام مندوباً عن صاحب الموصل ؛ أقاما فى دمشق أياما لفصل الحال ، فلم يوفقا إليه ، فعادا يوم الخميس ٧ ذى الحجة سنة ٥٧٩ (٢٢ مارس سنة ١١٠٤) وحاول صاحب الموصل إقناع السلطان فلم يفلح ؛ فعبر السلطان نهر الفرات فى المحرم سنة ٥٨١ وسار حتى وصل الموصل وحاصرها فأرسل صاحبها والدته وابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء يطلبن إلى السلطان الصلح ، فأبى عليهن وردهن — كما يقول صاحب كتاب حماه — واستقبح الناس ذلك من السلطان لا سيما وفيهن بنت نور الدين

على أن السلطان قفل راجعاً عن حصارها حين بلغه الخلاف الذى وقع فى جهات أرمينية ، فرحل إليها واستولى فى طريقه على ميًا فارقين فى أواخر ربيع الآخر سنة ٥٨١ (أغسطس سنة ١٨٨٥) ثم عاد إلى الموصل إلا أنه مرض واضطر إلى الانسحاب إلى حران ، واتفق أن صاحب الموصل كان قد حرر شروطاً أخرى للصلح وأرسل بها إلى السلطان ، فأدركه الرسول وهو فى طريقه إلى حران ، وكانت تقضى هذه

الشروط بأن يخطب للسلطان على منابر الموصل وأن تسلم عدة بلاد إليه وأن تضرب السكة باسمه

وصل السلطان حران وفيها اشتد عليه المرض، فأصبح بين اليأس والرجاء ، وتأكد بعض القوم أن السلطان لا بد ملاق حتفه فى هذه المرة، فجمع قواده واستحلفهم على الطاعة لأولاده ، غير أنه ما لبث أن تماثل إلى الشفاء فى أواخر القعدة سنة ٥٨١ (فبراير سنة ١١٨٥) وهو الأوان الذى وصلت فيه رسل صاحب الموصل وعلى رأسهم القاضى بهاء الدين ابن شداد لتوقيع شروط الصلح . أصبح السلطان صلاح الدين بمقتضى هذا الصلح سيد جهات الجزيرة الشمالية وجزء من بلاد الكردستان . قام السلطان بعد ذلك من حران واستراح قليلا فى حمص وفيها قُتل ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه صاحبها، وكان قد كاتب أمراء دمشق على الطاعة له إذا مات السلطان ، فاستخلف السلطان ولدَ ناصر الدين هذا واسمه شيركوه ، وكان شابا صغيراً ، فلما مثل بين يديه سأله عن مقدار ما يعرف من كتاب الله ، فقال على الفور : إلى حد قوله تعالى « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » فخجل السلطان وأقره مكان أبيه ، ثم سار حتى وصل حلب ومنها فى المحرم سنة ٥٨٢ (إبريل سنة ١١٨٦) سار إلى دمشق فقوبل فيها بكل ابتهاج وسرور

إلى هنا ينتهى بنا المقال على الدور الثانى من حياة السلطان صلاح الدين،

وهو الذى قام فيه بجمع كلمة المسلمين وضمهم تحت لوائه وأخذهم إلى ناحية، ليستعين بهم على جهاده العظيم وحربه القادمة مع الأفرنج الذين احتلوا البلاد ومزقوا وحدة المسلمين فيها ونهبوا وسلبوا كل ما كان لهم، ومسخوا ما ترك العرب فيها من آثار العمران ، بعد أن أخذوا ما تركه المسلمون الأولون فى مساجدهم من المخلفات القيمة الدالة على ما كان لهم من مجد وحضارة



الدور الثالث

صلاح الدين فى فلسطين

تمكن السلطان صلاح الدين فى الدور الماضى من إخماد الثورات التى كانت قائمة فى شمال سوريا وجهات الجزيرة ، فتغلب على منافسيه فيها وأخضعهم لشوكته وسلطانه ، واتخذ منهم أخدانا وأعواناً ، فتبدل حالهم من عدوة الى صداقة ، ومن منابذة إلى معاونة ، فاستطاع ذلك أن يقوم بما نصب نفسه له من يوم أن تولى الأعمال فى مصر ، وهو محاربة الافرنج وإعلان الجهاد وإعداد العدة ليضربهم الضربة القاضية . وهم أولئك الذين ما كانوا ليرعوا عهده ، ولا ليحفظوا ميثاقه ، ولولا هذا المدد الجديد الذى احتال عليه، طوراً بشجاعته وجنده ، وطوراً بحلمه وسياسته ، وآخر بكرمه وسخائه ، لما استطاع أن يقاوم تيار الأفرنج الذى كان يأتى إلى الشام من أوروبا من آن إلى آن ، ولما تمكن من القضاء على الحملة الثالثة الصليبية

على أننا لا ننسى ما لظروف الأحوال وقتئذ من الأثر ، فانه بينما كان السلطان يؤسس عظمته فى الشمال ، كانت جهات فلسطين تموج بالفتن الداخلية، والاختلافات الحزبية ، لاسيما بعد أن توفى ملكهم بولدوين الرابع وأقيم مكانه بولدوين الخامس بن الملكة سيبل أخت الملك المتوفى ، كان

بولدوين الخامس هذا طفلا ، فكفله ريامو ند صاحب طرابلس الذى عقد صلحا لمدة أربع سنوات مع السلطان ، بيد أن الملك الطفل ما كاد يطمئن به سرير ملكه حتى وافته منيته فى صيف سنة ٥٨٢ (١١٨٦) فكان من حق ريامو ند البقاء فى مركز الملك يدير دفة الأمور حتى ينتهى القوم من اختيار ملك لهم ، على أن سيبل كانت تزوجت من جوى الذى انحازت إليه طائفة ليست من أنصار ريامو ند ، ومالبثت سيبل أن ألبست زوجها تاج ملك فلسطين ، فتوجه ريامو ند من ذلك الحين إلى طبرية ، وكانت قد آلت إلى زوجه ، وفضل المكث فيها على العمل مع جوى

عزم جوى على مهاجمة ريامو ند فى طبرية بحجة أن يحاسبه على الأموال التى جباها أيام وكالته عن الملك المتوفى ، فانحاز ريامو ند من أجل هذا إلى السلطان صلاح الدين ، وكان إذ ذاك فى بنياس يراقب حركات الأفرنج دون أن يتقدم لحربهم وهم على هذا الحال من الانقسام الشديد ، ذلك لأن المعاهدة بينه وبينهم لم يكن أمدها قد انتهى بعد ، غير أنه انتهز فرصة انحياز ريامو ند له واستنجاده به ، فأخذ يجهز العساكر ويستعد للطوارىء

وبينما كان السلطان ينتظر انقضاء الهدنه ، كانت حاشية جوى تميل إلى فسخها متذرعين بأنها إنما وقعت على يد ريامو ند الذى أصبح الآن عدواً للملك والمملكة.فأخذت هذه الهدنة شكلا جديداً دخلت فيه التحيزات إلى حد كبير ، ونمى الشعور عند أتباع جوى بأن حرب المسلمين أمر واجب ، لاسيما بعد أن انحاز إليهم ريامو ند الخائن ، ومن هنا نستنتج أن الأفرنج لا يستطيعون صبراً ولا يطيقون انتظاراً دون أن يظهروا العداء

للسلطان ، ولقد كان رينولد أمير الكرك أول من يقوم بفسخ العهد على حسب عادته فى ذلك ، وإليك بيان الحال

كانت الكرك هذه تقوم على الطريق الموصلة من الشام إلى مصر ومكة ، وكثيراً ما كان يعترض صاحبها القوافل الإسلامية السائرة فى هذه الطريق وهو أمر جعل السلطان يغزوها المرة بعد الاخرى كما جعل نور الدين أيضا قبل وفاته يعمل على الفتك بها

مرت فى خلال سنة ٥٨٢ (سنة ١١٨٦) قافلة غنية من قوافل المسلمين بالقرب من الكرك ، فلم يستطع صاحب الكرك ، مع ماهو مقيد به من العهود وشروط الهدنة ، الصبر دون أن ينقض عليها ويفتك بها ، ووجد فى عمله هذا إطفاء لنار غضبه وإرواء لظمئه من دماء المسلمين ، وفرصة لتلبية قلبه المملوء حقداً وبغضاً ، فانقض عليها واستولى على بضاعتها ومتاعها ، وسجن رجالها ونساءها ، ويقال إن أخت السلطان كانت من بين أهل هذه القافلة . ولما وقعوا فى قبضته ، استهان بالدين وبالنبى ، وقال لهم « إن كنتم تعتقدون فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم — فادعوه الآن يفك أسركم ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه » فنمى هذا إلى السلطان ، فغضب غضباً شديداً وحلف لئن أسره ليقتلنه بيده ، وحقاً بر السلطان فى قسمه كما سنرى ، وما درى صاحب الكرك أنه بما صنع قد جر الدمار على ملك اللاتين كله ، وأنه بما قد اقترفت يداه قد جلب الأحزان على قومه وأهله ونفسه ، فأن السلطان لم يجعل الكرك هذه المرة همه الوحيد ، بل أخذ العدة ليوقع النكال الشديد بالافرنج قاطبة ،

فيخرب من بلادهم ما استطاع ، ويستولى على قلاعهم ما وجد لذلك من سبيل ، مصمماً على أنه إما أن يطهر البلاد من رجسهم ، وإما أن يعود محمولا إلى قبره

كان هذا الوقت أوان أوبة حجاج المسلمين ، فتأهب صاحب الكرك إلى اقتناصهم وهم قافلون ، واستعد السلطان لحمايتهم بعد أن أعلن الجهاد فى كل بلاده ، وعسكر فى قصر السلامة بالقرب من بصرى ، وظل فيها حتى مر الحجاج بسلام آمنين مطمئنين ، داعين للسلطان بالنصر والغلبة على قوم لا هم لهم إلا نكث الأيمان وفسخ العهود والمواثيق ، أعماهم التعصب وأغلظ قلوبهم الجهل فأوقعهم فى شر ما كانوا يصنعون

وصله فى هذا الأوان جيش مصر وغيرها فأخذ ينظم أحوالهم ، ثم مال بهم إلى تل عشترة ليعد العدة للوقعة الكبرى ، بعد أن سمع مانأله ولده الافضل من النصرعلى الأفرنج فى جهات عكا ، وما قد أسره من القوم وعاد بهم جميعا مخترقين طبرية دون أن يتعرض لهم صاحبها لما كان بينه وبين السلطان من الوفاق

غير أن هذا النصر العظيم الذى حازه المسلمون قد أدى إلى تجمع كلمة الأفرنج ، فأرسلوا رؤساء دينهم ونجباء قومهم إلى ريموند مهددين وناقمين عليه سكوته ، والمسلمون يفتكون بأخوانه ويزرون بالأسرى منهم فى بلاده ، ورموه بالأسلام ؛ وما زالوا به حتى اضطر أخيراً إلى الانضمام إليهم والانتظام فى سلك صفوفهم ، فقويت بذلك شوكتهم ، واجتمعت كلمتهم ، فكونوا جيشاً جراراً هال المسلمين أمره

عقد السلطان مجلس شوراه ، فقرر وجوب منازلة العدو مهما بلغت قوته ؛ شجعهم على هذا ما رأوه من الجيوش التى وصلت من كل جهات المملكة الأسلامية الصلاحية ، فاستعرض السلطان الجيش يوم الخميس ١٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ (٢٥ يونيه ١١٨٧) ثم تريث حتى صلى الجمعة وابتهل المسلمون إلى الله وتضرعوا ، وعبر يوم السبت نهر الأردن جنوبى بحيرة طبرية ، وإنما اختار هذه الجهة لما كان بينه وبين صاحبها من الرابطة كما سبق ، وأقام جنده الليلة الأولى هذه عند الأقحوانة ، وأرسل عيونه لمعرفة موقع العدو الذى تجمع فى صفوريا ليرد غارة المسلمين ؛ ثم تقدم السلطان وسار برجاله إلى تل كفر سبت على بعد بضعة أميال من جنوب غربى طبرية ليستولى على الطريق ، وحاول فى هذه المدة الاشتباك مع الأفرنج فلم يتحركوا ، فترك نخبة جيشه تراقب حركاتهم ، وسار هو مع بقية الجيش إلى طبرية نفسها فى يوم ٢٤ ربيع الآخر (٢ يوليه) وبعد معركة قصيرة استولى السلطان على طبرية ، وامتنعت قلعتها ، ولجأت إليها زوج ريموند هى وأولادها وحاشيتها ، ومن القلعة أرسلت تستنجد بالملك جوى فى صفوريا ، ولولا هذا الاستنجاد لما تحرك الأفرنج ، ولظلوا ثابتين فى مراكزهم

جمع الملك جوى مجلس أمرائه بعد أن وصلته استغاثة زوج ريموند ، واستشارهم فيما يصنع ، فأشار ريموند بعدم الهجوم على المسلمين ، أما أمير الكرك هو وجماعة آخرون فخالفوه فيما رأى ، وهو صاحب طبرية وزوجه هى التى تستغيث . رأى ريموند ألا ضير على المملكة من ضياع طبرية ،

وأن المسلمين سيرحلون عنها إذا لم يتقدم الأفرنج إليهم

على أن رأى رياموند هذا قد جعله القوم موضعاً للريبة والشكوك حتى نسبوا صاحبهم إلى الخيانة لسابق عهده مع السلطان وصداقته له وانضمامه إلى صفوفه ، والاعتزاز به على قومه

ظل الفريقان يتجادلان حتى منتصف الليل ، ففريق منهم وهو حزب ريامو ند يخاف عدد المسلمين الهائل ، وأمير الكرك يقول له « لاخوف ولا ضير من كثرة عدده ، فالحطب الكثير تأكله النار » وما زال بالملك حتى استماله إليه ، وبات جوى وهو على نية الهجوم . وما أصبح النهار حتى أصدر أمره للجيش بالحركة

علم صلاح الدين بحركة الأفرنج فرحل مسرعاً إلى جيشه الأصلي الذى تركه يرقب حوادث العدو ، وأخذ العدة للموقعة القادمة

ولم تكد تظهر شمس يوم ١٥ ربيع الآخر (٣ يوليه) حتى بدأ الجيشان بالحركة ؛ ولقد كانت عناية الأفرنج متوجهة إلى قطع خط الرجعة على السلطان وجيشه حتى يحولوا بينه وبين مراكز قوته ومنابع المياه لعلمهم أن ميدان القتال يقع فى أرض قفرة لايقوم ما تخرجه بمطالب جيش المسلمين كله .

على أن القوم قد ضلوا فى اتباع هذه السياسة ، فلم يعرفوا أن السلطان صلاح الدين فى حروبه كان يحتاط للأمر قبل وقوعه أشد احتياط . فما كان ليغفل مواضع الخطر الذى يجوز أن يحدق بجيشه ، كما أنه ما كان ليهمل موارد المياه فى بلاد كالبلاد الشامية المحدودة ينابيعها

ولقد نسى الأفرنج أن عليهم واجباً واحداً فى هذا الظرف هو المدافعة وحدها دون سواها ، وأن ليس من حقهم أن يقوموا بهجوم على عدوهم القوى إلا إذا أيقنوا أنهم فى مركز منيع ، بحيث يرتدون إليه عند الحاجة

فى هذا اليوم تحرك جيش الأفرنج من صفوريا قاصداً طبرية لتخليصها وما درى أن السلطان وجنده قد أضرموا النار فيها ، فأصبحت رماداً تذروه الرياح . حاول الأفرنج فى هجومهم هذا أن ينفذوا الخطط التى رسموها لأنفسهم ، ويقطعوا الطريق على السلطان وجيشه ، ويستولوا على ينابيع المياه ، فكان من أمرهم أنهم كانوا كلما تقدموا خطوة وقعوا تحت نيران عدوهم ، فلم يثبتوا ، أو تحيط فرق ببعض فرقهم وتسوقها إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى

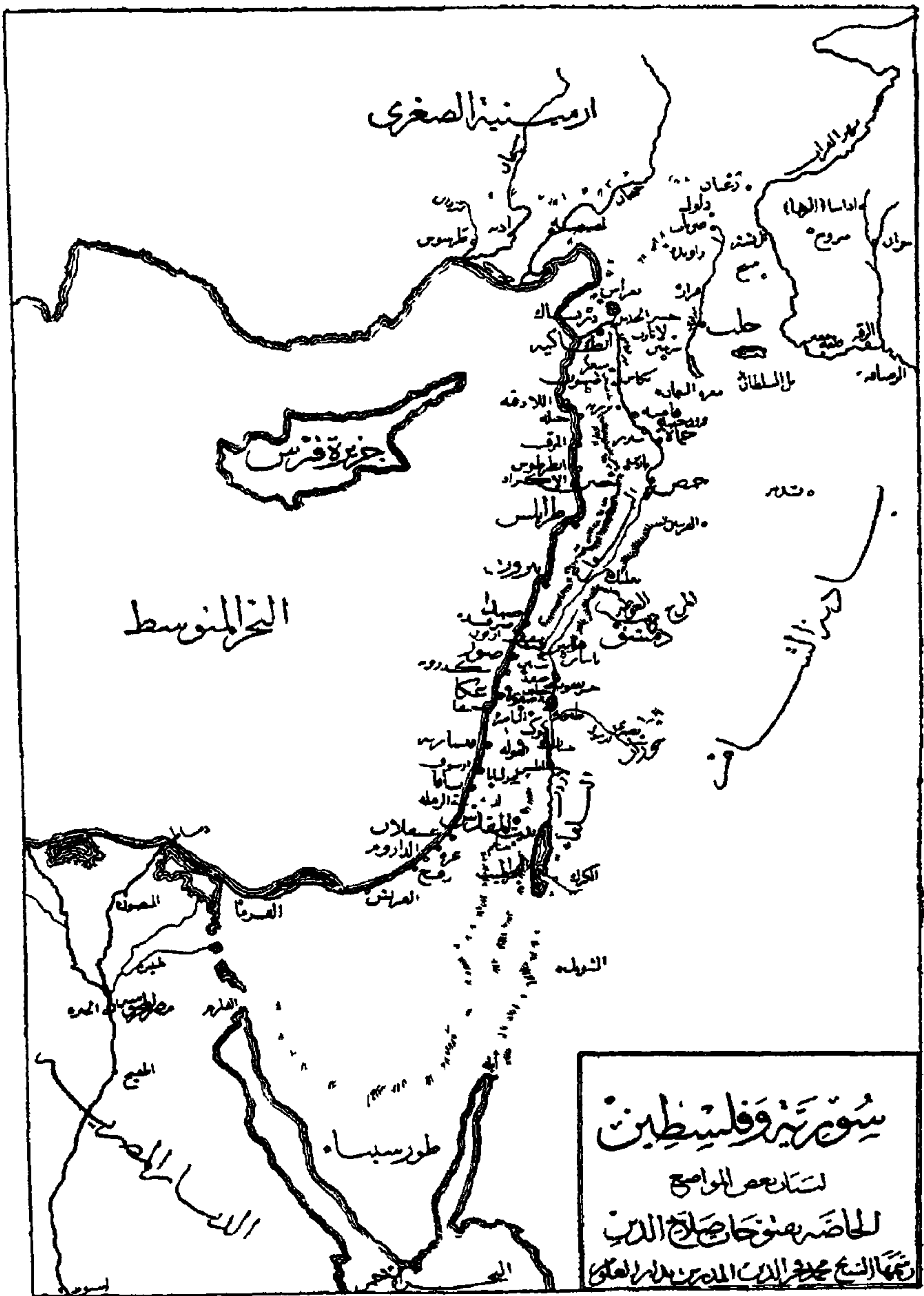
أضف إلى هذا ما لاقاه الأفرنج من الحاجة إلى المياه فى ميدان القتال وقد كانوا أرادوا الاستيلاء عليها حتى تلحق هذه الشدة بجيش السلطان ، فوقعوا فى شر أعمالهم ، وتضاعفت هذه الشدة بتسلط أشعة الشمس عليهم فى هذا اليوم الذى يقع فى شهر هو أشد شهور الصيف حراً ، ولا شجر يظللهم ، ولا ماء يروى ظمأهم ، فكان هذا كله أشد عليهم من جيش المسلمين فاضطروا إلى النكوص على عقبهم ليدبروا أمراً آخر ، ولم يجد المسلمون حينئذ بداً من أن يثبتوا فى مراكزهم حتى يروا ماذا يفعله عدوهم

أمر قوادُ المسلمين جنودهم بالعودة إلى خيامهم حتى يصبح الصباح ولكن الروح المعنوية فى جيش الأفرنج كادت تولى الأدبار إذ قضى القوم ليلتهم هذه فى ظلام حالك ملؤه اليأس والقنوط

أما حال المسلمين عندئذ فقد يلمحها الباحث ، إذ قضوا هـذه الليلة والأمل يشجعهم على منازلة الأفرنج ، واعتقاد الانتصار يقوى عزائمهم ويبعثهم على التهليل والتكبير والاستعانة بالله على الجهاد

أصبح الصباح وانتشرت حرارة الشمس المحرقة ، فأعانت المسلمين على الفتك بهؤلاء العطاش ، وهجم السلطان على الأفرنج هجوما عنيفا فرق ركبانهم عن مشاتهم . وتقهقرت فلولهم إلى التلال ، تلال حطين ، من شدة ما لاقوا من التعب والعطش الشديد ، وقد أخذ اليأس من قلب فريق منهم بقيادة ريموند كل مأخذ حتى استماتوا فى الخلاص من شر ما هم فيه ، وتمكنوا من ثلم صفوف المسلمين فى ناحية من نواحيها ، وولوا منها هاربين غير أن بعض المؤرخين يستدل بهذه الحادثة على خيانة ريموند كما قدمنا ، وقد قضى المسكين نحبه بعد ذلك بثلاثة أشهر . انسحب بقية الأفرنج إلى تلال حطين ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم فلم يمكنهم المسلمون من ذلك ، وكل ما قاموا به هو نصب خيمة للملك ، وفى مكان هذه الخيمة حصلت الموقعة الفاصلة ، فقد هجم المسلمون على الأفرنج الملتفين حول ملكهم ، والذين استبسلوا فتمكنوا من رد المسلمين مرتين ، إلا أنهم عجزوا فى المرة الثالثة على مقاومتهم ، فما لبثت خيمة الملك أن تداعت ركانها ، فانقض المسلمون عليها وأخذوا ما كان فيها ، وهناك عثروا على خشبة الصليب المقدس فأخذوها

ولقد وصل حال الافرنج إلى حد جعل فريقا من أتباع ريموند يذهب إلى السلطان فى خيمته ويقول له (أيها السلطان ، ما الذى يدعوك إلى



ارمينية الصغرى
جزيرة قبرس
البحر المتوسط
طور سيناء
حلب
حمص
دمشق
عكا
عسقلان
العريش
الكرك
انطاكية
اللاذقية
طرابلس
بيروت
صور
الفرما
سورية وفلسطين
لبيان بعض المواضع
الخاصة بفتوحات صلاح الدين
رسمها الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم

التأخر ، إنهض إلى القوم وانقض عليهم فأنهم لا يستطيعون الدفاع ، إنهم أموات »

وعلى أى حال فقد كانت الهزيمة منكرة ، إذ كانت سبباً فى سقوط الأمارات اللاتينية من أساسها ، وكان يوم ٢٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ (٤ يوليه سنة ١١٨٧) يوم شؤم على الأفرنج فى الشام ، إذ أسر المسلمون فيه الملك وصاحب الكرك وأخا الملك وغيرهم من وجوه قومهم وذوى الرأى فيهم ، فلم يبق لهم من يصلح بعد ذلك لولاية أمرهم ، ولم يعرفوا فى المدة التى قضوها من يوم أن جاسو خلال هاتيك الديار إلى هذا التاريخ مثل هذه المصيبة الفادحة التى عرضت ملكهم إلى الزوال ، بعد أن أسسوه بدماء غالية ، وأرواح كثيرة ، وأموال طائلة

أقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة اجتمع فيها بذوى الرأى من أتباعه وأخصائه ، فسجد الجميع لله شكراً على ما أنالهم من نصره ، ثم أمر بالأسرى فأحضر له الملك وصاحب الكرك ، فأجلسهما بداخل خيمته ، وقد أخذ العطش من الملك كل مأخذ ، فطلب ماء فأحضر له ماء مثلوج ، فشرب به إلا قليلا منه ناوله صاحب الكرك ، فقال السلطان حينئذ : « إنا لم نعطه هذا الماء حتى يكون آمناً منا على نفسه » ثم قام وأنب صاحب الكرك على سوء صنعه مع قافلة المسلمين ، وتطاوله على مقام النبوة ، ثم ضرب عنقه بيده تنفيذاً لوعده وبراً بيمينه وقسمه ، وعند ذلك رُعب الملك

فطيب السلطان خاطره وأمر به فأرسل إلى دمشق هو وبقية قومه بكل حفاوة وإكرام

ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان أمر بفريق من الأسرى يبلغ عدده زهاء (٢٠٠) فقتلوا ، وينكرون عليه فعلته هذه التي جاءت على غير ما اعتاد في معاملته الأسرى ، ويعدونها غلطة فظيعة ، ويجعلونها هي النقطة الوحيدة السوداء في تاريخه الأبيض ؛ ويقول استيفن سن في هذا المقام « إنه قتل الأسرى بلا ريب ، ولكنا لم نعرف سبباً لهذه المعاملة الحديثة » على أن هؤلاء المؤرخين جميعاً لو نظروا إلى أن هؤلاء الذين اختارهم السلطان للقتل من بين الأسرى هم أولئك الذين كانوا يعملون على الإيقاع بالمسلمين دائماً ، وأنهم هم الذين كانوا لا يوفون بعهد ولا ميثاق ، وأنهم هم الذين كانت تنقاد إليهم العامة ، وأنهم هم الفئة التي كانت تعادى المسلمين وتبالغ فيه أشد المبالغة من طريق التعصب الديني ؛ لو أنهم نظروا إلى هذا كله لأقروا بأن للسلطان عذراً فيما نسبوه إليه

ومهما يكن من الأمر فقد فرح المسلمون بهذا النصر فرحاً كبيراً ، حتى أخذ الشعراء والكتاب يصفون هذه الموقعة الهامة فقال أبو الحسن على بن الساعاتى من قصيدة

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنينا
وهان بك الصليب وكان قدما يعز على العوالى أن يهونا
وماء طبرية إلا هدىٌ ترفع عن أكف اللامسينا
قست حتى رأت كفؤاً فلانت وغاية كل قاس أن يلينا

قضيت فريضة الأسلام منها　　وصدقت الأمانى والظنونا
تهز عواطف القدس ابتهاجا　　وتُرضى عنك مكة والحجونا
لقـد جردت عزما ناصريا　　يحدث عن سناه طورسينا
فكنت كيوسف الصديق حقا　　له هوت الكواكب ساجدينا

وهى قصيدة طويلة . وكذلك قال العماد كثيراً ؛ وكأنى بشوقي بك شاعر مصر اطلع على هذه الموقعة فقال

يعرف الدين مَن صلاح ويدرى　　مَن هو المسجدان والأسراء
إنه حصنه الذى كان حصنا　　وحماه الذى به الاحتماء
يوم سار الصليب والحاملوه　　ومشى الغرب قومه والنساء
بنفوس ، تجول فيها الامانى　　وقلوب تثور فيهـا الدماء
يضمرون الدمار للحق والنا　　س ودين الذين بالحق جاؤا
ويهدون بالتلاوة والصلبـــان　　ما شاد بالقنا البناء
فتلقتهموا عزائم صدق　　نِصف للدين ينهن حباء
مزقت جمعهم كل أرض　　مثلما مزق الظلام الضياء
وسبت أمر الملوك فردتــــه　　وما فيـه للرعايا رجاء
ولو أن المليك خيف أذاه　　لم يخلصه من أذاه الفداء

وقد نشرت جريدة الشعب فى عددها رقم ٧٣٨ من السنة الرابعة سنة ١٩١٤ م قصيدة للأمير شكيب أرسلان مبعوث حوران متضمنة شيئاً من سيرة صلاح الدين وحروبه فقال عن واقعة حطين

فسل عنه فى حطين يوما عصبصبا　　غداة لواء الحق عزز حامله

وعن ملك الأفرنج وهو أسيره ... وأرناط إذ تبكي عليـه حلائله
هنا انتصف الشرق الأصيل من الذى ... أغار عليـه واستردت طوائله

وللحكيم أبي الفضل قصائد كثيرة فى صلاح الدين قال فى واحدة منها عن واقعة حطين

مالى أرى ملك الأفرنج فى قفص ... أين القواضب والعسالة السمر
والاسبتار إلى الداوية التأموا ... كأنهم سد يأجوج إذا استجروا
ياواقعة التل ما أبقيت من عجب ... جحافل لم يفت من جمعها بشر
وياضحى السبت ما للقوم قد سبتوا ... تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا
حطوا بحطين ملـكا كافياً عجبا ... فى ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى إليهم صلاح الدين مفترسا ... وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أزاءه زعماء الساحلين معا ... مصفدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا ... وحوله كل قسيس له زبر

بقى صلاح الدين حيث أقيمت له الخيام مدة يومه ، ولمـا أصبح عاد إلى طبرية وأراد منازلة قلعتها فراسلته زوج ريامو ند وقد علمت ما وقع فيه قومها فى حطين ، فطلبت منه الأمان فأمنها وهدأ روعها ، فخرجت هى وأولادها وحاشيتها وأوصلها إلى حيث أرادت بكل احترام وتجلة

تقدم السلطان بعد ذلك تقدماً سريعاً فى جهات فلسطين لا يصح أن يقال عنه إنه حرب أو نزال بل تتمة لما حازه من النصر فى واقعة حطين ، فما هو إلا أن يظهر أمام القلعة أو المدينة فتسلم له الأهالى والأجناد الذين ذهبت قوادهم وفنيت رجالاتهم وقل زادهم وعز نصيرهم وأسر ملكهم ،

ولقد ساعد السلطان فى حركاته هذه انحياز المسلمين فى تلك البلاد إليه ، ورغبتهم فى عدله وإحسانه ، وأمل الكثير من أسرى المسلمين فى أن يكون خلاصهم على يديه ، وحتى بعض الافرنج الذين ذاقوا ظلم اخوانهم رغبوا فى الانضمام إلى صفوفه ، فانحاز القوم اليه ولم يبق من يعارضه سوى الحاميات القليلة المنتشرة فى الأمكنة المختلفة ، والتى من واجبها أن تقف أمام العدو القادم ولكنه وقوفا سرعان مايزول لشدة المهاجم وضعف المدافع ، وعلى هذا فلم يصادف السلطان فى تقدمه أدنى معارضة

سار السلطان بعد أن تسلم حصن طبرية نحو عكا وحاصرها فامتنع أهلها أولا ثم لم يلبثوا أن استأمنوه فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، ثم خيَّرهم بين أن يقيموا ويدفعوا الجزية ، أو يرحلوا ، فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين ، وأخذوا معهم من المتاع ما أمكنهم حمله ، وتركوا الباقى للمسلمين ، فدخلوها يوم ٢ جمادى الأولى سنة ٥٨٣ (١٠ يوليه سنة ١١٨٧) وصلوا صلاة الجمعة فى جامع كان الافرنج قد اتخذوه كنيسة من يوم أن استولوا عليها . ووزعت الغنائم وكانت كثيرة جداً لأن المدينة فرضة يقصدها التجار من كل ناحية . أقام فيها السلطان قليلا يرتب أحوالها وينظم شؤونها ، ثم أمر أخاه العادل بالزحف من ناحية مصر ، فقام واستولى على حصن مجدل يابا ومنه سار إلى يافا فحاصرها وملكها وأسر كثيراً من أهلها

وكان السلطان أيام مقامه فى عكا قد أرسل السرايا إلى جهاتها ، فسار الجند إلى الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفوله فملكوها كلها

كذلك بعث بالرجال إلى نابلس فامتلكها بعد أن استولى على سبصطية وأرسل إلى تبنين ليستولى عليها ويقطع الميرة عن الأفرنج فى صور ، فنازلها الجند ووجدوا أن الموقف يحتاج السلطان ، فأرسلوا فى طلبه ، فذهب مسرعا من عكا حتى وصلها وحاصرها فاستأمنه أهلها ، ثم أخذ يسير نحو صيدا ، فاستولى من غير عناء على صرقند ، وما كاد يسمع صاحب صيدا خبر زحف السلطان حتى أمر أصحابه بالرحيل فأخلوا المدينة فاستولى عليها السلطان ساعة وصوله ، وفى اليوم التالى وصل بجنده إلى بيروت فامتنع أهلها بها ، فزحف عليهم من ناحية من نواحيها ، وبينما أهلها يجدون فى مقاومته إذ سمعوا صوتاً من بينهم يقول بأن المسلمين قد دخلوا البلد من الناحية الأخرى ، فارتفعت الجلبة وزاد الهرج والمرج واختل نظام المقاتلة حتى أصبح فى غير مقدور القواد أن يعيدوا الحال إلى ما كانت عليه ، فرضوا بالتسليم بعد حصار ثمانية أيام

أما استيلاء السلطان على جبيل فكان نتيجة فك أسر صاحبها من معتقله بدمشق ، وذلك لانه سمع بقدم السلطان إلى بيروت فتكلم مع حاكم دمشق وطلب منه أن يسلم بلده ويفك أسر المسلمين فيها إذا رضى السلطان إطلاق سراحه ، فأرسل إلى السلطان مكبلا ، فقبل السلطان شرطه وتسلم جبيل وأطلق سراحه ، وكان فى إطلاقه أذى كبير للمسلمين سنرى تفصيله بعد

لما رأى السلطان أن قد ثبتت قدمه فى تلك الجهات ، وجه همته نحو فتح عسقلان لانها كانت عقبة بين الشام ومصر ، ولانها كانت باب القدس

أيضاً ، ولم يوجه همه نحو صور التى كانت فى ذلك الوقت من غير قائد يقود الخليط الذى وصل إليها من كل النواحى التى افتتحها السلطان ، ظنا منه أنها من المنعة والقوة بحيث لا يستطيع فتحها ، فرأى أن يبقى على نشاط جنده بأرسالهم إلى جهات يمكن فتوحها بسهولة ؛ وأن يعزلها فيمنع عنها كل ما يمكن أن تنتفع به ، وهى غلطة للسلطان عادت على المسلمين بويل كبير ، ولولا بقاؤها فى يد الافرنج لطهرت البلاد الشامية كلها قبل أن يقضى السلطان بقية أيامه . غير أن بقاءها وقدوم كونارد من ناحية القسطنطينية إذ ذاك ، ووصوله إليها بأمواله الطائلة ، وتوسل أهلها إليه فى أن يحميها وأن يقوم على صيانتها ، جعل للأفرنج مركزاً يفدون إليه ، ورجلا يعتمدون عليه ، فكان من أمرها وأمرهم مع المسلمين ما سنراه بعد

ولولا قدوم هذا الرجل ، لتسلم صلاح الدين المدينة فى يومين ، لأن أهلها كانوا قد أخذوا يراسلونه فى التسليم على شروط ، ولكن بينما هم فى حالهم هذه إذ قدم عليهم هذا الأمير واشترط أن تكون المدينة له دون سواه ، فقبلوا ، فأخذ يصرف أمواله فى حفر الخنادق وتجديد الاسوار وإقامة الابراج وتدريب الجند حتى غير مركز الافرنج بالساحل تغييراً لولاه لما بقى لهم أثر فيه ولما تمكنت الحملة الثالثة الصليبية من عملها

أراد السلطان أن يحول وجه هذا المركيز عن تحصين المدينة ، وأن يحتال عليه حتى يسلمها له ، وكأنه أدرك الخطر من مقدمه ، فأحضر أبا المركيز وكان أسيراً فى دمشق وعرض عليه أن يفك أسره إن هو كف عن العمل ، فلم يتحرك قلب كونارد وقال : إنه لا يتنازل عن حجر واحد

من أحجار المدينة لينقذ به أباه ، وإن والده هذا قد عاش طويلا فيكفيه ما قد عمر ، فليقتله السلطان إن شاء ؛ فلم ير هذا بدآً من إرجاع الرجل إلى محلة اعتقاله والرحيل إلى غيرها

فتوجه نحو عسقلان يوم ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ (٢٣ أغسطس سنة ١١٧٨) وحاصرها هو وأخوه العادل ومكثوا على حصارها أربعة عشر يوماً جاءوا فى أولها بملك القدس وعرضوا على الأهالى أن يفكوا أسره إن سلموا المدينة فامتنعوا ، فراسلهم الملك بنفسه فأبوا عليه ذلك ، فهاجمهم السلطان واستولى على المدينة سلخ جمادى الآخرة (٤ سبتمبر) وخرج أهلها بأولادهم ونسائهم وذويهم وأمتعتهم إلى القدس ؛ أما السلطان فقد بعث بالسرايا إلى جهاتها فاستولى على الرملة وفتح الداروم وغزة ومدن الخليل وبيت لحم وغيرها ، وأصبح ولا شئ أمامه إلا المسير إلى القدس نفسها

فى تلك المدة القصيرة من انتصار السلطان فى واقعة حطين حتى تملكه عسقلان ، أى فى مدة شهرين ، كان قد استولى على تلك النواحى كلها ، فكان حقاً علينا أن نلاحظ هذه السرعة الفائقة حد الوصف ، والتى لم يظهر بها السلطان فى غير هذا الوقت ، كما أنه يجب ألا نغفل عند سرد هذه الحوادث ما ظهر من ذكائه وبعد نظره فى الامور ، فقد انتهز الفرص وعرف كيف يستخدم الظروف ، فأفنى وقته وراحته فى سبيلها حذراً منه أن تضيع فما ضاعت

أصبح طريق القدس مفتوحاً أمامه ، فسير جندا من المخلصين لانقاذ المدينة المقدسة ، فساروا يشجعهم الشعور الدينى والاخلاص فى العمل له ،

والأمل العظيم فى النجاح ، لانهم ما كانوا إلا سائرين فى طريق الله ، كما كان الافرنج فى أول أمرهم فى تلك الديار ، وإليك ما أرسله أحد أسرى المسلمين بها على لسان المسجد الاقصى ، يخاطب السلطان عند ما فتح بلاد الساحل

يا أيها الملك الذى لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت وأنا على شرفى منجس

ولما كان السلطان يعرف لها هذه القيمة فى أعين المسلمين والأفرنج على السواء ، أراد ألا يتعرض لها بسوء ولا يمسها بأذى ؛ واختار دخولها بطريق صلح بينه وبين أهلها دون أن يسلط عليها من ناره الحامية ما يهدم أبنيتها ويهشم مساجدها وكنائسها ، وكأنه أراد أن يعيد سيرة سيدنا عمر رضى الله عنه فى فتحها مرة أخرى ، فأوفد الرسل إلى أهلها يطالب منهم التسليم على شروط وضعها ، قائلا لهم ما ترجمته — نقلا عن كتاب إستانلى لين بول « إنى على اعتقاد تام بأن القدس هى بيت الله المقدس كما تعتقدون ، وليس فى عزمى أن أتعرض لبيت الله بأذى الحصار أو ضرر الهجوم » بيد أن الافرنج أبوا عليه ما أراد من غير أناة ولا روية ، وعلى ذلك صمم السلطان ألا يأخذ المدينة بغير الطريق الحربى ، طريق السيف طريق الشرف والشهامة والأباء ، ولقد كانت المدينة فى ذلك الحين من غير قواد كغيرها من البلاد ، ولم يكن بها سوى بليان صاحب الرملة ، وقد كان من بين الأسرى فى واقعة حطين ثم استأذن السلطان

فى الرحيل إلى القدس ليأخذ امرأته وأولاده ، وحلف ألا يمكث بها أكثر من ليلة واحدة ، على أنه عند ما ذهب إليها ووجدها من غير قواد ، وأن الناس قد التفوا حوله ، وقد أتى إليه البطرك وأخذ يستميله للبقاء فيها ، وما زال به حتى أنساه عهده مع السلطان ، وكثيراً ما نسى القوم عهودهم مع المسلمين ، تأثر بليان فرضى البقاء معهم وتولى قيادتهم ، وكان قد تجمع فى المدينة عدد عديد من الرجال القادمين من البلاد المجاورة التى استولى عليها السلطان حتى بلغ عددهم ٦٠ ألفاً ، عدا النساء والأطفال ، فأخذ بليان يعمل على تحصين المدينة ، وفتح له البطرك كنوز الكنيسة يأخذ منها ما يشاء

لما أبى الافرنج على السلطان تسليم المدينة تحرك بجيشه نحوها وطاف حولها ثم خيم بالجهة الغربية منها يوم ١٥ رجب سنة ٥٨٣ (سبتمبر سنة ١١٨٧) وصمم على الاستيلاء عليها مهما كلفته من الدماء ، غير أنه ما كاد يظهر أمامها حتى وجد جمعاً غفيراً قد أخذ يدافع عن أسوارها ، فعلم أن المركز حرج ، وأن الواجب يقضى عليه بأن يبحث عن جهة أخرى ينازل المدينة منها ، لاسيما وأن الشمس كانت تعاكس المهاجمين فلا يستطيعون العمل إلا بعد الظهر ، أى بعد تحولها إلى الجهة الأخرى . على أن ابن الأثير يقول إن صلاح الدين طاف بالمدينة خمسة أيام ووصل أخيراً إلى جهة الشمال التى وجدها أصلح مكان لنزال الافرنج منه لضعف أسواره

ظن القوم أن رحيل السلطان عن الجهة الاولى رحيل عنها كلية فذهبوا إلى الكنائس يشكرون الرب ويقدمون له فروض الحمد لرحيل

عدوهم ، فأمضوا وقتهم فى سرور وفرح . جاهلين ما أخفاه لهم القدر ، غير عالمين بماعليه المسلمون إذ ذاك من قوة وعزم أكيدعلى دخول البيت المقدس مهما كلفهم ذلك ، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى رأوا أن السلطان قد اتخذ جبل الزيتون مركزاً لجنده وبدأ بهاجمهم وينازل مدينتهم نزال المستميت ، وهم فى داخلها يرون الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون مدينتهم المقدسة ، ويرون — كما يقول ابن الاثير — أن بذل أنفسهم وأموالهم وأولادهم بعض مايجب عليهم لحفظها . اشتد الفريقان فى القتال ، كل يراه ديناً وواجباً ، فلا يحتاج فيه إلى باعث يبعث فيه الهمة والنشاط ، واستمر القتال والنزال حتى تمكن المسلمون من عبور الخندق ونقب السور تحت وابل من قذائف الافرنج المتهالكين على الدفاع عن بلدهم العزيز ، ولكنهم لم يلبثوا أن حل اليأس بهم ، ولبست المدينة ثوب الحزن والهلع ، ورغب العامة فى التسليم ، والقادة فى الموت ، فأشار عليهم البطرك بأنهم بذلك يعرضون أولادهم ونساءهم إلى الذل والعبودية فى أسر المسلمين ، فقر قرارهم جميعاً أن يرسلوا رسولا إلى السلطان يطلبون الصلح ، واختاروا لذلك بليان ، فذهب وقابله السلطان بحفاوة وإكرام ، فلما سأله الصلح ، قال له السلطان « هل لمدينة وقعت فى الاسر أن تطلب شروطاً للصلح ؟ » رأى بليان امتناع السلطان فقال « أيها السلطان ، إعلم أن فى هذه المدينة خلقاً كثيراً لا يعلم عددهم إلا الله ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الامان ، ظنا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة ، فلو رأينا الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا

ونساءنا ، ونحرق أموالنا ومتاعنا ، ولا نترككم تغنمون ديناراً أو درهماً واحداً ، ولا تأسرون ولا تسبون رجلا أو امرأة أو طفلا ، فإذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها ، وألحقنا المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها ، ثم بعد ذلك نقتل مَن عندنا من أسرى المسلمين وهم زهاء خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم بعد ذلك نخرج إليكم فى جمعنا ، نقاتلكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه ، فلا يقتل الرجل منا حتى يقتل منكم أمثاله ، فنموت أعزاء أو نظفر كرماء »

فلما رأى السلطان من بليان هذا جمع قومه واستشارهم ، فأشاروا عليه بإيقاف الحرب ، والاتفاق مع القوم بما لا يخرجه عن يمينه التى حلفها ، بعد ما أبوا عليه الصلح . وانتهى الحال بأن عرض على بليان أن يسمح لهم بالخروج فى مدة أربعين يوما ، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين ، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير ؛ فرضى بليان ذلك وذهب إلى قومه وأعلمهم الحال ، فرضوا بها تحت عامل اليأس والجزع ، وتنفس الناس الصعداء ، وبكوا بكاء مراً ، وأخذوا يقبلون الأمكنة المقدسة مودعينها وداعا أبديا

وقد نظم ابن جبير قصيدة يمدح بها السلطان صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس يقول فيها

فضيلة فتح كان ثانى خليفة ... من القوم مبديها وأنت معيدها

بدأ السكان يجمعون متاعهم ويخرجون من حيث أمرهم السلطان حيث أقام العمال لتسلم الفدية منهم وهم مفارقون ، وكان أول يوم بدأوا

بالخروج فيه هو يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ (٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) يوم الأسراء ، فصدقت نبوءة محيي الدين قاضي حلب ، وقد أحضره السلطان ليكون خطيب القدس فى يومها الاكبر فى الجامع الأقصى بعد أن انقطعت فيه الصلاة هذا الزمن كله منذ احتله الافرنج ، وقد كان يوما مشهوداً لكثرة من حضر للصلاة

على أن هذه الفدية لم تقرر إلا على رجال الجيش وأتباعهم؛ ذلك لأن السلطان أذن للاهالى المسيحيين بالسكنى فى أملاكه ، يتمتعون بكل الحقوق المدنية ، كما سمح قبل ذلك للأفرنج الذين رغبوا فى أن يكونوا رعية له

مكث السلطان خارج المدينة حتى يغادرها من أراد ، لأنه رأى ألا يجرح عواطف علية القوم فيها ؛ فلما خرجوا دخلها ، والأمراء والكبراء والعظماء فى دولته حافين من حوله ، يقدمون له فرائض التبريك والتهانى

قام بليان بدفع ٣٠ ألف دينار فدية لطائفة المساكين والفقراء ، وقام الملك العادل فطلب من أخيه السلطان إعفاء سبعة آلاف ، وكذلك فعل السلطان بعشرة آلاف ، ويقول استيفن سن إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير فدية ، ويروى استانلى لين بول أن أرنولد يقول إن السلطان قد قضى يوماً من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية

وقد أذن لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والاموال ، فأخذوا معهم ما أرادوا دون أن يعترضهم فى ذلك

معترض أو يكدر صفوهم مكدر ، تاركين مالا قبل لهم بحمله ، فابتاعه المسلمون منهم

ولقد برهن السلطان بما أتاه من الاعمال فى هذا الأوان العصيب همته العالية ونفسه الشريفة وشهامته وكرمه وحنوه وشفقته التى لم يسبقه إليها غيره من أمراء وقته وملوك زمانه ، فلقد أمر القواد بالمحافظة على النظام والسكينة وعدم التعرض للقوم وهم يخرجون ، فلم يحدث ما يكدر صفوهم بأى حال من الأحوال ، ولم يقع أى مثل من أمثلة سوء المعاملة التى تحدث فى مثل هذه الظروف على أيدى الجنود الظافرة المنتصرة

رأى السلطان أن عدداً كبيراً من الأفرنج يحمل على ظهره والديه الضعيفين ، أو أقاربه المرضى ، فأثر فيه هذا المنظر أشد التأثير ، وهاله الأمر كثيراً ، ولم يطق صبراً على رؤيته ، فأمر بالمال فأعطى لهم ، وبالدواب فوزعت عليهم ، لتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس

ولقد كان شفقته بالنساء أكبر، واحترامه لهن أعظم، فقد كان بالقدس إذ ذاك إحدى نساء ملك من ملوك الروم ، وقد ترهبت وأقامت تعبد الله وتتقرب إليه ، والتف حولها خلق كثير من الخدم والأتباع ، وكانت ذات مال كبير ، فأمنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها

ولما استأذنته الملكة سيبيل فى الرحيل هى وأتباعها ، أظهر لها من الاحترام والتأسف على حالها ما أنطق الألسنة بالشكر له والثناء عليه ، خاطبها بكل حنو ورحمة ، سيرها إلى زوجها السجين بقلعة نابلس، وسمح لها بالمكوث فيها عنده ؛ وقد تبعها فى خروجها عدد عديد من النساء

الباكيات الحاملات أطفالهن بين أذرعهن، ولما اقتربن من السلطان تقدمن إليه وخاطبنه « أيها السلطان : أترانا الآن راحلات عن هذه الديار، ونحن بين زوج أو أم أو ابنة لأولئك الجند الذين لا يزالون فى أسرك، ونحن الآن نغادر هذه الدار إلى الأبد، وهؤلاء الجند الذين نتركهم هم عدتنا فى حياتنا وسلاحنا فى أيامنا ، فاذا مافقدناهم فقد فقدنا الحياة، أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم، وخففت بذلك آلامنا وأزحت بؤسنا وأبعدت عنا شقاءنا، فانا لا نكون على ظهر هذه الدنيا من غير مساعد أو عائل »

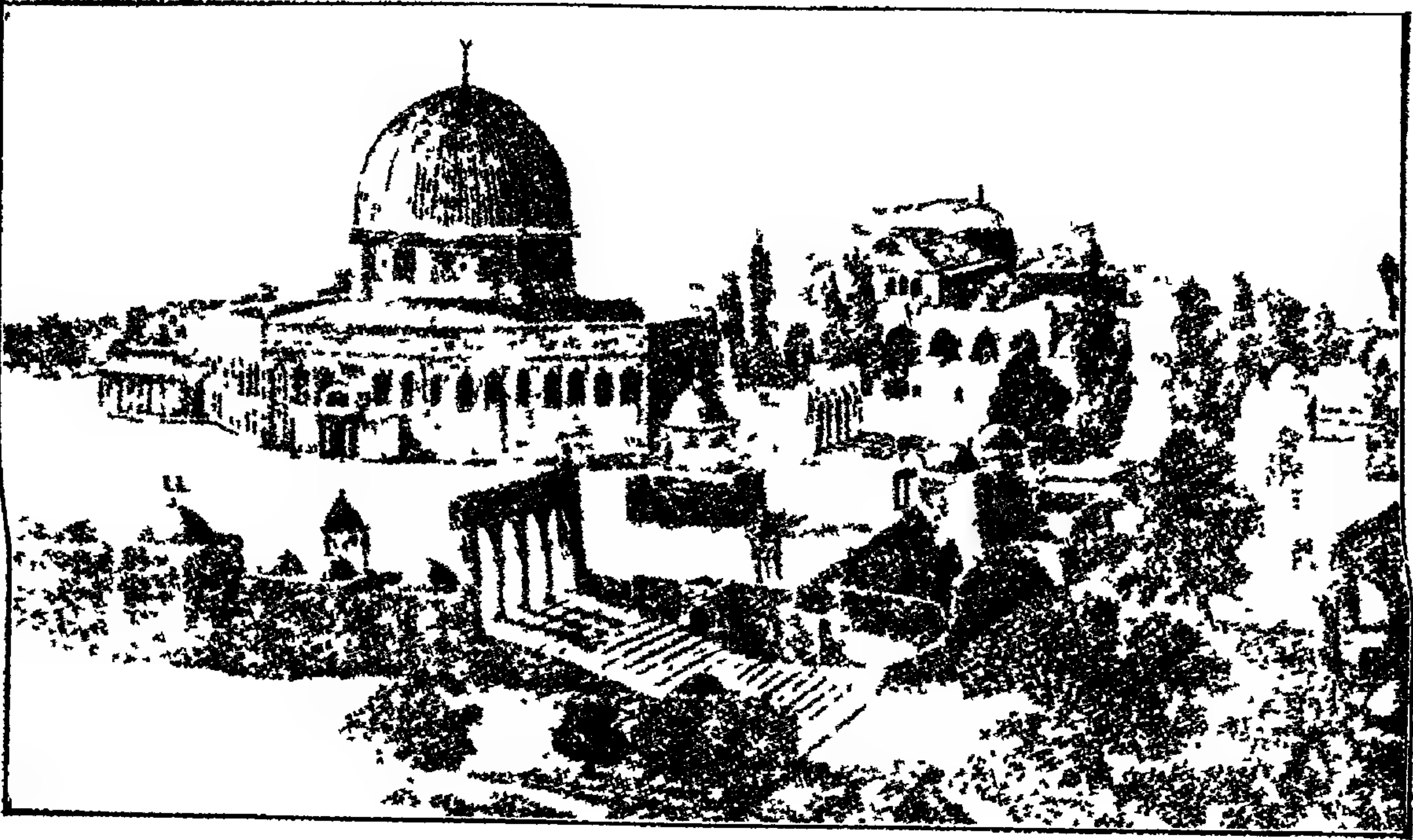
تأثر السلطان بما سمع وما رأى من بكائهن فبكى بكاء شديداً ، وأمر بأعطاء الأمهات أبناءهن ، والزوجات بعولتهن ، والبنات آباءهن ، وحلف ليعاملن من بقى فى الأسر بكل إحسان ورحمة

هذه المعاملة الحسنة من السلطان صلاح الدين للأفرنج كانت تخالف ما كانوا هم عليه فى معاملتهم حتى بعضهم بعضا ؛ وإليك ما يرويه الأمير على عن مل المؤرخ الانجليزى « ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى انطاكية ، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم، فطردهم ، فساروا على وجوههم فى بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب » ويزيد هذه وضوحا ما يرويه استانلى لين بول عن ارنول إذ كان موجوداً وقت هذه الحادثة ، وإنما يستبدل كلمة أنطاكية بطرابلس مضيفا إليها أن أهالى طرابلس لم يكتفوا بطرد المهاجرين ، بل أرسلوا فى أثرهم من نهب منهم متاع الحياة الذى خرجوا من القدس به . ويقول الأمير على أيضا «.ولقد وصف ميشود حال أولئك الذين طردوا من القدس وما لاقوه

من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الانسانية ، فقد تضور عدد منهم جوعا فى سوريا ، وهم على أشد ما يكون من البؤس ، وقد أغلقت طرابلس أبوابها فى وجوههم ـ ثم قال ميشود ـ وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقى بولدها فى اليم وهى تلعن أولئك المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤووها »

قيل للسلطان والبطرك خارج بأمواله وذخائره ، وكانت كثيرة جداً لم يصرفها فى فداء الفقراء والمساكين ـ كما يقول استانلى ـ بعد أن وصف البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان « لم لا تصادر هذا فيما يحمل ، وتستعمله فيما تقوى به أمر المسلمين ؟ » فقال لهم السلطان « لا آخذ منه غير العشرة الدنانير ، ولا أغدر به » وفى ذلك يقول استانلى « قد وصل الأمر إلى أن سلطاناً مسلماً يلقى على راهب مسيحى درساً فى معنى البر والاحسان »

على أنه ليست هذه هى المرة الوحيدة التى ظهر فيها صلاح الدين والمسلمون بمظهر الرحمة والشفقة مما لم يخطر على بال أولئك الغزاة أيام انتصاراتهم الأولى، فالتاريخ لا ينسى ما اقترفته أيدى جنود جودفرى عندما خطت بقدمها فوق أراضى القدس سنة ١٠٩٩ وإليك ما قاله ميشود عند دخولهم القدس كما جاء فى كتاب الأمير على « كان المسلمون يُقتلون فى الشوارع والبيوت ، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ اليه من نتائج النصر ؛ فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار ، وانزوى البعض الآخر فى القصور والأبراج وحتى فى المساجد ، غير أن هذا كله لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا » ثم يقول « ولقد



بيت المقدس

اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين ، فلم يسمع فى وسط هذا المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته ، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى » ثم يقول « ولقد انقطع عمل الذبح ريثما يؤدى القوم صلاة الشكر ، فلما انتهوا منها أعيدت المجزرة لحالها الأول » ثم يروى عن ميشود ما معناه « أما أولئك الذين أبقاهم ملل القوم من الذبح أو الأمل فى أموالهم فقد ذبحوا عن آخرهم بلا مبالاة ولا شفقة ، حتى اضطر المسلمون إلى أن يلقوا بأنفسهم من فوق المنازل ؛ وقد أحرق بعضهم وهم أحياء ، وسحب آخرون من أخبيتهم إلى الساحات العمومية وقتلوا على جثث القتلى هناك ؛ وما كانت مياه عيون النساء ولا صياح الأطفال ولا منظر المكان الذى عفا فيه المسيح عن قاتليه لتسكن من ثورة أولئك المنتصرين » واستمر الأمير على يقول « ثم أضاف مل قوله ؛ ولم يتحرك أى قلب حناناً ولا شفقة على أولئك الأبرياء ، ولم يتقدم إلى عمل البر والأحسان رجل واحد نحو ٧٠ ألف نفس ذهبت ضحية بلا ذنب »

جلس السلطان بعد رحيل القوم ينظم أمور المدينة ، فأمر بأصلاح ما تهدم من الأبنية ، وإعادة ما كان قد غيره الافرنج أيام مقامهم فيها ، فطهر المسجد الاقصى ، وأزال الصليب الكبير ، وكان لذلك رجة كبيرة من جانب المسلمين والافرنج على السواء ، الاولى رجة فرح وسرور ، والثانيـة أسى وتفجع وتوجع ، ثم أمر بمنبر يعمل للجامع فأخبر بأن

نور الدين محمود بن زنكى كان قد أوصى بعمل واحد لا يزال الى الا ن بحلب ، فأحضره وأخذ يرتب بناء المدارس وغيرها مما يعيد للمدينة رونقها وبهجتها وحياتها الاولى ، ثم أزال ما قد بنى فى الاماكن الطاهرة ، إلى غير ذلك من غسل الجامع بالماء وإزالة ما علق بالمحل من القاذورات

تقاطر الناس شاعرهم وناثرهم وعالمهم وكاتبهم ومؤرخهم ، ينثرون من آيات الشعر وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال ، وإليك شيئاً مما قاله أبو الحسن بن على الجوينى من قصيدة طويلة

جند السماء لهذا الملك أعوان   من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما   لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده   صيداً وما ضعفوا يوما وما هانوا
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والأ   سلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم   بأمر مَن هو للمعوان معوان
إذا طوى الله ديوان العباد فما   يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وقال محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبى المعروف بالجوانى نقيب الاشراف بالديار المصرية من قصيدة

أترى مناماً ما بعينى أبصر   القدس تفتح والفرنجة تكسر؟
ومليكهم فى القيد مصفود ولم   يُر قبل ذاك لهم مليك يؤسر
فتح الشام وطهر القدس الذى   هو فى القيامة للأنام المحشر
يايوسف الصديق أنت لفتحها   فاروقها عمر الامام الاطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده   ولأنت فى نصر النبوة حيدر

مكث السلطان يرتب الامور وينظم الاحوال نحواً من شهر ، حرك بعده الركاب نحو صور التى أسعدها الحظ بذلك الذى قدم إليها وهو كونارد كما سبقت الأشارة إليه : كذلك أسعدتها الأيام برضاء السلطان بذهاب أولئك الأجناد الذين كان يستولى على بلادهم وحصونهم ومعاقلهم إليها ، فتجمع فيها جند كثيرون كانوا حصنها الحصين ودرعها القوية ، وقام كونارد بتعميق الخنادق حولها وإقامة أسوارها حتى جعل نزالها أمراً عصيباً ونوالها شيئا مستحيلا ، فوق ما كان عليه مركزها من المنعة الطبيعية ؛ استدعى السلطان الأسطول ووقف على تل بقربها يراقب الموقعة ، غير أن الأسطول حبطت مساعيه ، وأسر الافرنج منه كثيراً . بيد أن المسلمين تقدموا نحو أسوار المدينة ، الا أن هجوم الشتاء وملل بعض القواد صير فك الحصار أمرا مقضياً ، فتقهقر السلطان وهو على أشد ما يكون من الـكدر ، لانه لا يستطيع إلزام القواد أن يعملوا على غير رغبتهم ، ولانه يعرف مقدار أثر مثل هذا التقهقر فى النفوس ، فرحل عنها فى أواخر شوال سنة ٥٨٣ (أوائل يناير سنة ١١٨٨) إلى عكا ، ولو أدرك هؤلاء القواد الراغبون فى ترك الحصار أن صور هى المدينة الوحيدة الباقية للافرنج ، وهى التى فيها الذخيرة والميرة وإليها يصل المدد ، ومنها تنبعث القوة ، لتيقنوا أن بقاءهم أمامها قليلا ، والاستماتة فى نزالها حتى تذعن لهم من أوجب الواجبات ومن أهم الأعمال ، ولـكن الله قدر ذلك فـكان فى بقائها خطر هدد المسلمين أياماً كما أنه بعث الامل فى نفوس الافرنج

وعلى هذا كان فى ارتداد السلطان عن صور تغيير فى حالة النصر

الذى حازه فى أيامه الماضية ، وإذن وجب علينا أن نذكر الخطأ الذى ارتكبه السلطان فى مسألة صور هذه ارتكب السلطان خطأ حيال صور أولا عند ما سلك سياسة ترك أهالى البلاد التى استولى عليها أحراراً يختارون البلاد التي ينزلون فيها أو يهاجرون إليها ، ولو أن جماعة من المؤرخين يقولون إن الغلطة ليست هذه إنما هى تأخيره الهجوم عليها من أول الامر ، غير أن هؤلاء يخطئون ، فقد تكون الحالة واحدة فى عكا مثلا لو تركها السلطان فى أيدى الأفرنج واستولى على صور ، فهل يرحل الاهالى إلا إلى بلاد حصينة تكون فى أيدى الافرنج لا فى أيدى المسلمين؟ لذلك أرى أن الخطأ لم ينتج من تأخير الاستيلاء على صور بل نتج كما قدمنا من السياسة التى جرى عليها فى فك الاسرى والسماح لهم بالذهاب أنى شاءوا

أما غلطته الثانية فقد نشأت من سرعته فى فك الحصار عن صور ، وعدم الثبات أمامها حتى تذعن ، وفشله فى إقناع قواده بضرورة استمرار الحصار ، إذ لولا تقهقرهم عنها لما تمكن الافرنج القادمون من أوروبا من الانضمام إلى إخوانهم فيها فشوه صورة الانتصار الذى أحرزه السلطان تشويها تاما . قد يكون للسلطان عذر فى ذلك ، فما كان القواد الذين معه إلا أمراء من ذوى الاقطاعات ، مختلفى المشارب والغايات ، وقد اشتركوا معه فى الحرب رغبة منهم فى الغنائم ، فلما رأوا أنفسهم وقد امتلأت أيديهم مما طمعوا فيه ، ملوا الحرب وآثروا التمتع بغنمهم فى ظلال الراحة والطمأنينة ، ورأى السلطان هذا باديا عليهم فى مواضع شتى ، فلم يجد بداً من مجاراتهم فيما يريدون

ويرى بعض المؤرخين أن للسلطان غلطة أخرى هي اقتصاره على حصار صور من البر ، ولو أنه حاصرها من البحر فمنع المدد الاوروبي عنها لسلمت إليه جوعا ، غير أن فيما قدمنا ما يكفي لتبرير ما فعله السلطان

ومهما يكن فقد هبت أوروبا عند ما سمعت باستيلاء المسلمين على القدس ، وأخذت أصوات القساوسة والرهبان تردد الدعوات في كل مكان حتى في الامكنة التي لم تصلها دعوة المنادين الاولين من الصليبيين ، وكان من أثر هذا اشتراك امبراطور الالمان في هذه الحرب ، كما أخذ ملك الانجليز رتشارد الملقب بقلب الاسد نصيبا كبيراً فيها ، وإن شئت فقل أكبر نصيب خلد له في التاريخ ذكراً يماثل ذلك الذي يحفظه لصلاح الدين

كل ما استولى عليه السلطان في هذه المدة هو حصن هونين ، وكان قد ترك حوله حامية تمنع عنه الميرة والذخيرة ، فاضطر الاهالي والجند إلى طلب الأمان من السلطان فأمنهم ، أضف إلى هذا أنه أقام على حصون الكوكب وصفد والكرك من يضيق عليها الحصار كيلا تؤذي المارة في طريقها إليه ، وفعلا انكمش أهلها فيها ولم يجسروا على الخروج ، فكفى الله المسلمين شرهم . على أن السلطان بعد مقامه في عكا قليلا سار في قلة من عسكره لمنازلة حصن كوكب ، اعتقاداً منه أن الحصن لايقوى على حربه ، ولكن خاب ظنه ، فخلف عليه من يقوم بحصاره ، وولى وجهه نحو دمشق فوصلها يوم ٦ ربيع الأول سنة ٥٨٤ (١٤ مايو سنة ١١٨٨) واجتمع بالعساكر الكثيرة فرحل بهم إلى بلاد الأفرنج وهي طرابلس وانطاكية،

فنزل بحصن الأكراد ومنه سار يختبر البلاد ثم عاد إلى الحصن ليقوم منه إلى الفتح ، فاستولى على أنطرطوس ، وفيها أطلق سراح الملك جوى بعد ان أخذ عليه المواثيق والعهود ليغادر الشام إلى أوروبا ، وألا يجرد على السلطان سيفاً مرة أخرى ، فذهب الملك إلى صور ، وأبى عليه كونارد رياستها قائلا إنه هو الذى حماها ، ولما لم يكن لدى هوى من الجنود مايرغم بهم كونارد عاد إلى طرابلس ، وفيها التف حوله عدد من بقايا الحملات الصليبية الماضية ، ومثله من الحملة الجديدة ، فنزل بهم على عكا مع إخوانهم أهل صور كما سيجئ بعد

سار السلطان بعد أنطرطوس حتى أتى مرقب ، فوجد أهلها قد أخلوها ، فسار إلى جبله واستولى عليها ، وكان قد جاءه قاضيها يطلب منه المسير إليها . سار السلطان بعدها إلى اللاذقية واستولى عليها بعد ثلاثة أيام من مهاجمتها ومنها ذهب إلى قلعة صهيون فامتلكها وامتلك ماحولها من القلاع ، فأخذ سرمينية وبرزية بعد أن أسر صاحبها وامرأته وأولاده وفيهم إبنة كانت عروساً قد فرق العسكر بينها وبين زوجها فى المعركة ، فأمر بالبحث عنه ورده إليها ، وهذه مكرمة كبرى من السلطان أخرى ، على أن ابن الأثير يقول إن صلاح الدين لما قارب أنطاكية سير صاحب برزية ومن معه إليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت زوج صاحب أنطاكية التى كانت تكاتب صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الاحوال التى تؤثر فأطلق هؤلاء من أجلها . يصح لنا أن نأخذ بهذا فقد امتدت أيدى النساء فى شؤن الافرنج حتى عده مؤرخوهم عاملا من عوامل الضعف الذى

لحقهم فى الشام كما تقدمت الاشارة إليه

افتتح السلطان بعد ذلك درب ساك وبغراس وهو حصن قريب من أنطاكية نفسها ، نخافه صاحبها ، فطلب منه الصلح والمهادنة لمدة ثمانية أشهر ، فقبل السلطان ذلك لما رأى من ملل العسكر الدفاع والنزال ، ولما كان لصاحب أنطاكية من الكلمة إذ ذاك ، لاسيما وأن طرابلس قد ضمت إلى أملاكه . سار صلاح الدين إلى حلب ومنها إلى دمشق فوصلها فى النصف الثانى من شعبان سنة ٥٨٤ (حوالى ٢٠ اكتوبر سنة ١١٨٨) وفيها صرف الجند جميعه إلا حرسه الذى أخذه ونزل به على صفد مع شدة البرد دون أن يبالى به ، ولم يتم ليلته حتى أقام آلات الدمار حولها وحاصرها ، واستمر الحصار نحواً من شهر سلمت المدينة فى آخره إليه ، فسار منها إلى الكوكب وأقام عليها الحصار وسط هطول الامطار وزمهرير الشتاء وزمجرة الرعد ووميض البرق ، يخوض بحرا خضما من الطين والأوحال ولم يكد ينتصف شهر ذى القعدة سنة ٥٨٤ (أوائل يناير سنة ١١٨٩) حتى سلمت الحامية ، وقد وصل إلى السلطان فى هذا الاوان خبر سقوط الكرك فى يد الملك العادل بعد أن أخرج الافرنج النساء والاطفال من شدة ما كانوا فيه من الضنك حتى أكلوا لحوم الخيل والدواب ، واضطروا بعد هذا إلى التسليم . ومما يجدر بنا ذكره هنا أن السلطان فتش على هذا النفر من النساء والاطفال واتباعهم ثم ردهم جميعاً إلى أهلهم وذويهم

ورغماً من هذا الظفر والانتصار فأن الخطر على أملاك السلطان ما زال محدقا ، وأن بقاء الافرنج فى صور ما فتىء يذبى بهذا الخطر

استولى السلطان على هذه القلاع كلها وكانت عقبة كبرى فى سبيله بين مصر والشام ، غير أن بقاء الأفرنج فى صور ، ومحاصرته لها الحصار الماضى ، وعدم تمكنه من التغلب عليها ، ثم الرحيل عنها من غير جدوى وقيام الافرنج فى أوروبا ينادون قومهم إلى حملة صليبية جديدة لاسترداد البيت المقدس من أيدى المسلمين ؛ غير مركز السلطان تغييراً كبيراً ، فأنه ما كادت تدخل سنة ٥٨٥هـ (سنة ١١٨٩) حتى أصبح السلطان فى مركز المدافع عن أملاكه ، لا يستطيع الهجوم على الافرنج فى بقاعهم ، ذلك لان كونارد فعل كل ما قدر عليه ، فاستطاع أن يكون من هؤلاء المهاجرين إلى صور جيشاً جراراً انتفع به اللاتينى انتفاعا كبيراً ظهر أثره فى نزال عكا وحصارها . زار السلطان القدس وغيرها لا ليرتب أمورها الادارية وأنظمتها السياسية فحسب ، بل ليتفقد كذلك الحصون والمعاقل لانه كان يرى أخطار زوبعة شديدة تهب من ناحية العدو ، فأراد الاستعداد لها ومقاومتها . فلقد رأى فى هذا الأوان أن الملك جوى لم يقم بتنفيذ وعده وهو مغادرة الشام إلى أوروبا حين فك أسره ، بل جمع الجنود فى طرابلس وتولى قيادتها ، كذلك علم السلطان أن مراكب الافرنج تأتى إليهم كل يوم بالأمداد والذخائر ، فأخذ يعد العدة لمقابلة هـذه الطوارىء كلها ، فجمع الجموع وعسكر بها فى مرج العيون يرقب حركات الأفرنج ليعلم أى الجهات يقصدون ، ولما كان هذا المكان قريبا من حصن شقيف أرنون قام السلطان بحصاره ، فتعهد صاحبه أن يسلمه للمسلمين بعد ثلاثة أشهر ، غير أنه لم يحتفظ بوعده فنقض العهد ؛ ولكن الحركة التى قام بها الافرنج

أمام عكا حينذاك للاستيلاء عليها استدعت أن يسارع السلطان إليها ؛ فترك أمام الشقيف من الجند من تكفل بتضييق الحصار عليه حتى سلم بعد سنة تقريباً

كان القصد من هذه الحركة التي قام بها الأفرنج أمام عكا استرداد البلاد التي فقدوها ، وكان أول من قام بهذه الحركة الملك جوى بمن تجمع حوله من العساكر ، بعد أن منعه كونارد من دخول صور ، وعدم السماح له بالوجود فيها بأى حال من الاحوال ، فاضطر جوى إلى المقام خارج أسوار صور بمن معه من الجنود الذين استطاع أن ينازل بهم طائفة من المسلمين وينتصر هناك عليهم ، ويظهر أن هذا النصر قد شجع جوى على السير نحو عكا ، ولما علم كونارد بمن اجتمع حول جوى ، وما قام به هو وأتباعه من مناوشة المسلمين والانتصار عليهم ؛ والتقدم بعد ذلك إلى عكا ، أسرع فلحق به بخيله ورجله ، وبدأ الفريقان فى حصار المدينة يوم ١٣ رجب سنة ٥٨٥ واستمر الحصار نحواً من سنتين ، وسبب تمكن الأفرنج من إطالة الحصار هذه المدة هو تدفق سيل القادمين من أوروبا عقب نداء أهل الدين فيها بانقاذ البلاد المقدسة من أيدى المسلمين والدعوة إلى حملة صليبية جديدة

أغفل السلطان صلاح الدين ما كان من شأن الذين تجمعوا حول الملك جوى ، ولو أنه قضى عليهم لما انضم كونارد إليهم ، ولما حوصرت عكا هذا الحصار الذى سبب سقوطها ، وشجع الأوروبيين على العمل لاسترجاع الأراضى المقدسة ، فتدفقوا كالسيل من كل ناحية

وجه السلطان عنايته كلها إلى حصار الشقيف ، وترك جوى يتقوى رويداً رويداً ، ولم يتدارك عكا إلا بعد أن كان هذا الملك هو ومن اجتمع إليه قائمين على حصارها

تلك غلطة لا يصح السكوت عليها ، فأنا لا نستطيع أن نعلل كيف يترك السلطان صلاح الدين ، وهو الذى عرفنا عنه فيما سبق بعد النظر والتبصر فى الأمور ، الملك جوى تتضاعف قوته ، فوق ما يعلم من تجمع المسيحيين فى صور ، دون أن يقوم فيشتت شمله ويفرق جمعه . هذه غلطة كبرى لا بد من ذكرها والتنبيه عليها وإضافتها إلى غلطاته السالفة من ترك الجنود تتجمع فى صور ، وفكه أسر كبار القوم بمجرد يمين يقسمون بها على أنهم لا يشهرون فى وجهه سلاحاً ، لاسيما وقد علم أكثر من مرة مقدار محافظة الأفرنج على أيمانهم ومواثيقهم مع المسلمين ، ولا أجد أمامى مبرراً لهذه الغلطات إلا واحدة من اثنتين ، فأما أن يكون كريماً متساهلا إلى هذا الحد الضار ، ويكون هذا التساهل نفسه غلطا فاحشاً ، إذ الواجب على من بيده مقاليد أمم لا أمة واحدة أن يكون حازماً بصيراً شديد الحرص ، وإما أن يكون قد أخذ منه الورع والتمسك بآداب الدين جداً جعله يثق وثوقاً تاماً بمن يبرم معه أمراً أو يقطع معه عهداً ، على أننا لا نلتمس له عذراً فى فعلته هذه ، ولا نحاول تبرئته من الخطأ الذى عرض به البلاد لخطر كانت بعيدة عنه بعداً كبيراً

استصغر السلطان أمر جوى ومن اجتمع إليه من الجنود ، فكانت

نتيجة ذلك أن تمكن الأفرنج من الاستيلاء على عكا وغيرها من بلاد الساحل ، وإليك بيان الحال

وصل جوى ومن معه إلى عكا ، فضرب الحصار عليها من جهتين تمنع وصول المدد إليها من البر ، وسمع السلطان بمسيره فأراد أن يقف فى طريق المدد إليه ، ولكن امراءه أشاروا بأن يسارع إلى ميدان عكا نفسه ويهاجم الذين حاصروها ، ففعل ، بيد أنه ما كاد يصل إلى ميدان عكا حتى وجد الأفرنج على حصارها ، وهنا تريث قليلا حتى تبدوا من الأفرنج حركة عدائية نحوه ، وتريثوا هم أيضاً ، والأمداد تصل إلى الفريقين حتى ضاق بهم سهل عكا ، ثم بدا للسلطان أن يبادرهم بالهجوم ، فانقض عليهم بمن معه دفعة واحدة ، فأزاحهم عن أماكنهم ، وفتح الطريق إلى المدينة فدخلها قسم من الجيش ، ويقول هنا استانلى إن السلطان نفسه قد دخل المدينة وكان هذا فى عصر يوم ٢ شعبان سنة ٥٨٥ (١٥ سبتمبر سنة ١١٨٩)

أقبل الليل فعاد المسلمون إلى معسكرهم طلباً للراحة ، وهنا يقول ابن الأثير « ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل ، لبلغوا ما أرادوه فأن للصدمة الأولى روعة ، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر ، أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال ، وقالوا نباكرهم غداً ونقطع دابرهم » فلما أصبحوا وأرادوا نزال الأفرنج ، امتنع هؤلاء حتى يحصنوا مراكزهم ويحفروا ما شاءوا من الخنادق ، استعداداً لما يريدون القيام به من الأخذ بالثار ، وقطع ذلك الطريق الذى استولى عليه جند السلطان ، ولم تكد تبزغ

شمس يوم ٥ رمضان سنة ٥٨٥ (٤ اكتوبر سنة ١١٨٩) حتى حمل الافرنج على المسلمين حملة صادقة أزاحتهم عن أمكانهم ، وشتت شملهم ، وردتهم على أعقابهم ، وكانت هذه الهزيمة هي ودخول الشتاء ، وحلول شهر رمضان ، وإلحاح الأمراء عليه بالرحيل ، مما اضطر السلطان إلى السير برجاله إلى الخروبة تاركا الأفرنج وعكا إلى يد القدرة تصرفهما كما تشاء ، فكان في رحيله قوة للأفرنج ، إذ أخذوا يحصنون مواقعهم على مهل وهم آمنون مطمئنون

أحزن السلطان ما رآه من نشاط الأفرنج وتراخي المسلمين ، وعلم مقدار الخطر المحدق به ، فراسل الجهات يطلب الأمداد ، ومكث طول الشتاء حيث أقام حتى عوفي من مرض ألم به ، والتفت حوله الأجناد ، فقام بهم إلى حيث كان يقيم أولا في تل كيزان لمنازلة الأفرنج ، وكان وصوله إليه يوم ١٧ ربيع أول سنة ٥٨٦ (٢٥ ابريل سنة ١١٩٠)

أما الأفرنج فقد أعدوا أثناء الشتاء من آلات التدمير ما وصلت إليه قدرتهم ، وأقاموا ثلاثة أبراج ليقذفوا منها على المدينة قذائفهم الجهنمية ، فأخذ السلطان بعد أسبوع من مقدمه في مناوشتهم حتى يوجههم إلى قتاله فيضطرهم إلى ترك المدينة ، غير أنهم كانوا إذ ذاك من القوة بحيث استطاعوا أن يقاوموا نزلات السلطان ، وأن يستمروا على ضربهم المدينة

قام الجزء الذي خصص نفسه لقتال السلطان بهجوم عنيف ، وحمل حملة زحزحت جزءاً من جيش المسلمين عن مركزه ، واضطرته الى الهرب ، فوصل بعضه إلى طبرية ، والبعض الآخر إلى دمشق ، ووصلت جنود الأفرنج مخيم السلطان ، فبعدت عن مراكزها ، وهنا تمكنت بقية القوة

الاسلامية من مهاجمتها فألحقت بها ضرراً بليغا لا يقل عما لحق بالمسلمين

أما الابراج فظلت تقذف النار على المدينة دون أن يتمكن الاهالى من إحراقها ، فيئسوا وأيقنوا الهلاك ، وبينما هم على هذا اليأس إذ ظهر شاب دمشقى كان فى المدينة قبل حصارها ، وزعم أنه خبير بأحراق هذه الابراج ، فلم يعبأوا به ، لكنه قام من نفسه وألقى المقذوفات على أبراج الافرنج فأحرقها بمن فيها ، وكان ذلك يوم ٢٧ ربيع اول سنة ٥٨٦ (٥ مايو سنة ١١٩٠) فسقط الافرنج فى أيديهم وفرح المسلمون فرحا شديداً

وصادف أن وصل أصطول مصرى ، فقامت معركة بحرية بينه وبين مراكب الافرنج ، تمكن الاسطول المصرى عقبها من الدخول إلى ميناء عكا سالماً يوم ٨ جمادى الاولى سنة ٥٨٦ (١٤ يونيه سنة ١١٩٠)

وصل إلى علم السلطان فى هذا الاوان مقدم أمبراطور الالمان فردريك الاول الملقب باربروس بجيوشه عن طريق البر ، فأرسل إليه من يراقب حركاته فى جهات الشمال ؛ غير أن الله كفى المسلمين شره وشر جنده ، فغرق الامبراطور فى نهر سالف يوم ٤ جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ (١٠ يونيه سنة ١١٩٠) ويقول بعض المؤرخين إنه غرق وهو يستحم ، وغير هؤلاء يقول إنه سقط عن جواده وهو يعبر النهر المذكور ؛ وعلى أى حال فقد كان هذا وما وقع فيه الجيش من التعب والجوع ماقد فرط عقده وشتت جمعه ، فرجع أكثره وتمكن الباقى من الاتصال بأخوانهم أمام عكا ، وإن كان ابن الأثير ينكر هذا ويقول إن هذه البقية غرقت فى البحر وهى عائدة إلى بلادها

علم السلطان بهذا ففرح فرحا عظيما، واغتبط المسلمون اغتباطا كبيرا، وكانوا يومها قد كسروا الأفرنج الذين على عكا أبشع كسرة ، ثم أزمعوا قتالهم من الغد ، لكنهم انشغلوا بهذه البشرى فأهملوا القضاء على بقية الأفرنج الذين كانوا يومئذ على وهن شديد

ثم وصل بعد ذلك بيومين الكونت هنرى وكان معه مال كثير ورجال عديدون ، فقوى بهم عزم من كانوا على عكا ، لاسيما بعد أن أخبرهم أن البحر يحمل إليهم مدداً عظيما ، وكان من واجب المسلمين إذ ذاك ملاقاتهم ومنازلتهم حتى يضعفوا أمرهم ويهدموا من قوتهم ماقدتجدد، غير أنهم رأوا الانسحاب إلى الخروبة يوم ١٠ شعبان سنة ٥٨٦ (أول أغسطس سنة ١١٩٠) ليوسعوا نطاق الموقعة ، وليضطروا الافرنج إلى التحول من خنادقهم ، فيقل ضغطهم على عكا ، ولكن هذا الانسحاب قوى عزيمة الافرنج ، على التضييق عليها ، وكانت الذخيرة قد قلت لدى الطرفين ، فأرسلت بيروت سفينة مشحونة بالميرة والذخيرة من كل نوع ، ووصلت عكا بعد أن رفعت صلباناً عليها ، ولبس بحارتها لباس الأفرنج ، فلم يتعرضوا لها ، وكانت لا تنقطع المناوشات ولا تقف الأعمال الحربية طول هذه المدة لحظة واحدة ، فقد أقام هنرى تلا ليحمى وراءه ما يريد إقامته من الابراج ، وصار يتقدم بالتل حتى قارب أسوار المدينة ، والابراج وراءه ، ولولا هذا التل ما تمكن الافرنج من اقامة أى برج ، وإقامة هذا التل كانت آخر حيلة وصلوا إليها ليأمنوا الخطر أثناء عملهم ، فكان حصنهم ودرعهم التى وقتهم سهام المحاصَرين

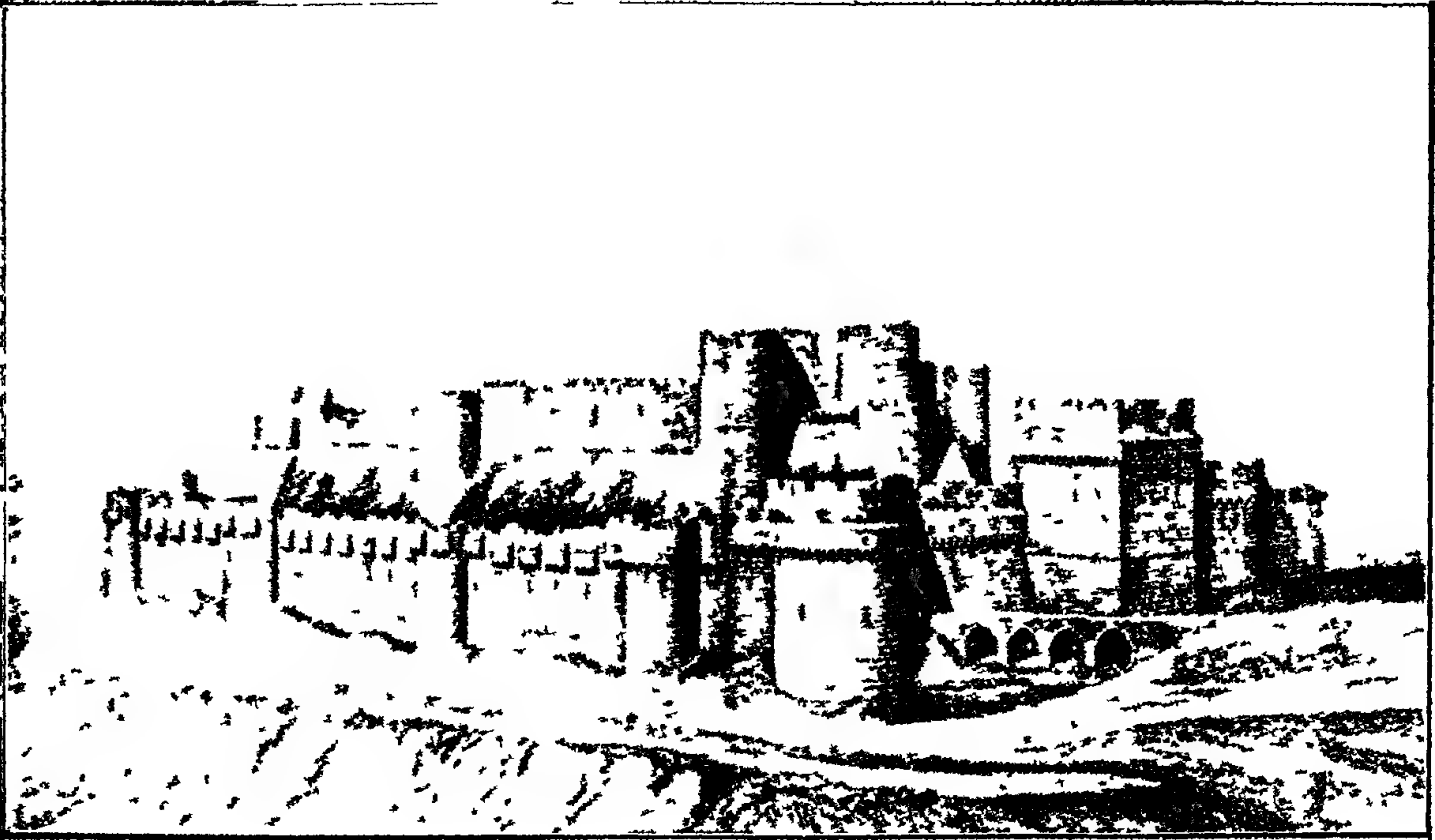
جاء الشتاء التالى فلم يجد أسطول الافرنج بداً من الرحيل إلى صور أوغيرها ليأمن شر الزوابع ، فانفتح طريق البحر إلى عكا ، فأمر السلطان بتغيير الجند ، غير أن الذى خرج ليستريح لم يستبدل إلا بعدد قليل لا يكافئ نصف الذى خرج ، ووثق السلطان بنوا به فيها ، فأهمل مراقبتهم وتوانى عنهم ، ففرقلت حركة التجنيد ؛ وقد أشير عليه أن يرسل بالنفقات الكثيرة إلى من بعكا ويستبقيهم فيها لأنهم قد ألفوا نزال الافرنج بها ، وعرفوا كيف يدافعون ، أما الذاهبون إليها فانهم يقصدونها وهم كارهون ذلك ، فلم يقبل ظنا منه أن من بها قد مل نزال الافرنج ، فكان هذا هو ووصول الامداد إلى الأفرنج من أوروباسبباً فى ضياع عكا بل وضياع جزء كبير مما استولى عليه المسلمون من قبل

وصل فيليب أغسطس ملك فرنسا فى عدد ليس بالقليل يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٥٨٧ (١٩ إبريل سنة ١١٩١) فقوى أمل الافرنج وشد من عزيمتهم ، وأخذوا يعملون لمضايقة المدينة ، ثم تبعه رتشارد قلب الأسد يقود أسطولا ، فلما وصل إلى مياه قبرص تخلف بجزء من الاسطول للاستيلاء على الجزيرة ، وفعلا تم له ذلك ، وسار الجزء الآخر يقصد عكا، لكن أساطيل المسلمين فى بيروت التقت معه فى البحر وأوقعت به ، ثم تحرك رتشارد نحو عكا فوصلها يوم ٣ رجب سنة ٥٨٧ (٢٨ يوليه سنة ١١٩١) فصادف سفينة للمسلمين بها مدد كبير ، فقاتلها حتى كاد يستولى عليها ، فعمد ربانها إلى إغراقها فخرقها ، وبذلك غرقت هى ومافيها، فكانت خسارة كبيرة على عكا لاحتياجها إلى الرجال والقوت بسبب ماقدمنا من تغيير

الجند وتلاعب نواب السلطان . ويقول الأمير على أن قد مرض فى هذا الأوان ملك الانجليز وملك الفرنسيس ، فأرسل إليهما صلاح الدين ثلجاً وشراباً بارداً وفواكه وغيرها وظل على هذا مدة مرضهما

تمكن هذا الجمع الكبير من حصار المدينة برا وبحرا ، فأقام من وسائل الهجوم ما قد أوقع أهلها فى شدة ما بعدها شدة ، فكتبوا إلى السلطان ، فحزن حزناً شديداً لعدم استطاعته تخفيف شدتهم وإبعاد الاذى عنهم

راسل أمير عكا الافرنج فى الصلح ، وقال لهم « عندما استولينا على هذه المدينة سمحنا لجميع السكان بكل مايشاءون ، فوهبنا لهم حرية الذهاب إلى حيث يريدون ، يحملون معهم أمتعتهم وأسلحتهم وبضاعتهم وأهليهم ؛ وهانحن اليوم نعطيكم المدينة على أن تعاملونا بمثل ماقد عاملنا به قومكم من قبل » فأبوا عليه ماطلب ، وراسلوا السلطان فلم يقبل ما قدموا من شروط ، بل عمد إلى حيلة ليتمكن بها من الاتصال بأهل المدينة فى جنح الليل ، لكن أدركهم الصباح ، فانكشف الأمر وأخذ الافرنج يوقعون النكال بالمدينة ، فخرج الوالى إليهم وصالحهم على مايريدون. فراسلوا السلطان فى مال يؤديه ، وأسرى يفك أسرهم ، ورد الصليب المقدس. قبل السلطان ذلك كله نظير أن يخلى الافرنج سبيل من فيها من المسلمين؛ غير أنه مالبث أن علم أن القوم يريدون المكر به ، فامتنع ، فحملوا على المدينة ودخلوها يوم ١٧ جمادى الثانية سنة ٥٨٧ (١٢ يوليه سنة ١١٩١) بعد أن وهنت همة من بها من المدافعين ؛ وهناك عادت أعمال الوحشية إلى حالتها الاولى ، فشبع أهالى عكا ذبحا وقتلا ، ويقول استانلى « وقام ملك الانجليز



حصن الاكراد

رتشارد يوم ٢٣ رجب سنة ٥٨٧ (١٦ أغسطس سنة ١١٩١) فقتل ٢٧٠٠ مسلماً أمام معسكر المسلمين والأفرنج ، من غير أن يتحرك قلبه من شدة بشاعة هذه المجزرة العظيمة » فسالت الدماء بحوراً ، وسبحت فيها الأرواح سبحاً . وإن أردت أن تقف على بشاعة هذا المنظر فاقرأ ما يقوله استانلى عند الاستيلاء على عكا ، ولم يبق الافرنج إلا على من كان ذا مال يطمعون فيه « ولم تذهب عكا بلا ثمن — كما يقول الأمير على — فقد كلفت المسلمين ٦٠ الف نفس »

أما الأفرنج فأنهم عند ما استولوا عليها انغمسوا كعادتهم فى المسرات والملاذ ، فقال ميشود « ولقد تمتع الأفرنج المنتصرون واستراحوا راحة فى عكا ما سبق لهم بها مثيل منذ جاءوا إلى سوريا ، فمسرات السلام وكثرة الطعام والنساء اللائى حضرن من الجزر المجاورة القريبة ، كل هذه أنستهم وقتاً ما مهمتهم التى جاءوا من أجلها »

قامت القوتان الأسلامية والافرنجية تنازع كل منهما الاخرى امتلاك هذه المدينة ، وقامت أوروبا بأسرها والعالم اللاتينى كله فى آسيا يناوىء قوات السلطان صلاح الدين من ١٣ رجب سنة ٥٨٥ (٢٨ يوليه سنة ١١٨٩) إلى ١٧ رجب سنة ٥٨٧ (١٢ يوليه سنة ١١٩١) فكان من المنتظر بعد هذا كله أن ينال الافرنج بجموعهم هذه من السلطان شيئاً كثيراً ، فيتمكنوا من إيقاع الهزيمة بالمسلمين إلى الحد الاقصى ، ويستردوا كل ما فقدوا من البلاد ، لكنهم لم يستولوا بعد حرب دامت سنتين إلا

على مدينة واحدة ، وبقى عدوهم فى قوته ومنعته لم يمسس جيشه أذى كبير. على أن الأيام قد علمت السلطان أكثر من هذا ، فانه وثق أن جيشا كبيراً كجيش الافرنج يتركب من عناصر مختلفة اللغات واللهجات والعوائد والاغراض والمطامع ، لا يمكن أن يثبت على شكل واحد ، فلا يرتبط برابطة واحدة أمداً طويلا ، بل لابد من وقوع التحاسد فيما بين القواد فيحل الشقاق محل الوفاق ، وتقوم المنازعات مكان الرابطة والوحدة

نعم عرف السلطان كل هذا مما سبق فجرى على مسرح مملكة اللاتين فى آسيا ، فجعل يتربص بهم السوء وينتظر الفرص الملائمة للعمل ، وما هى إلا أن هب رتشارد وفيليب وقاما يتنازعان الرياسة ، فأعادا للعالم كله ذكرى تلك المشاغبات التى أودت بمملكتهم وذهبت بسلطانهم ، ولم يكن النزاع قاصراً بين هذين الرجلين فحسب ، بل قام جوى وكونارد ينازع كل منهما صاحبه تاج مملكة القدس الضائع ، وانحاز كونارد إلى فيليب ، وجوى إلى رتشارد ، ويصح أن يكون هذا الانحياز هو الذى أوجد النزاع ، وسبب الشقاق بين هذين الملكين ، ذلك الشقاق الذى أدى بفيليب إلى مغادرة البلاد المقدسة ، منتحلا لرحيله من الاعذار ما شاء ، فغادر البلاد يوم ٧ رجب سنة ٥٨٧ (٣١ يوليه سنة ١١٩١)

رحل فيليب وخلف جزءاً كبيراً من جيشه لا تحت قيادة رتشارد بل بقيادة كونارد الذى أراد أن ينال أكثر مما قد نال ، حتى قيل عنه أنه راسل السلطان صلاح الدين سراً وأراد الاتفاق معه على انفراد

كان من واجب رتشارد ، لو أنه من السياسة بمكان ، أن يزيل هذا

الخلاف ويوحد كلمة القوم ليضرب العدو المتربص به ضربة تقضى على آماله وأعماله ، لكنه لم يفكر إلا فى أن يقود جيشاً جراراً ينازل به عدوه العنيد ، وكان يرى أن أجل خدمة يؤديها للصليب هى استرداد بيت المقدس فحسب ، على أنه رغم هذا الاعتقاد ، لم يصر على عزمه ، بل كان يخضع لرأى من معه ممن حببوا إليه ألا ينفذ عزمه على فتح القدس ، لبعد الشقة بيد أنه فوق هذا كله قد تباطأ فى حركاته وأعماله حتى انتهى به الحال إلى أن عزم على الرحيل إلى أوروبا نهائياً ، فكانت عودته هذه آخر الضربات المهلكة التى قضت على كل أمل فى استرداد القدس وغيرها

هذه هى نتيجة الحصار والدفاع عن المدينة التى اشرأبت نحوها أعناق المسلمين والافرنج ، ودافعوا عنها دفاع المستميت مدة سنتين ، وتلك هى آثار انتصار من انتصر ، ولم يعد للافرنج من دواعى الاقامة فيها ، بعد أن رتبوا شؤنها ، سوى اختيار الجهة التى يغيرون عليها ، فقر قرارهم فى النهاية على المسير إلى عسقلان ، ليعدوا منها حملة على بيت المقدس

قام القوم من عكا يوم ٢١ رجب سنة ٥٨٧ هـ (٢٢ أغسطس سنة ١١٩١ بحذاء الشاطىء لتحميهم سفنهم من نيران المسلمين . غير أن حال الجند فى مسيرهم هذا كان غاية فى الشدة لما كان ينقصهم من الدواب ، فاضطر كثير منهم أن يحمل ما كانت تحمله الدواب ، هذا عدا ما كانوا عليه من التعب والنصب ، حتى اضطروا أن يحطوا رحالهم من وقت إلى آخر للراحة من عناء ما هم فيه

وصلوا يافا فى يوم ١٨ شعبان (١٠ سبتمبر) بعد أن أوقع المسلمون

بهم وقتلوا منهم عدداً ليس بالقليل، وما كادوا يصلون إلى يافا حتى أجمعوا أمرهم على ألا يسيروا إلى غيرها ، بل يتخذونها مركزاً يعدون منه حملتهم على بيت المقدس

غير أن رتشارد صمم على استمرار المسير إلى عسقلان كما كانت الخطة من قبل ، فأمر السلطانُ صلاح الدين بأخلاء المدن الواقعة فى طريقهم وهى حيفا وقيسارية وأرصوف ويافا فأخليت ثم خربت حتى لا يجد فيها الأفرنج ملجأ يلجأون إليه ، ورغماً من هذا فقد وقعت الواقعة بين الطرفين بالقرب من أرصوف ، انهزم فيها المسلمون انهزاماً شنيعاً ، ولكن السلطان لمّ الول جيشه وسار بهم يطارد الافرنج الذين أبوا ، رغم هذا النصر، أن يتعرضوا إلى حربه حتى وصلوا يافا ، فتوجه السلطان إلى الرملة ليحفظ طريق القدس ، ولم يتحرك الأفرنج من يافا إلا بعد شهرين كاملين ، تمتعوا فيهما بكل أنواع الملاذ والملاهى . وقد انغمسوا فى الشراب وحضرت النساء اللائى كن قد منعن المسير مع الجيش من عكا وكن سبب كل هرج ومرج وقع فيه حتى تألم رتشارد من سوء الحال المعنوية التى وصلت إليها جنوده

أخذ رتشارد فى تحصين يافا وبناء المعاقل فى الصحراء ، ولكن المسلمين لم يتركوه لحظة واحدة من غير أن يعرقلوا عمله بما كانوا يقومون به من الغارات عليه ، ولقد كادوا يأسرونه فى إحدى هذه الغارات لولا واحد من أتباعه يسمى غليوم الذى قال باللغة العربية إنه هو نفسه الملك دون سواه ، وبذلك وقع فى الاسر ، ولولا هذا لما كان رتشارد إلا أسير صلاح الدين

ويقال إن الذى أقعد رتشارد عن الرحيل إلى القدس هو سير مفاوضات الصلح بينه وبين المسلمين حوالى آخر شهر رمضان سنة ٥٨٧ (نصف اكتوبر سنة ١١٩١) وما كان لملك الأنجليز أن يرغب فى الصلح إلا لأنه رأى صعوبة التقدم إلى بيت المقدس ، ولأنه رغب فى العودة إلى بلاده، ولأن ما عاناه من الصعوبات فى مسيره من عكا إلى يافا ، وانقسام الافرنج الذين معه ، وطول الوقت الذى قضاه قومه على عكا ، كل هذه دعته إلى طلب الصلح ورغّبته فيه، فدارت المخابرات بينه وبين الملك العادل،وكان من شروطها أن يتزوج الملك العادل بأخت الملك رتشارد ، وهى أرملة ملك صقلية ، وأن يتنازل السلطان صلاح الدين لأخيه العادل عن البلاد التى احتلها بالشاطىء ، كما يتنازل ملك الأنجليز عن البلاد التى دخلها كصداق لاخته ، وأن تكون القدس ملكا للزوج والزوجة بصفتهما محايدين ، يفتحان أبوابها للمسلمين والافرنج على السواء ، وأن يتبادل الفريقان الأسرى ، وأن تعاد خشبة الصليب المقدس إلى الافرنج . عرضت هذه الشروط على السلطان صلاح الدين فوافق عليها رغبة منه فى حقن الدماء وإعادة السلام ، غير أن القساوسة ورجال دينهم غضبوا غضباً شديداً وقالوا كيف تتزوج أميرة مسيحية بأمير مسلم ، وما زالوا بها حتى رفضت هذا الزواج فرفضت المعاهدة

ويقول الامير على فى هذا الصدد « لو سمح الكهنة ورجال الدين ورضوا بهذا الزواج ، لكان بلا نزاع القنطرة التى سار عليها السلام بين

المسلمين والمسيحيين إلى اليوم ، لكنهم هددوا رتشارد بالطرد من الكنيسة ، فأرسل إلى العادل برفض هذه الشروط

وسواء نجحت المفاوضات أم لم تنجح ، فقد أكسبت المسلمين وقتاً تمكنوا فيه من تأخير زحف الافرنج على القدس ، وتخريب عسقلان

غير أنه فى هذا الاوان الذى كانت تدور فيه المخابرات بين رتشارد والعادل، كانت رسل كورنارد تتردد على السلطان لتعمل معه صلحاً منفرداً، فجمع السلطان مجلس شوراه ، فكان رأيه أن يعمل الصلح مع رتشارد ، لأن التجارب علمتهم قيمة المعاهدات عند أمراء اللاتين فى سوريا. واستمرت رسل كورنارد رغم هذا تردد على السلطان فى بيت المقدس طول الشتاء

قام السلطان من يوم رحيله إلى الرملة يخرب عسقلان وهو آسف على هذا أشد الاسف ، ولم يفضل تخريبها إلا لأنها كانت ثغراً صالحا بالقرب من الحدود المصرية من جهة ، ولأنها على اتصال برى وبحرى تقوم على الطريق الموصلة إلى القدس من جهة أخرى ، ففيها المدد لمن أراد القدس ، وقد امتنع أمراء جيشه من دخولها والدفاع عنها خشية أن يحاصرهم الافرنج بها كما حاصروهم فى عكا وضايقوهم فيها ، فلم يجد السلطان بداً من تخريبها ، فأمر أهلها بالرحيل ، واستمر فى ذلك من يوم ٢١ إلى يوم ٢٩ شعبان سنة ٥٨٧ (١١ إلى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٩١) ولما تم له هذا ، أمر بتخريب الرملة واللد وانسحب بجيوشه إلى عين النطرون فوصلها يوم ١٥ رمضان (١٤ كتوبر) واستمر يخرب كل مايرى فيه قوة للافرنج إذا استولوا عليه ، حتى جاء الشتاء ، فرحل الى القدس ، وسمح لجنده

بالذهاب إلى أوطانهم للراحة ، وأبقى معه نفراً قليلا منهم . يصلح بعضهم أسوار المدينة ويحفر الخنادق ؛ ويرقب بالبعض الآخر الحوادث ؛ معتمداً فى ذلك على ما تؤديه الطبيعة له من الخدمات فى صد الأفرنج كالمطر والوحل . على أن هذين لم يقفا فى سبيل رتشارد ؛ فقد سار بجنده فى أوائل ذى الحجة (ديسمبر) حتى وصل إلى الرملة بعد الجهد الجهيد ، فأقام فيها عدة أسابيع يستريح ويريح الجند من شر ما لاقوا ، ثم دب فيهم دبيب الحب إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ؛ فوصلوا بعد التى واللتيا إلى مكان يعرف ببيت نوبة ، والمسلمون فى هذا يأخذونهم من كل جهة متى أمكنتهم الفرصة ، فلم يجد الأفرنج بداً من الرجوع إلى حيث ابتدؤا فوصلوا إلى الرملة فى أواخر ذى الحجة سنة ٥٨٧ (أوائل يناير سنة ١١٩٢) ومن هنا ذهب عدد كبير من الفرنسيين إلى يافا ، كما أن غيرهم رحل إلى عكا ، وانكسر قلب أولئك الذين كانوا يطمعون فى استرداد البيت المقدس ، وفترت هممهم وعلاهم الحزن وكستهم الكآبة ، وسار كل فى سبيله لا يلوى على أحد

وبهذا لم يبق مع رتشارد إلا نفر قليل قد دب فى قلبه اليأس ، وأكل جسمه التعب وأضناه النصب ، فأراد أن يعيد فى نفوسهم روح الحياة والحماس ، فعمد إلى تعمير عسقلان لتكون حصناً لهم ودرعا يتقون بها شر المسلمين ، انتهى فى وسط الأوحال وتحت وابل من الامطار وفى وسط الرياح والزوابع إلى حيث أراد رتشارد ، فوصل عسقلان ، فوجدها

أطلالا بالية ورمالا متراكمة ، فلم يقعده حالها عن العمل فى عمارتها ، فشرع فى ذلك عقب وصوله إليها مباشرة

بيد أن ما ظهر من المشاكل من قيام حرب أهلية فى عكا بين الفرنسيين وغيرهم ، ووصول النزاع بين رتشارد وكونارد إلى حد النهاية ، لاسيما وقد أخذ كونارد هذا يحالف صلاح الدين على انفراد كما قدمنا ، ووصول أخبار من انجلترا إلى رتشارد تفيد قيام الثورات فيها ، وطمع أخيه فى الملك ؛ كل هذه الظروف جعلت الملك رتشارد يجمع قومه ليختاروا لهم ملكا إذ أنه لا يستطيع البقاء فى الشرق وبلاده على هذا الحال ، فاتفق رأى الجميع على اختيار كونارد ، فأذعن رتشارد لما قرروا

وهنا يحسن بى أن أذكر مسألة مقتل كونارد . ذلك القتل الذى حدث بعد اختياره ملكا ببضعة أيام . يقول ابن الأثير « وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان أن ارسل من يقتل ملك انجلترا ، وإن قتل المركيز فله عشرة آلاف دينار » ثم يقول ونسب الأفرنج قتله إلى وضع من ملك الأنجليز لينفرد بملك الساحل الشامى ولعل هذا القول الأخير هو ما اعتقده الفرنسيون يؤيده ما جاء فى كتاب استانلى

ليس فى حياة صلاح الدين كلها ما يجعلنى آخذ بعبارة ابن الاثير الأولى ، فلو كان من خلق السلطان الغدر ودس الدسائس للايقاع بالناس واغتيال حياة منافسيه ، لما سمعنا بأطلاقه سراح أولئك الأفرنج الذين كانوا يقعون فى أسره من وقت إلى آخر ، وهم أشد الناس عداء له ، ولكننا قد وجدنا فى أخباره وهو بمصر أيام توليه وزارتها أمثلة لذلك ،

ولكنا كذلك علمنا عنه ولو محاولة التذرع بهذا السلاح الممقوت فى التخلص من صاحب الموصل وغيره من الذين كانوا عقبة فى سبيله ، بل ما عرف عنه من لين القلب ورقته والرحمة والعفو ، يجعلنى أنفى عبارة ابن الاثير الاولى ، ففى ظروف الأحوال عند الأفرنج وقت ذلك ما يثبت عبارة ابن الأثير الثانية ، ذلك لاننا قد علمنا أن قد قامت المنافسات والمنازعات بين ملك انجلترا وكونارد حتى عدها المؤرخون من بين العوائق التى كانت تعوقه عن الاسراع بغزو القدس ، كما كانت من ضمن الأسباب التى حببت إليه السفر إلى انجلترا قبل فتحه

كذلك يدلنا على صحة عبارة ابن الأثير الثانية ، ويعزز وجود هذا النزاع الذى قام بين الرجلين ، ما يقوله ابن الاثير بمناسبة تقاعد ملك انجلترا عن المسير إلى عسقلان والسلطان يخربها ، ولوم كونارد له على تقاعده هذا ، وإليك العبارة برمتها « ولما سمعوا ـ أى الأفرنج ـ بتخريبها (عسقلان) أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها ، وكان المركيز ، لما أخذ الافرنج عكا ، قد أحس من ملك الانجليز الغدر به ، فهرب من عنده إلى مدينة صور ، وهى له وبيده ، وكان رجل الافرنج رأياً وشجاعة ، وكل هذه الحروب هو أثارها ، فلما خربت عسقلان ، أرسل إلى ملك الأنجليز يقول له : مثلك لا ينبغى أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش ، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل ، لما بلغك أنه شرع فى تخريبها ، كنت سرت إليه مجدا ، فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار ، فأنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها ، وحق المسيح ، لو أننى

معك ، كانت عسقلان اليوم فى أيدينا لم يخرب منها غير برج واحد » هذا وحده يحمل مثل قلب الأسد على التغير على كونارد

ومع هذا فهناك ما يجعلنى آخذ بعبارة ابن الأثير الثانية ، ذلك هو قيام كونارد بمخابرة صلاح الدين فى الصلح ، فلو كان صلاح الدين يريد اغتياله لرضى أى شروط يعرضها كونارد ، ثم يدس من ناحية أخرى من يغتاله

أضف إلى هذا وذاك تتويج هنرى بن أخت رتشارد ملكا على القدس بدل كونارد ، ودخوله بزوج كونارد ليلة مقتله ، وفى هذا وحده دليل على أن القتل إنما جاء من ناحية الأفرنج لا من ناحية صلاح الدين

وزيادة على ما تقدم فقد جاء فى كتاب الأمير على ما ترجمته « فى الوقت نفسه — أى فى الوقت الذى كانت تدور فيه المخابرات بين صلاح الدين ورتشارد على الصلح — وصلت رسل جديدة من المركيز ، وعلى ذلك تواطأ ملك الانجليز مع رئيس الحشاشين (الاسماعيلية) فى مصيف ليتخلص بواسطته من حليفه الخارج عليه ، وفى أول مايو سنة ١١٩٢ نزل اثنان من الفوضويين على كونارد وقتلاه — طبقاً لما ذكره فون همر فى كتابه على هذه الطائفة ، فقد برهن أن مقتل المركيز كان باتفاق قلب الاسد »

لست أرغب من هذا فى تنزيه صلاح الدين أو أحاول أن أخليه من عيب ، إنما أريد أن أظهر إظهارا لاشك فيه أنه كان بعيدا عن هذا الحادث الذى لا يدل فى جملته إلا على جشع وطمع ونقص ، وهى أوصاف لم يصفه

بها أحد حتى الافرنج أنفسهم ، ولست أدرى ما الذى حمل ابن الأثير عليها ، وغاية ما يمكن أن يكون أن الخاصة من الافرنج فى ذلك الحين قد نشروا هذه الحادثة ونسبوها إلى صلاح الدين حتى يبعدوا عن أنفسهم المظنة ، فلا تؤاخذهم بقية قومهم بما صنعوا ، فجرى لسان العامة بها ، ساعدهم على هذا ما بين السلطان و كونارد من العداء ، فلا بد أن يكون قاتله عدوه ، لاسيما وهو أقدر إنسان على ذلك ، ولهذا يصح أن نقول إن ابن الأثير تأثر بما كانت تقوله العامة ، فخيل إليه أن السلطان هو الذى دبر أمر القتل ، ولابن الأثير وغيره أن يذهب إلى ماذهب إليه ، فالشئ إذا راج وعم تناوله بين الناس ، كان من المسلمات

انقضى الشتاء والسلطان يقيم ما تهدم من أسوار القدس ويحفر الخنادق حولها ويستقبل الجند من كل جهات مملكته ، كما كان يستقبل مندوبى كونارد ومندوبى رتشارد على السواء ، واستمر على حاله حتى استرعى نظره ثورة قامت فى بلاد الجزيرة ، فحول طائفة من جنده إليها ، فانتهزها رتشارد وظن أنه يستطيع مهاجمة السلطان فى بيت المقدس ، فجهز العساكر وانقض بها على حصن الداروم فى منتصف جمادى الاولى سنة ٥٨٨ (أواخر مايو سنة ١١٩٢) وفى هذه الموقعة « برهن الصليبيون — كما يقول استانلى — على أنهم لم يفقدوا شيئاً من وحشيتهم المعتادة فى معاملة المسلمين » ولكن رتشارد عاد نخشى الفشل فيما يريد « فقام رؤساء الجند كما يقول استيفن سن — وأخبروه بأن فى مقدورهم حصار القدس ، وانهم قد صمموا على ذلك رافقهم أم لم يرافقهم ، فحار فى أمره قليلا لأنه

كان يرغب فى العودة إلى بلاده ، كما أنه لا يستطيع الصبر على البعد عن القدس وإخوانه يحاصرونها »

فتقدم بجنده حتى وصلوا إلى بيت نوبة وفيها مكثوا شهراً ينتظرون مقدم ملك القدس الجديد ، والمسلمون فى هذا الاوان يعملون على جمع قوام ويرتبطون دفاعهم عن مدينتهم ، والسلطان يركب بنفسه فى جماعات من جنده ليناوىء الافرنج ، فلما أصبحوا على مقربة من القدس ، جمع قومه وسهر ليله خوفاً على المدينة ، يعمل جهده للدفاع عنها ، فأرسل الامير جرديك على طالعة الجيش وأوصاه أن يرسل بأخبار العدو أولا فأولا ، فأرسل إليه يوم ٢١ جمادى الثانية سنة ٥٨٨ (٣ يوليه سنة ١١٩٢) بأن العدو قد خرج من قيامه وأخذ موقفه على التلال المجاورة ثم عاد فى آخر النهار إلى مقره ، وأرسل إليه فى اليوم الثانى ينبئه بما وقع بين الافرنج من الشقاق ، فالفرنسيون يودون ألا يعودوا إلى بلادهم حتى يفتحوا القدس وهى التى من أجلها تكبدوا كل ما تكبدوا من عناء وتعب ، وغيرهم يرى استحالة فتحها ، والانجليز يقولون إن المكث حيث هم شاق صعب ، فقد أفسد السلطان كل منابع المياه فتعذر عليهم الحصول عليها بكل وسيلة ؛ وفى حالهم يقول ابن الساعاتى من قصيدة

سل عنه قلب الانكتير فأن فى   خفقانه ماشئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع   وأسال سيل نداه فى بطحائه

ويقول استيفن سن فى هذا المقام « لم تكن رغبة رتشارد الحقة إلا عدم مهاجمة القدس ، ففشلت الحملة عليها ، فادعى أن الحاجة إلى الماء

ماسة ، وهو قليل ، وقلته عقبة كأداء فى سبيلهم » ثم يقول « ولا يزال سلوكه فى هذا الوقت وبعده برهاناً قاطعاً على أنه كان يريد الخلاص من ورطة مهاجمة القدس وحصارها ، لأنه لم ير من الشرف والشهامة أن يترك الافرنج تذهب إليها حين يوليهم ظهره ، ولذلك ظل يعمل حتى يثنى عزمهم عنها ؛ ولقد كان مستعداً للعمل معهم فى شىء آخر غير حصار القدس ، كالهجوم على دمشق أو بيروت أو غزو مصر ، وساعده على هذا جماعة من لاتين الشام كانوا يسعون وراء غاياتهم الشخصية »

انتهى حال الأفرنج فى ذلك اليوم بأن جمعوا مجلساً ليرى رأيه فى الأمر ، فأمر هذا المجلس بترك القدس التى ما كانت تبعد عنهم كثيراً والرحيل إلى القاهرة وغزوها ، وهى على مسافة بعيدة جداً منهم ؛ وفى هذا يقول استيفنسن « والعجب أن نعلم أن المجلس أقر غزو مصر وهو أمر غريب مدهش » وعلى هذا تراجع الأفرنج وخلص السلطان بذلك التراجع من كرب مابعده كرب وطرب المسلمون غاية الطرب

توجه الأفرنج إلى عكا وجمع الملك رتشارد رحاله ، وأراد مغادرة الشام إلى بلاده ، بعد أن أرسل عند تقهقر جيشه الرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الصلح ، ذاكراً له أنه يرغب فى محبته وصداقته ، وأن ليس فى نيته امتلاك أرض بالشام ، وأنه يشعر كما يشعر السلطان بوجوب انتشار السلام ، وأنه يقدم ملك القدس هنرى إليه ليكون له عوناً ، بعد أن يتنازل السلطان له عن القدس والبلاد الساحلية وعسقلان ، فأبى عليه السلطان ماطلب ، وسار فى جيشه وراءه حتى وصل يافا فملكها ، فذهبت حاميتها

إلى قلعتها ، وبينما هى على وشك التسليم للسلطان إذ قدم رتشارد فى البحر بجيشه وأسطوله وتمكن من إيقاع الهزيمة بالمسلمين فتقهقروا . جمع السلطان العساكر من الجهات المختلفة ، وخاف مرة أخرى على القدس ، وتيقن أن الملك لايرحل بعد انتصاره هذا إلى بلاده قبل أن يستولى عليها . تقاتل الطرفان مدة قصيرة أهدى فيها صلاح الدين إلى رتشارد جوادين من جياده لمّا رآه يقود جموعه راجلا ؛ وفى هذا دليل آخر على أن صلاح الدين ماحاول أو فكر فى اغتيال حياة منافسيه أو أعدائه غدراً وخيانة

مازالت الحرب بين المسلمين والأفرنج سجالا لايقوى أحدهما على أن ينتصر انتصاراً نهائياً على خصمه ، فاضطر المسلمون إلى الانسحاب إلى الرملة يوم ٤ شعبان سنة ٥٨٨ (١٥ أغسطس سنه ١١٩٢) وأخذوا يستعدون للهجوم على الأفرنج والاستيلاء على يافا مهما كلفهم الأمر

غير أن الظروف التى وقع فيها الأفرنج غيرت مجرى الأحوال، فقد غادر الفرنسيون رتشارد، وقد أصيب بحمى شديدة رغم تحرزه منها، ورأى اجتماع عسكر المسلمين فهاله أمرهم ، وهو يود ألا يغادر ساحل البحر وللمسلمين به بلد يطمع فيه ، وقد طالت غيبته عن بلاده . كل هذه الأحوال المتباينة اضطرته أن يراسل صلاح الدين فى الصلح ، وأظهر اعتدالا فى الطلب ، ورغبة شديدة فى حسم النزاع ، وميلا كبيراً لحقن الدماء وتوطيد دعائم السلام ؛ فلم يجبه صلاح الدين بشىء أكثر من الاستمرار فى أمر الجهاد ؛ فأرسل رتشارد الى الملك العادل يتوسط بينه وبين أخيه السلطان ، فأظهر العادل هو وجماعة من أمراء المسلمين للسلطان ماعليه الجند من

الضجر والملل ، وما هي عليه أسلحتهم ودوابهم من النقص ، ومازالوا به حتى رضى ، فوضعت شروط الصلح على أن تكون بلاد الشاطئ من صور إلى عكا بيد الأفرنج ، وأن تخرب عسقلان ، وأن يسير المسلمون والأفرنج في أملاك بعضهما بعضاً من غير أن يعتدي عليهم ، ولحجاج الأفرنج زيارة القبر المقدس ، ثم وقع الفريقان على هذه الشروط يوم ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ (٢ سبتمبر سنة ١١٩٢) وهي تقضي فوق ماتقدم أن يطل السلام بين المسلمين والأفرنج ثلاث سنوات وبضعة أشهر ، وقد وقع عليها رتشارد ويداه ترتجفان من شدة الحمى فلم يستطع قراءتها ، ثم غادر يافا إلى عكا يوم ٢٨ شعبان (٨ سبتمبر) وفي مساء أول شوال (١٠ اكتوبر) أقلع إلى أوروبا ، وأطلق على هذا الصلح (صلح الرملة)

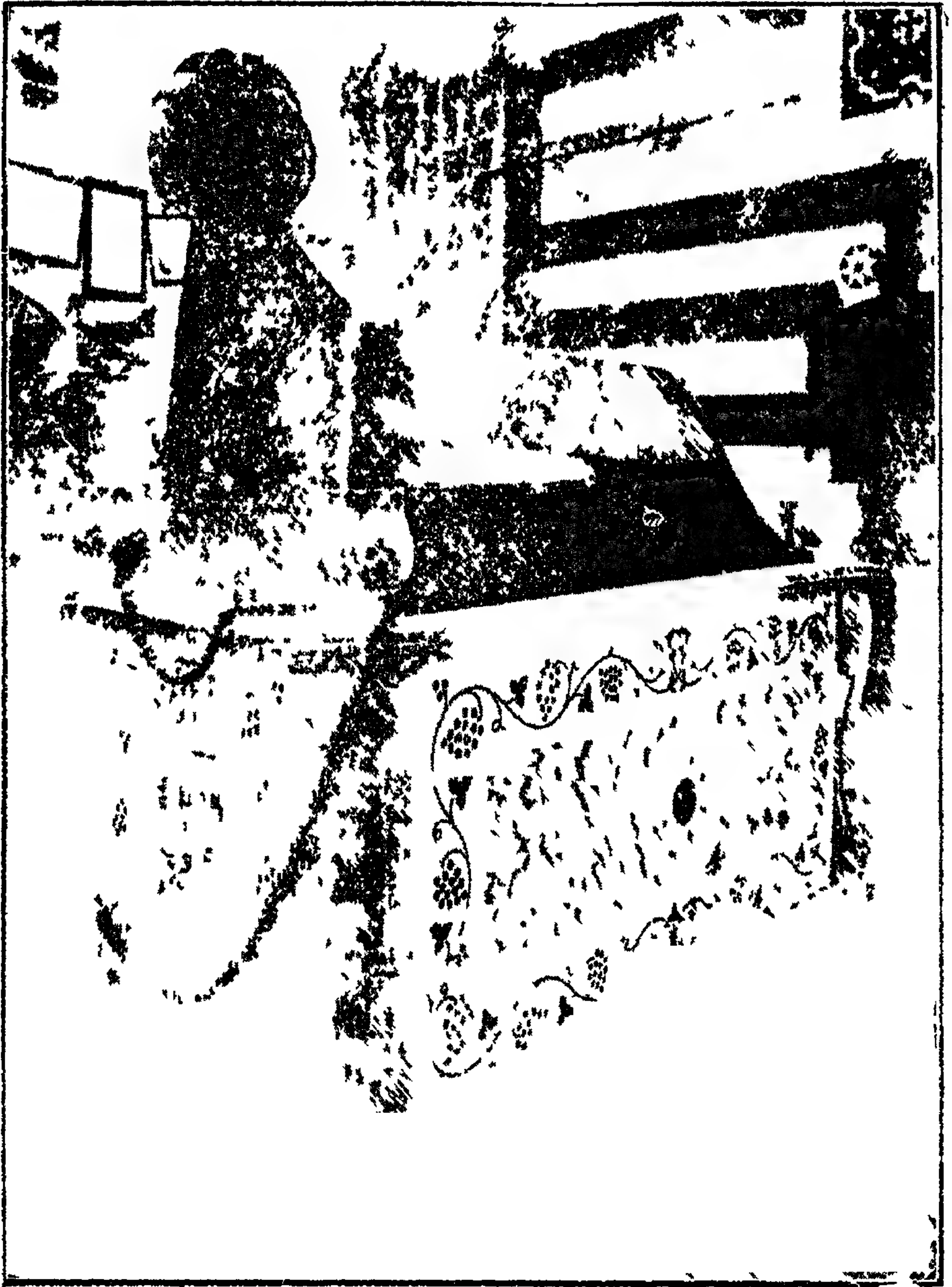
هكذا كانت نتيجة حرب مكثت خمس سنوات ذهبت فيها أرواح الكثيرين، فأقفرت عدة أمكنة في الشرق والغرب، وأفقدت ألمانيا أمبراطوراً من أعظم أمبراطورتها (فريدريك باربروس) كما أضاعت فرنسا وانجلترا نخبةً من زهرة شبابها وفرسانهما ، كل هذا دون أن ينال الأفرنج سوى عكا ، فلم تكافئ نتيجة هذه الحرب بأي شكل من الأشكال ماتكبدته أوروبا وفقدته في سبيلها

قامت هذه الحرب منذ واقعة حطين ، وما كان للمسلمين إذ ذاك قيد شبر في فلسطين ، أما بعد واقعة يافا وصلح الرملة ، فقد أصبحت فلسطين كلها مسلمة ، خلا ذلك الجزء الضيق من صور إلى عكا ، وصار بذلك صلاح الدين من القوة والمنعة بحيث لا يهتز لأي قوة أخرى، فخضع

لسلطانه أمراء تلك الجهات كلها ، وطرد الأفرنج من البلاد ، واسترد بيت المقدس ، وأعاد للإسلام مجده وسمته وكون وحدته مرة أخرى

سار صلاح الدين إلى بيت المقدس متفقداً أحواله ، ومنظما أموره ، يفتح المدارس وينشىء المستشفيات ، ثم أعلن رغبته فى أداء فريضة الحج فخاف الامراء غدر الافرنج بهم إذا علموا ذلك ، فألحوا عليه بالعدول ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، ورحل بعد قليل إلى جهات الساحل ليتفقد أحوال الحصون والمعاقل بها ، وليصلح ما يحتاج منها إلى إصلاح ، فسار من القدس إلى نابلس فبيسان فالسكوكب فطبرية ثم إلى بيروت وفيها تقابل مع صاحب أنطاكية فتهادن معه ، ثم سار إلى دمشق فوصلها يوم ٢٦ شوال (٤ نوفمبر) ففرح الناس بقدومه حتى أغلقت الحوانيت ، وهب الناس كلهم لاستقباله ، ولا عجب إذا هم فعلوا هذا فأنما يحتفلون بمن حفظ لهم بلادهم ، ورد لهم ما كانوا قد فقدوه . وليس هذا هو كل ما فعل بل أعاد لهم الحرية ، ونشر بينهم لواء العدل ، وسكن الفتن ، وأزاح العلل التى كانوا يخوضون الدماء من أجلها

أخذ صلاح الدين ينظم الامور ويوزع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويسرح الاجناد إلى بلادهم ، وهو فى خلال هذا فى أحسن صحة ، يخرج كل يوم للصيد ثم يعود . وما زال على هذا الحال حتى خرج يوم ١٤ صفر سنة ٥٨٩ (٢٠ فبراير سنة ١١٩٣) لملاقاة الحجاج العائدين من مكة ؛ وكان محملا رهيباً تأثر منه السلطان وبكى لعدم تأديته الفريضة ولم يكد يقضى ليلته حتى أخذته حمى لم تمهله إلا أياما معدودات فارق بعدها



قبر صلاح الدين

الحياة ، فمات يوم الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣) وكان عمره إذ ذاك ٥٧ سنة ، قضاها فيما ذكرنا ، فبكته الناس قاطبة ، ولم يخرج أحد يوم مماته من بيته ، فكنت ترى الاسواق خالية خاوية على عروشها ، والطرق تنادى المارة فلا تجدهم ، ولم تبق عين إلا زرفت الدموع عليه ، ودفن حيث مات بعد أن كفن بأبسط أنواع الكفن ، وبعد نحو من ثلاث سنوات أعدله ولده الأفضل قبرا بجوار الجامع الاموى مكان دار رجل صالح اشتراها منه ، ونقل رفاته إليه فى يوم عاشوراء بمحفل رهيب ، وجلس للعزاء بالجامع ثلاثة أيام كاملة

أما ثانى يوم وفاته فقد غص المكان بالناس وهم يبكون وينتحبون ، وحرم على الكتاب والشعراء والخطباء الرثاء ، غير أن العماد رثاه بقصائد طويلة منها قصيدته التى يقول فيها

شمل الهدى والملك عم شتاته   والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى كانت له طاعاتنا   مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى   لله خالصة صفت نياته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه   ذلا ومنها أدركت ثاراته
فى نصرة الأسلام يسهر دائماً   لتطول فى روض الجنان سناته
ملك عن الأسلام كان محامياً   أبداً إذا ما أسلمته حماته
من لليتامى والأرامل راحم   متعطف مفضوضة صدقاته
من للثغور وقد عداها حفظه   من للجهاد ولم تعد عاداته

ياوحشة الأسلام يوم تمكنت ... في كل قلب مؤمن روعاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه ... لهم ففيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه ... واليوم هم حول السرير مشاته
هذى مناشير الممالك تقتضى ... توقيعه فيها فأين دواته
قدكان وعدك فى الربيع بجمعها ... هذا الربيع وقد دنا ميقاته

وفيه يقول نثراً « ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال ، وغاضت الأيادى ، وفاضت الاعادى ، وانقطعت الارزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب اللاجون، وخاف الآمن ، وخاب الامل ، وقنط السائل . . . . »

وقال فيه صاحب كتاب طبقات الشافعية « ملك البلاد ، ودانت له العباد ، وأحبه الخلق ، ونصر الأسلام ، وهزم الافرنج وكسرهم مرات، وفتح المدن الكبرى ، وأقام فى السلطنة أربعاً وعشرين سنة ، يجاهد فى الله بنفسه وماله ، وكان ملكا عظيما شجاعاً مهيباً عادلا ، يملأ العيون روعه، والقلوب محبته ، قريباً بعيداً ، عابداً قانتاً لله ، لاتأخذه لومة لائم ، مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء ، وأصحابه كأنهم على قلب رجل واحد محبة فيه واعتقاداً وطواعية »

مات السلطان وبموته فقدت الامة الاسلامية سلطاناً قوياً أعزها وأقالها من عثرة كادت تؤدى بها إلى الهلاك والدمار ، توفى صلاح الدين وقد نثر فضله أعداؤه ، وجدوا فيه أستاذاً كبيراً ، وعاملا عظيما،فأخذوا عنه دروساً فى الشجاعة والفروسية ، ونماذج فى الكرم ، ومثالا لمكارم الاخلاق ، وينبوعاً للرحمة والشفقة ، فاعترفوا من فضائله شيئاً غير قليل

خاتمة

رأينا فيما تقدم ما قام به صلاح الدين من أمر الجهاد الذى نصب نفسه له من يوم أن تولى وزارة مصر ، وما أداه من الخدمات الجليلة للشرق ، وما ظفر به من النصر على أقوام الأفرنج وأمراء المسلمين ، فاستطاع أن يوحد قطرين من أقطار العالم الأسلامى بعد أن فرقتها الاحزاب الدينية ، وبعثرتهما المطامع الشخصية ، فجمع تحت سلطانه ، من الكردستان حتى بلاد تونس ، أقواماً اختلفت عاداتهم ، لكن وحدتهم قوته ، ولاءمت بينهم شفقته ،

ما كنا لنرى بين هذه الاجيال المختلفة من الناس إلا المحبة والوئام وتلبية للسلطان فى ساعات الاخطار ونزال الاعداء ، ذلك دليل على المحبة والاحترام ، وما أحبه الناس واحترموه إلا لانهم وجدوا فيه لهم ناصراً ، ولاعدائهم خاذلا ، ليس لأمره يسعى ولا لثروته يعمل ، ولا لصالحه يجد بل كان سعيه وعمله وجده لصالح الأسلام والمسلمين ، فلبى الرؤساء نداءه واستمع الناس قاطبة له ، وهكذا كل عامل المصلحة العامة

ولقد علمنا من حوادثه كلها أنه ما كان يعمل برأيه منفرداً ، بل يأخذ على الدوام برأى الجماعة لما كان يراه فى رأى الفرد من الاستبداد بالأمر ، وهو يكره الاستبداد والمستبدين ، عملا بأمر الدين وجرياً على سنة رسول

الله ، فاضطر كثيراً للعدول عن رأيه وهو يعلم صحته ، خضوعا لرأى الجماعة كما حصل أمام عكا وصور

اتخذ فى أول أمره من أهله وذويه عوناً له فى تنظيم الأحوال وترتيب الأمور ، دون أن يرتاب فى أحدهم أو يأخذه الشك فى أمرهم ، فعززوه ونصروه ، ثم ركن إلى أهل المقدرة من أتباعه وخواصه ، فأدوا له من الخدمات أجلها ومن الأعمال أكثرها نفعاً وأعمها فائدة ، وهؤلاء فى خدمته أطوع له من يمينه ، وعلى ملكه أحرص منه على نفسه ، لا تلهيهم أعمالهم ولا أموالهم ولا أولادهم عن خدمة السلطان ، سواء أتمتعوا بالراحة أم لم يذوقوا طعماً للنوم ، وكان السلطان حيال هذه الخدمات لا يقصر عن تقريبهم منه وإجزال العطايا لهم وتفويض الأمور إليهم حتى كان يحدثهم بما هو عازم على عمله ، ولا غرو فهم عدته وعماده ؛ وقد قال لكاتبه الخاص بهاء الدين ، بعد أن تم صلح الرملة ، إنه يود أن يسير بالجيش إلى ناحية الشرق ، نحو فارس وما جاورها ، لولا ما عليه الجيش من التعب بعد هذه الحروب الطاحنة

مات هذا السلطان الكبير ، والفاتح العظيم ، والقائد المنذ ، فلم يبق واحد من أتباعه إلا بكاه بكاء مراً ، وحزن عليه حزناً شديداً ، ذلك لأن كل فرد من رعيته كان يرى فيه أباً رحيما ، ووالداً شفيقاً ، وحاكما عادلا وسلطاناً على الأعداء شديداً ، وفى الحق صلباً ، وعلى الظالمين قاسياً ؛ وعلى صالح المسلمين ساهراً ، وفى جهاد الله مثابراً ، ولتوحيد كلمة المسلمين عاملا ، ولصالحهم كلهم على السواء دائباً ؛ لا ينام إلا على مصالح المسلمين

ولا يستيقظ إلا على ذكر أحوال البلاد ، لا يقعده عن ذلك كله مرض ، ولا يلهيه عنه أهل ولا ولد ؛ فأحبته الناس حياً ، وفجعت فيه ميتاً ، فبكته بكاء الثواكل . وإن الذى يقرأ ما قاله لولده الظاهر يوم أن أرسله إلى حيث ولاّه ، ليدرك بلا عناء سياسته التى اتبعها والتى كان يتخذها شعاراً له فى أيامه ، فحببته للناس قاطبة . أنظر إليه وهو يقول له « أوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به ؛ فأنه سبب نجاتك ، واحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فأن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغتُ ما بلغت إلا بمداراة الناس ، ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فأنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فأنه كريم »

لا يمكن أن يلحظ الأنسان من أخبار صلاح الدين أو يلمح من أحواله مع رعيته أبهة الملوك وعظمة السلاطين ، فكان لأى فرد من أفراد رعيته أن يصل إليه من غير عناء ، لا يعترضه حاجب أو وزير ، لا خوف ولا رهبة ، يذهب صاحب المظلمة بنفسه ويبث للسلطان شكواه ، وقد تتزاحم عليه الوفود من أصحاب المظالم فلا يضجر ، وما توافد الناس عليه إلا لمعرفتهم فيه لين الجانب وإحقاق الحق ، وأنه الاليف الأنيس اللطيف معهم على السواء ، وكان فوق هذا رقيق القلب سريع التأثر ، تتحرك عواطفه وتدمع عيناه عند سماعه أصوات الضعفاء والمساكين فيجزل لهم

المطايا ، فكان قلبه مملوءا حباً للانسانية وأعمال البر والاحسان ، تلك الحالات التي لم تعرف إلا قليلا في هاتيك الايام ، وكان من الشفقة بحيث لا يستطيع أن يرى خادماً له يضرب ، وعجيب هذا من سلطان كانت السادة في أيامه تضرب عبيدهم وخدمهم ، وما كان يتيما إلا تحرك قلبه حنانا عليه . فيؤويه إذا لم يجد له أهلا ، فاذا وجد له من الأهل من يكفله سلمه إليهم وأعطاهم ما يكفي لتربيته

كان مثال السذاجة في ملبسه ومأكله ومسكنه ، وقد بني له مرة منزل أنيق في دمشق فلم ينظر إليه طويلا وقال « ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه » لم تفتنه أموال ملكه الواسع ، فكان يقول « إن المال والتراب سيان عندي » لذلك كان يكره أن يفد عليه سائل فلا يعطيه ، بل أكثر من هذا ، فما طُلب منه إلا أعطى منه أكثر مما سئل ، وإذا أعيد عليه السؤال أعطى دون أن يقول « قد أعطيناك من قبل » ولكثرة بذله كان أعوانه ينكرون وجود المال لديهم حتى لا يكثر البذل فتفنى الأموال فلا يجد ما يمد به الجيوش لحرب الاعداء ، وليس أدل على جوده وكرمه وبذله أكثر من أنه عند وفاته لم يجد الناس لديه مالا كما أنه لم يترك ضيعة ولا قصراً ، وإلى هذا يشير صاحب السمو الامير محمد على في الرحلة الشامية « وكان رحمه الله غاية في الجود والكرم ، حتى قيل إنه لم يترك بعد وفاته سوى ٤٧ درهماً ، وهي ثروة ربما ترك السائل لأولاده أضعافها ، ولكن السخاء والحنان والشفقة على المساكين

والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال » ثم يقول « دخلنا قبر هذا الملك وهو بجانب الجامع الاموى من جهة الشمال ، ورأينا حال دخولنا حديقة لاتزيد عن خمسة أمتار طولا فى مثلها عرضاً ، وهنا أخذتنى هزة عند ما رأيت صلاح الدين صاحب الحروب الصليبية ، والذى أخضع الجبابرة وأسر القياصرة ، والذى كان يضيق بهمته الشماء فضاء ما بين الارض والسماء ، ينتهى أمره بسكنى هذا المكان الضيق ، وتكون حديقته أمتاراً معدودة ، يوجد فى مقابر البسطاء من الناس ما هو أكبر منها ، نعم إن الميت فى قبره لا ينتفع بسعة المكان ، كما لا يهمه شىء من زخارف الحياة ، وإنما كان أسفى من أن الشرقيين ، وهم أعرف الناس بقدر هذا الفاتح المظفر ، لم يحفلوا به كما يحفل الغربيون بعظماء رجالهم ، مع أن الغربيين أنفسهم قد قدروا قدر هذا الرجل ، وليس هناك أدل على ذلك من إهداء أمبراطور ألمانيا إلى قبره إكليلا زهرياً يسر الانسان أن يرى منه برهاناً على شعور جلالة الأمبراطور ، واحترامه بقدر ما يحزنه ، ألا يرى شيئاً مطلقا من جانب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً على قبره »

نعم إن مالاحظه سمو الأمير لجدير بالاعتبار ، فأن المسلمين ليس لهم فى قبر صلاح الدين أوعليه أثر يذكر ، وكان واجباً عليهم أن يقيم السلاطين ، وأخص بالذكر منهم أولئك الغزاة الفاتحين ، آثاراً تنبئ بأنهم يعرفون للرجل قيمته وجهاده فى الله حق الجهاد ؛ لكنى لست أدرى ماالذى أقعدهم ويقعد غيرهم عن العمل ؟ لعل ذلك راجع إلى جهلهم أحوال هذا البطل الكبير والفاتح العظيم ، أو أن هذا راجع إلى ماينهى عنه الدين الأسلامى

فى أصله من مسألة تزيين القبور وإعدادها للزيارة ، مخافة أن يقدم إليها العامة القربات ومايشبه العبادات من أعمال الوثنية كما هو حاصل

وبمناسبة ذكر سمو الأمير اسم أمبراطور ألمانيا أقول إن هـذا الأمبراطور زار بلاد الشام سنة ١٣١٦هـ (سنة ١٨٩٨م) ومعه الامبراطورة، ولما كانا فى دمشق خطب خطبة قال فيها ماترجمته « ومما يزيد فى سرورى أنى موجود فى بلد عاش بها من كان أعظم رجال عصره وفريد دهره شجاعة وبسالة ، من كان قدومه الشهامة ، والذى كانت شهرته متجلية فى الآفاق ، ألا وهو القهرمان صلاح الدين الأيوبى » وقد أرسلت الأمبراطورة إكليلا بديعاً من الزهر ليوضع باسم الأمبراطور على ضريح بطل التاريخ العربى، وقد نقش بالعربية على بند الأكليل (ويلهلم الثانى قيصر ألمانيا وملك بروسيا ، تذكارا للبطل السلطان صلاح الدين الايوبى)

وقد قال شاعر النيل شوقى بك قصيدة عصماء عنوانها : (تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى القبر) أورد منها مايأتى

عظيم الناس من يبكى العظاما ... ويندبهم ولو كانوا عظاما
وأكرم من غمام عند محل ... فتى يحيى بمدحته الكراما
وماعذر المقصر عن جزاء ... وما يجزيهمو إلا كلاما
فهل من مبلغ غليوم عنى ... مقالاً مرضياً ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام ... تعهد فى الثرى ملكا هماما
أرى النسيان أظمأه فلما ... وقفت بقبره كنت الغماما
تقرب عهده للناس حتى ... تركت الجيل فى التاريخ عاما

أندرى أى سلطان تحيى ... وأى ملك تهدى السلاما
دعوت أجل أهل الأرض حرباً ... وأشرفهم إذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكره ملوكا ... تعود أن يلاقوه قياما
وكم جمعتهمو حرب فكانوا ... حدائدها وكان هو الحساما
كلام للبرية داميات ... وأنت اليوم من ضمد الكلاما
فلما قلتَ ماقد قلت عنه ... وأسمعت الممالك والأناما
تسألت البرية وهى كلمى ... أحباً كان ذلك أم انتقاما
وأنت أجل أن تزرى بميت ... وأنت أبر أن تؤذى عظاما
فلو كان الدوام نصيب ملك ... لنال بحد صارمه الدواما

كيف لاتجتمع الأمة الأسلامية بأسرها على هذا الرجل العظيم الذى كشف عنها الغمة التى ألمت بها من جراء تعدى الأفرنج عليها وعلى بلادها ، فنهض بجلائل الخدمات للشرق والشرقيين والأسلام والمسلمين. فهو الذى قال لجنود الاعداء « قفوا مكانكم فما قلب أسد أقوى من قلب أسدكم » دون أن يخشى سهام العدو المرسلة إليه ، فأنهكت الحرب قواه ، ولقد كان يركب جواده ويقود جنده وهو مريض لايستطيع الاطمئنان على سرجه فيقال له فى ذلك فيقول « إنى إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى » بهذا كله تقدم الناس بأرواحهم إليه

نعم وصل السلطان صلاح الدين إلى هذه المكانة فى أمته بل وعند أعدائه بأقدام شهد بثبات جنانه، ودربة استمال بها الالباب، وخبرة افتتح بها البلدان ، وقاد بها الاجناد ، حنان وشفقة جعلنا له من المكانة فى قلوب رعيته

مالم يوجد لغيره من قبله ، فأحبها ومال بكلياته على مصالحها، فكان خلاصة الشرف الاسلامى ، وبقية المجد الشرقى ؛ يجتمع فى مجلسه العلماء والوجهاء ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وذوو الحاجات ، كل هذا وهو متواضع على حد قول القائل « وأدهشنى منه التواضع والتقى »

وكثيراً ما كان يعرض نفسه للخطر مع جنده ، رغبة منه فى نجاة مالكه ، فلا يعرضه لهجوم العدو الذى كان يتربص به ، وهذا شمم وعلو نفس وإقدام قلّ أن يصدر مثله عن السلاطين والملوك ؛ على أنه فوق هذا ما كان ليهمل فى ترتيب شؤن بلاده ، يصرف وقتاً كبيراً فى إعزاز شأنها، حتى بلغت فى أيامه ما بلغت ؛ وقد كان فى رعيته كالأب الرؤوف يواليها بالنصيحة ، ويرشدها إلى سبيل الخير والسعادة

ولقد شهد له بهذا وبأكثر منه أعداؤه أنفسهم فقال استانلى ماترجمته « ولم تخطئ الناس إدراك أوصافه وأخلاقه ، فهو بلا نزاع شريف النفس همام شهم شجاع وديع رقيق شفيق ، طاهر القلب نقيه ، ناصح الحياة زاهد فيها ، مجد كدود ساذج فى أحواله كلها ، غيور على دينه ، بهذه الأوصاف أصبح جديراً أن يكون مثال البطولة فى الاسلام »

وجاء فى كتاب تاريخ المؤرخين ماترجمته « والذى أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه وعفوه ، لاسيما محافظته على العهود والمواثيق ، ومن المدهش أن تكون هذه الأوصاف التى ملأت قلوب أهل أوروبا إعجاباً هى الأوصاف التى يصفون بها ذلك الرجل الذى انتصر عليهم فهزمهم فى آسيا »

وإليك ماجاء فى هذا الكتاب عند الكلام على صلاح الدين « ولقد كان من شدة كرمه أن عماله كانوا ينكرون عليه المال حتى إذا جاءت ساعة الحاجة إليه أخرجوا له مايريد ، وهذا من كثرة بذله وإعطائه ، وكان من عادته أنه إذا استولى على مقاطعة من المقاطعات نشر أعلام كرمه وسخائه على أتباعه وسكان الجهة ، فملك بذلك رقابهم ، ولما استولوا على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزائنها ، بل وزع كل ماوجد على الأهالى ، يحترم كل من فى خدمته ، ويعاملهم معاملة لينة ، فاذا وقع من أحدهم مايسيئه كتمه ولم يظهره ، وكان حريصاً فى كلامه مقلاً فيه ، فنسج على منواله أتباعه ، أما مجلسه فكان طاهرا ، لايجسر فرد أن يقول سوءاً فى جاره ، ولم ير يتيما إلا تحركت فيه عاطفة الشفقة والحنان عليه ، وإذا قابل شيخاً هرماً بكى ، وكان فوق هذا محباً لأولاده وأهله ، وكثيراً ماشارك أطفاله فى لعبهم ، وكان دياناً ربى أولاده تربية دينية ، وكان يحب العدل ويعاقب كل من خالف أحكامه ، فكان يجلس للمظالم بنفسه مرتين فى الأسبوع ، بابه مفتوح للصغير وللكبير ، للغنى وللفقير ، فى حله وترحاله ، فى سفره ومقامه »

وقال عنه استيفنسن « كان صلاح الدين موفقاً فى خططه ، ماهراً فى عمله ، سريعاً فى تقدير قوى عدوه ، لم يتردد لحظة واحدة فى تنفيذ مارسمه ، أما نشاطه فما كان يعرف الملل والتعب ، وكان صبوراً على الشدائد يثق بنفسه وثوقاً عظيما . كل هذه من الأوصاف الظاهرة فيه ظهوراً جلياً ، نظره فى الأمور نظر صادق ، وحكمه عليها حكم عادل ؛

إذا همت نفسه بأمر قام به بلا تردد ولا إبطاء ، كل هذه المزايا خدمته فى أعماله السياسية والحربية »

واقتطفت مجلة رعمسيس فى عددها التاسع من السنة الخامسة من خطاب لسعادة أحمد زكى باشا سكرتير مجلس الوزراء سابقاً عن طاس صلاح الدين « وقد كان القبط يحبون هذا الملك العظيم ـ صلاح الدين ـ الذى حماهم وراعاهم ، وعرفوا فى ظله أيام السعادة والهناء ، وأى دليل على هذا أكبر من وضع صورته إلى جانب الآنية المقدسة » ثم أردفت المجلة هذا بقولها « زار أحد شعراء الأندلس (عبد المنعم الأندلسى) فى ذلك الحين مصر ، فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين ، فنظم فى ذلك قصيدة تمثل الحقيقة التاريخية منها هذان البيتان »

خطوا بأرجاء الهياكل صورة ... لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم

يدين لها قس ويرقى بوصفها ... ويكتبه يشقى به فى التمائم

وبمناسبة ما جاء فى هذه المجلة عن طاس صلاح الدين أذكر أن زكى باشا عثر على طاس نحاسية (طاسة خضة) وألقى عليها محاضرة تاريخية باللغة الفرنسية فى المجمع العلمى المصرى ، وطبع الخطبة فى كراسة صدرها بصورة صلاح الدين ، وهو يقول عن هذه الصورة إنه أخذها من صديقه المرحوم الشيخ مصطفى القبانى الدمشقى الذى نقلها عن كتاب روسى يؤكد مؤلفه أنه وجدها فى إحدى أديرة مصر ، والرسالة نافعة مفيدة وصف فيها زكى باشا تلك الطاسات وقيمتها الطبية فى نفوس العامة ، ثم ذكر من بين هذه الطاسات طاس صلاح الدين ، وإنما سميت كذلك

لأنها أهديت إليه ، واستدل على أنها أهديت إلى صلاح الدين بعدة براهين نازعه فيها حضرة الأثرى على بهجت بك أمين دار الآثار العربية وكان وجه الخلاف على ما أذكر لقب من الألقاب التى وجدت منقوشة على الطاس (قسيم أمير المؤمنين) وبهجت بك ينكر هذا اللقب على صلاح الدين ويظهر أن الموضوع كان أقل من أن يتناقش فيه إلى هـذا الحد الذى وصلت له المناقشة ، على أنى لا أرى داعياً يدعو بهجت بك إلى أن ينكر على صلاح الدين لقب (قسيم أمير المؤمنين) وها هى الجريدة الرسمية المصرية فى عهد المغفور له محمد على باشا تقول عن ديوانه (الديوان الخديوى) وقد وجدت عريضة مكتوبة فى الوقائع الرسمية أيام محمد على باشا يقول فيها مقدمها « إلى سعادة الخديوى محمد على باشا » مع أن لقب خديوى ما وجد إلا بعد تولية المغفور له إسماعيل باشا ؛ وعلى هذا فقد يكون الناس قد لقبوا صلاح الدين بلقب (قسيم أمير المؤمنين) كما لقبوا ساكن الجنان محمد على بلقب خديوى . أخذت المناقشة بين المتناظرين دوراً كبيراً على صفحات الجرائد ثم أسدل عليها الستار ؛ وانتهت كما انتهى وينتهى غيرها من المجادلات فى بلدنا

على أنه يجب علينا ألا نخضع خضوعا صرفا إلى ما رآه زكى باشا ولا إلى ما رد به بهجت بك ، فأن المشكلة لم تحل بعد ، وهى أن النقوش التى استعملت فى مصر وبلاد الشرق عامة لم تكن مفيدة غالباً بعصر ولا بملك ولم تنشأ مدارس لدراسة النقوش العديدة وتاريخها وتعيين واضعيها ، كما هو شأن النقوش اليونانية أو اللاتينية ، حتى يكون القول الفصل فى هذه

الآثار إلى المتخرجين فيها ، فقد ظهر من الاستقصاء أن الدول المتعاقبة كان يحاكى اللاحق فيها السابق فى زخرفه ونقوشه ، وكثيراً ما كان اللاحق يزيد فى النقوش أو ينقص منها أو يغير فيها ، لكن لا إلى الحد الذى يجعلها خاصة بمصر أو بملك ، ومن هنا يجىء الشك الذى بنينا عليه عدم الأذعان إلى واحد من المتناظرين

تلك حياة صلاح الدين كما رأينا كلها حرب وقتال وجهاد ، على أنه رغم هذا قام بأعمال عمرانية يذكرها له التاريخ . رأى أن التدريس فى جامع الفسطاط (جامع عمرو) يسير على نحو ما هو حاصل الآن بالأزهر فابتنى سنة ٥٦٦ (١١٧٠) المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق وجعلها للشافعية ، وهى أول مدرسة أسست فى مصر ، ثم ابتنى المدرسة القمحية بالقرب من هذه ، وجعلها خاصة بالمالكية ، ثم ابتنى مدرسة الحنفية سنة ٥٧٢ (١١٧٦) وجعلها فى دار الوزير البطائحى وتعرف الآن بالمدرسة السيوفية حسب رواية سعادة أمين باشا سامى ناظر مدرسة دار العلوم سابقا فى كتابه عن التعليم فى مصر

ولم يقصر السلطان همه على فتح هذه المدارس بل رتب الوظائف للمدرسين والطلبة فيها على السواء ، فتمكن بذلك من نشر المذهب السنى وإحلاله عند العامة والخاصة محل المذهب الشيعى

ويقول صاحب كتاب صبح الاعشى « وأما الخوانق والرُّبُط فما لم يعهد بالديار المصرية قبل الايوبية ، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء

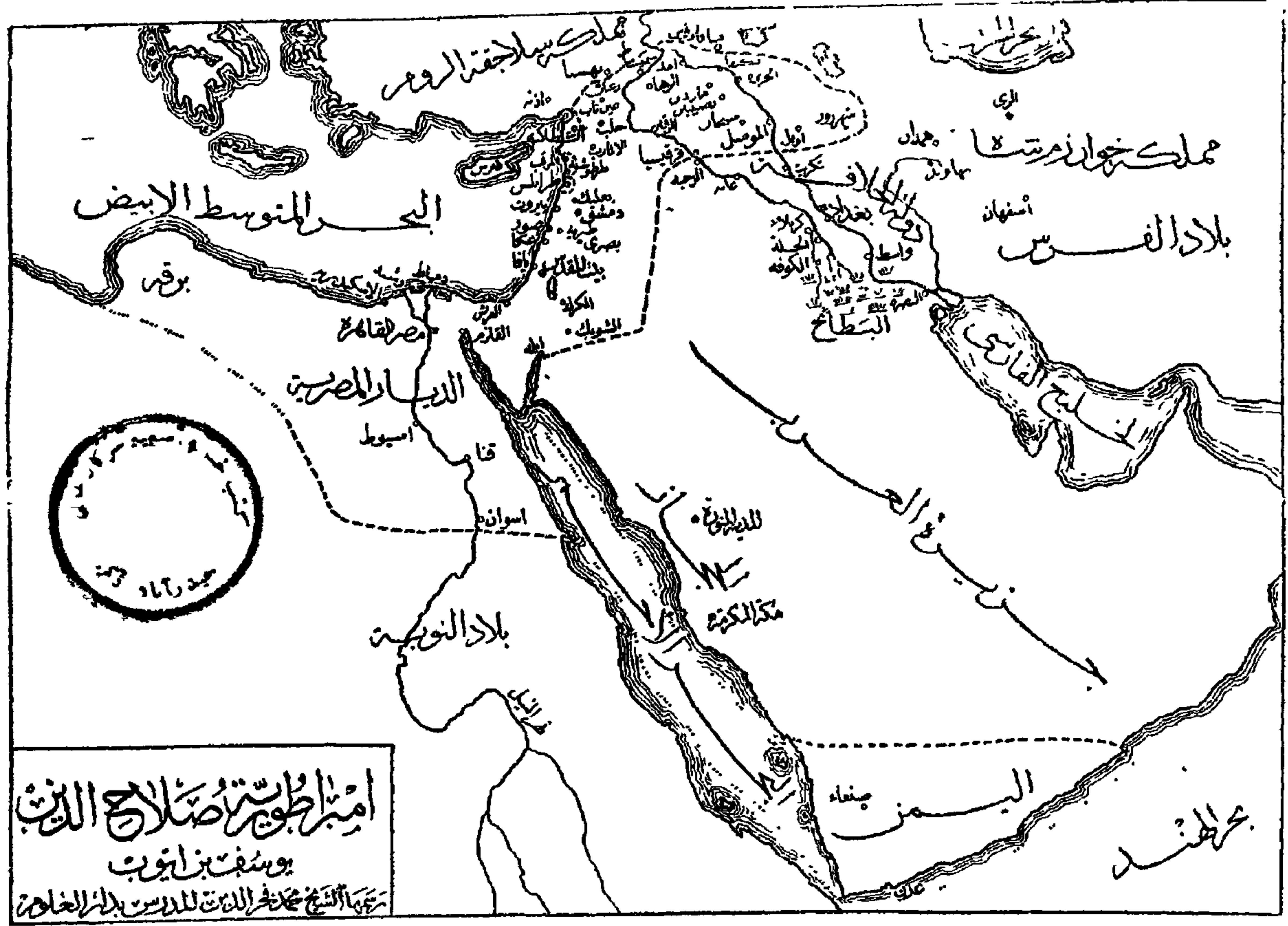
ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بزقاق البركة ويقول أمين سامى باشا ، مدرسة سعيد السعداء بشارع الجمالية تجاه حارة المبيضة ، بنيت برسم الفقراء الصوفية ، وتعرف الآن بجامع الخانقاه أو سعيد السعداء ، وكانت من دور الأمراء الفاطميين على أن صاحب صبح الأعشى يقول ، وسعيد السعداء لقب الخادم للمستنصر الفاطمى اسمه قنبر كانت الدار له ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح بن رزيك ، ولعل سعادة سامى باشا أخذ ابن رزيك كأنه صاحب الدار باعتبار أن قد صارت سكناً له كما أنه عدها مدرسة وهى لم تكن كذلك إلا بعد زمن صلاح الدين على اعتقادى

رأى صلاح الدين أن مصر ينبوع يانع يستقى منه قوته البرية والبحرية فبنى السفن وعمر الاسطول ، وإلى هذا يشير سعادة احمد زكى باشا فى محاضراته فى الجامعة المصرية بقوله « وكان للاسطول أيام صلاح الدين ديوان مخصوص يسمى (ديوان الاسطول) سلمه لاخيه الملك العادل ، فكان هذا الديوان يشبه ما كان معروفاً فى أيام المغفور له المرحوم محمد على باشا (بديوان البحرية) وما هو معروف فى أوروبا الآن (بنظارة البحرية) وهى الآن صفر فى مصر لا عين ولا أثر ، وقد كانت الاسكندرية ودمياط هما الموانىء البحرية فى ديار مصر ، أضف إليهما مدينة تنيس ، التى هى الآن خراب بلقع ، أما الفسطاط وقوص فكانتا من أعظم الموانىء النيلية ، وكان فيها إنشاء السفن الحربية التى ترابط بتلك الثغور وتذهب للغزو فى البحر لاعلاء كلمة مصر ، وجعل رايتها خفاقة فى الخافقين »

نظر صلاح الدين إلى الاسكندرية فوجدها محط أنظار الافرنج ، فخاف عليهم منها ، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، ثم ابتنى بها بيمارستاناً ، بعد أن ابتنى واحداً بمصر ، وفيه يقول صاحب صبح الاعشى « ولما ملك السلطان الديار المصرية ، واستولى على القصر ، كان فى القصر قاعة بناها العزيز بن المعز سنة ٣٨٤ هـ ، فجعلها السلطان بيمارستاناً ، وهو البيمارستان العتيق الذى بداخل القصر » ثم أنشأ السلطان بها داراً للغرباء ، كما أنه تعهد بعض الجسور والترع ليصلح حال المزارعين ، ولما كان من عادته أن يسرح جنده فى الشتاء كان حال الزراعة على ماينبغى

نظر إلى السكان وقد أثقلهم وزراء الفواطم بأنواع الضرائب المختلفة فأبطل المكوس ، وقرئت نسخة سجله على المنابر يوم الجمعة ٣ صفر سنة ٥٦٧ (٣٠ يونيه سنة ١١٧٠) وإليك بعض هذا السجل « وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور ، بمسامحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية بأبواب المكوس ، صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر براً وبحراً ، مركباً وظهراً ، سراً وجهراً ، لايخل ماشده ، ولايحاول ماعنده ، ولا يكشف ماستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف فى طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولايؤخذ منه طعمه ، ولايستباح له حرمه »

من هذا السجل يدرك الانسان مقدار ما كانت تصادفه الناس من شر هذه الضريبة وغيرها التى ما كانت تغادر غادياً ولارائحاً إلا كشفت


امبراطورية صلاح الدين
يوسف بن ايوب
رسمها الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
البحر المتوسط الابيض
مملكة سلاجقة الروم
مملكة خوارزمشاه
بلاد الفرس
اصفهان
همدان
نهاوند
الري
الموصل
اربل
شهرزور
الرها
ماردين
نصيبين
حلب
انطاكية
حماة
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
صور
عكا
بصرى
يافا
بيت المقدس
الكرك
الشوبك
ايلة
القلزم
الفرما
قبرص
برقة
الاسكندرية
دمياط
مصر القاهرة
الديار المصرية
اسيوط
قنا
اسوان
بلاد النوبة
النيل
بغداد
واسط
البصرة
الكوفة
الحلة
كربلاء
البطائح
الخليج الفارسي
جزيرة العرب
المدينة المنورة
مكة المكرمة
اليمن
صنعاء
عدن
بحر الهند

صنبره ، ومدت أيدى العمال إلى ماله فسلبته ، وإلى متاعه فنهبته ، وأوصلت بعد ذلك منه إلى الخزانة السلطانية ما شاء لها طمعها . وقد نظم ابن جبير قصيدة فى المكوس وأرسل بها إلى السلطان صلاح الدين منها

رفعت مغارم أهل الحجاز   بإنعامك الشامل الغامر
وآمنت أكناف تلك البلاد   فهان السبيل على العابر

ثم يذكر ما وقع له وما يقع لأمثاله من المسافرين على يد المكّاس فيقول

يعنت حجاجَ بيت الإله   ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم   وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعدما كوشفوا   كأنهم فى يد الآسر
ويلزمهم حلفاً باطلا   وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة   فليس لها عنه من ساتر
أليس على حرم المسلمين   بذلك المشاهد من غائر
فما للمناكر من زاجر   سواك وبالعرف من آمر

من إبطال هذه المكوس يدرك الانسان ما كان عليه السكان من الذلة من جهة ، وما كان يرغب فيه صلاح الدين من نشر التجارة وتسهيل سبلها من جهة أخرى ، لعلمه أنها مرقى الامم إلى الحضارة والمدنية ، ولذلك قيل عنه إنه كان يبيحها مع الافرنج فى أيام حربه معهم .

يشير ابن جبير فى قصيدته المتقدمة إلى إبطال مغارم أهل الحجاز ، وصحيح هذا فقد عُوض أمير مكة عنها فى كل سنة بألفى دينار وألف

أردب من القمح سوى عدة إقطاع بالصعيد وباليمن ، فزال عن الحجاج ذلك العناء الذي كان يقف في سبيل كثير من الراغبين في أداء الفريضة .

هذا قليل من كثير من مناقب هذا السلطان الكبير والقائد العظيم والفاتح المظفر ، وعندي أن لو كثر بين ملوك المسلمين أمثال صلاح الدين لما وصلت الأمم الاسلامية من الضعف والوهن في أمورها الداخلية والخارجية إلى ما وصلت إليه ؟



مصادر الكتاب

اعتمدنا فى بحثنا على كثير من الكتب القيمة المكتوبة باللغة العربية والانجليزية والفرنسية ولم نقصر همتنا على قراءة تلك الكتب المطولة بل تصفحنا كذلك الكتب المدرسية وما فى حكمها من التى لم تكتب بأسهاب عن صلاح الدين مثل تاريخ ابن اياس وتاريخ أسامة وتاريخ المسعودى وابن الوردى وبعض كتب فقهية وأدبية كطبقات الشافعية للسبكى ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده المفتى وكتاب الاسلام ترجمة فتحى زغلول باشا وصبح الاعشى للقلشندى وكمعجم ياقوت الحموى وحماة الاسلام والتعليم فى مصر لأمين سامى باشا وكبعض الرحلات والمجلات وإلى حضرات القراء طائفة من أمهات الكتب العربية التى رجعنا إليها فى هذا البحث

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الاثير	الكامل وما على هوامشه من الكتب
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر - بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
ابن خلكان	وفيات الأعيان ـ مصر سنة ١٣١٠ هـ
ابن جبير	رحلة ابن جبير
ابن دحلان	الفتوحات الاسلامية
ابن شداد	النوادر السلطانية ـ مصر سنة ١٣١٧ هـ
أبو الفداء	المختصر فى أخبار البشر ـ مصر سنة ١٣٢٥ هـ
اسماعيل سرهنك	حقائق الاخبار عن دول البحار ـ بولاق سنة ١٣١٤ هـ

البستانى	دائرة المعارف
السيوطى	حسن المحاضرة ـ مصر سنة ١٣٢٩ هـ
جورجى زيدان	الخطط ـ مصر سنة ١٣٢٤ هـ
سيد على الحريرى	مصر الحديثة
شهاب الدين المقدسى	الحروب الصليبية ـ مصر سنة ١٣٢٩ هـ
عماد الدين الكاتب	كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
	الفتح القسى فى الفتح القدسى ـ مصر سنة ١٣٢٢ هـ
محمود فهمى	البحر الزاخر ـ مصر سنة ١٣١٢ هـ
ميخائيل شاروبيم	الكافى ـ مصر سنة ١٣١٥ هـ
فريد وجدى	دائرة معارف القرن العشرين

الكتب الافرنجية غير المدرسية وما فى حكمها

Authors	Books
Edward A. Freeman	General Sketch of European History
Sayed Ameer Ali	Short History of the Saracens
The Thimes	Historians, History of the World
Muir. Sir W. T.	The Caliphate.Its Rise. Docline&Fall
Stanley Lane-Poole	Saladin
,, ,,	The story of Cairo
Steven Son. W. B.	The Crusaders in the East.
Washington I.	The Lives of the Successors of Moh.
Besant,w,&Palmer,E.H.	Jerusalem
Larouse, P.	Grand Dictionnaire Universal 15vols.
Justave, Le bon	Le Civilisation des Arabes.
Dezobry et Bachelet	Dictionnaire de Geographi et d'Histoire.
Michaud J. F.	Histoire des Croisades.
Maily J. E.	L'esprit des Croisades.
	Encyclopoedia Britannica

الفهرس

ص٣ ـ ١٢ تقرير شيخنا الجليل الشيخ عبد الوهاب النجار أستاذ التاريخ الاسلامى فى الجامعة

ص١٣ـ١٦ كلمة للأستاذ الدكتور طه حسين

ص ١٧ رسالة السيدة الفاضلة الآنسة (مىّ)

ص ١٨ رسالة الأستاذ الدكتور طه حسين

ص١٩ـ٢٥ مقدمة الطبعة الأولى

ص٢٦-٢٩ مقدمة الطبعة الثانية

ص٣٠-٣٧ الفصل الاول فى الدولة العباسية ـ :

الخلافة واختيار الخلفاء ـ فارس مهد الدعوة العباسية ـ حضارة العباسين ـ بدء الضعف فى الدولة - الموالى واستبدادهم بأمر الخلافة ـ استقلال عمال الاطراف ـ ظهور الديلم - تغلب السلاجقة وظهور الروح الحربى ـ وظيفة أمير الامراء والخطبة له ـ إنشاء الامرات لأصحاب المناصب فى الدولة - ضعف الدولة وظهور الاسر المختلفة

ص٣٨ـ٥٢ الفصل الثانى فى الحروب الصليبية : -

الدعوة إليها - قيام أهل أوربا - بطرس الناسك ـ البابا أربانوس الثانى ـ أسباب هذه الحروب - اختلاف المؤرخين فيها - سبب نجاح الافرنج فى تملك الولايات اللاتينية بالشام

ظهور محمود نور الدين زنكى ثم صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ سبب فشل الافرنج – القضاء على أملاك الافرنج فى الشام – أثر هذه الحروب فى حضارة أوربا

ص٥٢–٥٨ صلاح الدين : قومه وعشيرته : ـ

الاكراد ومعيشتهم الاولى ـ لغتهم ـ دياناتهم ـ حكومتهم أصلهم وتسميتهم ـ صناعاتهم ـ أسرة صلاح الدين ـ نسبها موطنها الاول ـ انتقالها إلى بغداد ثم إلى تكريت

ص٥٩–٧٤ صلاح الدين ـ أيامه الاولى : ـ

مولده ـ رحيل أهله من تكريت ـ حياته فى بعلبك ثم فى دمشق ـ تربيته وقول المؤرخين فيها ـ ماالذى كان يعمله ـ ماالذى تعلمه ـ كيف كان يقضى وقته

ص٧٥ـ٩٧ صلاح الدين : ابتداء أمره قبل ملكه : ـ

ظهور السلاجقة ـ الوزير نظام الملك والاقطاع العسكرى مصر وخلفاء الفاطميين ـ فتنة الوزارة بها ـ وزارة شاور الاولى ـ تغلب الضرغام عليه ـ هرب شاور إلى نور الدين وحملة شيركوه الاولى ـ وزارة شاور الثانية ـ محالفته لملك القدس أملريك ـ غزوة شيركوه الثانية ـ نقض أملريك شروط المحالفة ـ تحرج مركز شاور ـ استنجاد الخليفة الفاطمى بنور الدين ـ حملة شيركوه الثالثة ـ مقتل شاور ـ وزارة شيركوه ـ وفاته

ص٩٨-١٢٣ حياة صلاح الدين العملية : الدور الاول فى مصر :-
صلاح الدين وزيراً للفاطميين ومندوباً لنور الدين - فتنة العبيد - الافرنج فى دمياط - غزوة وبلاد القدس الجنوبية - استيلاء صلاح الدين على مدينة العقبة - الخطبة للخليفة العباسى - وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين وانقراض دولتهم - توزيع كنوز القصر وكتبه وسياسة صلاح الدين التى اتبعها مع المصريين - فكرة بناء القلعه والسور - سياسته مع نور الدين - غزوة الشوبك بينه وبين نور الدين - إيفاد صلاح الدين أخاه طوران شاه إلى السودان - غزوه الكرك وازدياد الجفوة - وفاة نجم الدين أيوب - غزوة بلاد اليمن ومؤامرة عمارة اليمنى واتفاقه مع الافرنج - فشل المتآمرين - كسر الافرنج فى غزوتهم الاسكندرية وفاة نور الدين - موت ملك القدس أماريك

ص١٢٤-١٥٢ الدور الثانى : صلاح الدين فى الشام :-
الملك الثانى اسماعيل بن نور الدين والامراء الشامية - سيف الدين صاحب الموصل واستيلاؤه على أملاك الملك الصالح - سياسة صلاح الدين - انتقال الملك الصالح من دمشق إلى حلب - كمشتكين اواستبداده بأمر الملك الصالح - خوف الامراء من كمشتكين واستنجادهم بسيف الدين صاحب الموصل ثم بصلاح الدين - قيامه من مصر إلى دمشق واستيلاؤه عليها - مسيره إلى حلب ومحاصرتها - العمل على اغتيال حياة صلاح الدين

ومحالفة كمشتكين للافرنج- تحالف الملك الصالح وسيف الدين صاحب الموصل للحرب مع صلاح الدين وانهزام المتحالفين- حصار حلب ثانية- محاولة اغتيال صلاح الدين مرة أخرى- حصار حلب ثالثة- الصلح بين المتحاربين - خلع الخليفة العباسى وأمره بالولاية لصلاح الدين - قطع الخطبة للملك الصالح- غزوة بلاد الاسماعلية - عودته إلى مصر-بدء بناء القلعة - غزوة الافرنج لجهات دمشق - قيام صلاح الدين إلى عسقلان وغزوة جهات فلسطين الجنوبية - انهزامه - رحيله بالجيش من مصر إلى دمشق - بناء الافرنج قلعة يعقوب - نزاله الافرنج وتخريب قلعة يعقوب - مهادنة الافرنج له - غزواته فى جهات سوريا الشمالية - محالفة أمرائها له - عودته إلى مصر - نقض أمير الكرك شروط المدنة - وفاة سيف الدين صاحب الموصل- وفاة الملك الصالح إسماعيل - قيام صلاح الدين إلى الشام- الاغارات على بلاد الافرنج - حصاره لبيروت - رحيله عنها إلى الموصل- تحالف امراء الجزيرة معه - حصار الموصل - استيلاؤه على سنجار وغيرها- مسيره إلى حلب واتفاقه مع صاحبها - دخوله حلب - رحيله إلى دمشق - غزوة أمير الكرك لبلاد العرب وانهزامه - حصار الكرك - الصلح مع الافرنج - مرضه والصلح مع أمير الموصل

ص١٥٣-٢١٠ الدور الثالث : صلاح الدين فى فلسطين :-

أحوال مملكة القدس واختلاف كلمة الافرنج فيها - انحياز ريموند إلى جانب صلاح الدين - صاحب الكرك وقافلة حجاج المسلمين — اجتماع جيوش المسلمين — اجتماع كلمة الأفرنج — واقعة حطين واستيلاء صلاح الدين على طبرية قتل أمير الكرك وبعض أسرى الافرنج — استيلاء المسلمين على عكا وبيروت وغيرها — اهمال صلاح الدين مدينة صور ومحاولته منع كونارد من تحصينها — فتح عسقلان وما جاورها — مسيره إلى بيت المقدس واستردادها — معاملته لافرنج القدس حين خروجهم — تطهيره الاماكن المقدسة واستحضاره المنبر الذى أنشىء للمسجد الاقصى أيام نور الدين - حصار صور وتقهقر المسلمين ونتيجة ذلك — النداء فى أوروبا بحملة صليبية لانقاذ بيت المقدس — مسير السلطان إلى أنطاكية وطراباس — فك أسر الملك جوى — الصلح مع صاحب أنطاكية — استيلاء المسلمين على عدة بلاد — قيام الافرنج على عكا وحصارها — وصول الامبراطور فردريك بارباروس وغرقه — وصول فيليب ورتشارد — مسير الافرنج إلى يافا — محاولة الصلح مع السلطان — تخريب عسقلان وغيرها — الرحيل إلى القدس — قصد الافرنج القدس — العدول عنها إلى عسقلان وتعميرها — مقتل كنونارد —

العودة إلى قصد القدس — العدول عنها إلى غيرها — مسير الافرنج إلى عكا — اقتفاء المسلمين أثرهم ودخولهم يافا — ارتدادهم عنها — الصلح ووساطة الملك العادل شروطه — مغادرة رتشارد الشام إلى بلاده — نتيجة الحرب — مسير صلاح الدين إلى القدس ثم إلى دمشق — وفاته

ص ٢١١–٢٢٦ خاتمة

صفات صلاح الدين وأخلاقه وسيرته فى رعيته — ما قاله سمو الامير محمد على — زيارة أمبراطور ألمانيا لقبره — أقوال الافرنج فى صلاح الدين — أعمال صلاح الدين المدنية — فتح المدارس — انشاء الخوانق والرُبط — بناء السفن وإصلاح الجسور — بناء البيمارستانات — ابطال المكوس

ص ٢٢٧–٢٢٨ المصادر التى عولنا عليها فى كتابة هذا الكتاب

ص ٢٢٩–٢٣٤ الفهرس

﴿ الخرائط والصور ﴾

صلاح الدين — البابا أربانوس الثانى — بطرس الناسك — الملك أمورى — خريطة القاهرة — قلعة صلاح الدين — خريطة فتوحات صلاح الدين — نسر صلاح الدين — بيت المقدس — حصن الاكراد — قبر صلاح الدين — خريطة أملاك صلاح الدين

ملاحظة — وقعت أثناء الطبع بعض غلطات مطبعية أرجو الا يكون فى عدم ذكرها هنا مايكدر صفو القارئ او يقطع عليه سبيل المطالعة ؟